جون لويس بوركهارت

ملاحظات عن البدو والوهابيين



مؤسسة الانتشار العربي

جون لويس بوركهارت

ملاحظات عن البدو والوهابيين

دوّنها إبان ترحاله إلى الشرق

ترجمة

غاندي المهتار

الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

ملاحظات عن البدو والوهابيين
دوّنها
خلال ترحاله إلى الشرق

جون لويس بوكهارت

ترجمة
غاندي المهتار

NOTES ON THE
BEDOUINS AND WAHABYS

COLLECTED
DURUIG HIS TRAVELS IN THE EAST

BY THE LATE
JON LEWIS BURCKHARDT

الانتشار العربي

ص.ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت-لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

المحتويات

الجزء الأول: البدو

الجزء الثاني: الوهابيون

الجزء الأول

البدو

١

تصنيف القبائل البدوية النازلة في البادية السورية

تصنف هذه القبائل إلى صنفين أحدهما جماعة تدنو من الأراضي الزراعية في سوريا ربيعاً وصيفاً وتغادرها شتاءً، والأخر قبائل كانت تلازم الأراضي الزراعية طوال السنة. ويتألف الصنف الأول من قبائل عنزة بينما الثاني يتألف من قبائل متعددة من أهل الشمال وعرب القبلي.

عنزة هي القبيلة العربية الأقوى التي تسكن في جوار سوريا، وإن أضيف إليها أتباعها في نجد، تمسي القبيلة الأقوى في الصحارى العربية. فالذين يعيشون في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية، ويتخذون لهم مضارب شتوية في صحراء حمّاد[1] أو في السهل بين حوران وهيت على الفرات. لا ينابيع وواحات في الحمّاد لكن مياه الشتاء تتجمع في المناطق المنخفضة، فتؤمن الشراب للقطعان العربية. ومعروف أن قبيلة عنزة تجتاز الفرات لتضرب مضاربها في العراق، قرب بغداد. وفي الربيع، تقترب هذه القبيلة من الحدود السورية وتشكل خطّ استقرار يمتد من حلب نحو جنوب دمشق مسافة ثمانية أيام؛ وخلال هذا الوقت، يكون تمركزهم الرئيسي في نواحي حوران حيث ينصبون خيامهم بالقرب من القرى. أما في شمالي البلاد، صوب حمص وحماه، فيبتعدون قليلاً من المناطق السكنية. وفي هذه الأجزاء يمضون الصيف بحثاً عن الكلأ والماء، وفي الخريف يشترون المؤونة للشتاء ويعودون إلى وسط البادية مع أول مطر.

وقد سمحت لهم قوتهم فرض الجزية[2] السنوية على معظم القرى قرب الحدود الشرقية لسوريّا. كما مضى على تحوّل معظم أفراد القبيلة إلى الوهابية قرابة خمسين عاماً. وقد جعلتهم الأرباح التي يجنونها من قوافل الحجاج إلى مكة جعلتهم في سلام مع الحكام الأتراك، حتى

(١) صحراء الحماد هي الصحراء العربية شرقاً، والحماد أي الأرض المستوية لا نبت فيها ولا شجر.

(٢) المقصود بالجزية هنا، الزكاة.

أنهم ما عادوا يدفعون الزكاة للوهابيين. لكن يجب التنبه إلى أن موسم الحج والحجاج إن لم يكن كثيراً فإنهم يعودون لطاعة الوهابيين أو يرحلون إلى سوريا. العنزيون الشماليون، الذين أقصر كلامي هنا عليهم، مقسمّون إلى أربعة بطون رئيسية هي: وُلد علي وَالحسنة وَالرّولا وَالبِشِر.

أولاً: قبيلة ولد علي. مضاربهم الشتوية على طريق قوافل الحج عند قلعة الزرقاء. شيخهم، الطيار[1]، ملقب بأبي عنيزة. وقبيلة ولد علي تنقسم إلى خمسة بطون هي:

١ ـ المشارقه، وتؤلف عرب الطيار والمريخات واللحوين.

٢ ـ المشطة، وشيخهم ضوحي ابن إسمير الأقوى بين قواد العنيزة برغم أنه أقل شأناً من الطيار. لكن علاقاته مع والي دمشق تقويه خصوصاً بعد أن اعتاد أن يرسل له الجمال هدايا من أجل قوافل الحج. يخيّم هذا القائد وصحبه عادةً على بعد ثمانية أو عشرة أيام بعيداً من دمشق. وفي خيمة هذا القائد احتمى باشا دمشق عند رحيله عن المدينة عام ١٨١٠. وأكبر قبائل المشطة هي العواض والمؤلفة من عائلات كبيرة مثل الطيّور والعطيفات والمقييل.

٣ ـ الحمامدة ومضاربهم على الطريق إلى مكة قريباً من معن، ولهما شيخان من عائلةٍ واحدة هما سالم العدّة ومبارك العدّة.

٤ ـ الجدالمة، وفيهم قبيلتان، القرينات والطورشات تتبعان ابن إسمير.

٥ ـ الطلوح. من حق كل قادة ومشايخ قبائل ولد علي الإفادة من (الصرّة) أو الضريبة المفروضة على قوافل الحجاج وفق مبالغ مقدّرة ومسجلة في سجلات باشا دمشق أو أمير الحج، كما في سجلات الخازندار في القسطنطينية. لكن الباشا هذا يتمتع بحريّة فرض المزيد من الضرائب على المشايخ كأن يأخذ منهم الخيول والجمال والقطعان. والطلوح هي القبيلة الوحيدة التي تتلقى (الصرّة) مباشرة من القسطنطينية.

ثانياً: الحسنة، عددها قليل وتتألف من قبيلتين مهمتين:

١ ـ الحسنة وشيخها مهنّا، تضرب مضاربها في الصحراء إلى الشمال من طريق دمشق ـ حمص وتشتهر هذه القبيلة بشجاعة أفرادها وكرمهم وحسن ضيافتهم. قبائلها الشمسي والقدابة والعويمر والرفاش والمهينات والحجاج والشرابي.

---

(١) الطيار، هو الجد الأكبر للشيخ نواف بن سلطان الطيار، والمنتسبون إليها هم: (الطايرة) ومن شيوخهم سطام الطيار.

٢ ـ المساليخ ويرفعون بيرق مهنّا. ينظر إلى أفراد هذه القبيلة على أنهم مرتزقة. تتألف من **الحاتمي** وبني رشود و**البيلسان** و**السميلق**.

يقال إن الحسنة كانت مجتمعة وانقسمت بين أخين. والقبيلتان تتقاضيان الضريبة من قوافل البصرة وبغداد التي تمر في طريقها إلى حلب أو دمشق وتبلغ حوالى ٣ شلنات على الجمل الواحد.

ثالثاً: قبيلة الرولا ـ ويطلق عليها أيضاً اسم الجلاس[١]، وهي قبيلة قوية تمتلك آلاف الجياد. وفي عام ١٨٠٩، هزمت هذه القبيلة حملةً مكونة من ستة آلاف محارب جرّدها والي بغداد. في العادة يستوطنون البادية بين جبل شمر والجوف حتى حدود حوران، ولكن قد ينصبون خيامهم بين دجلة والفرات أيضاً. كما العنيزيون الآخرون، فقد رفضوا تأدية الزكاة للوهابيين طوال سنوات، ولكن خلافهم مع الباشا في بغداد حسّن من علاقاتهم مع (ابن سعود)[٢]. ففي تموز ١٨١٠، رافقوا الوهابيين إلى حوران وقادوا ابن سعود إلى القرى الغنية هناك، والرولا يزورون قبيلة ابن اسمير كل ربيع ليوسطوه لدى الباشا فيسمح لهم بشراء القمح والدقيق والمؤن من أراضيه، ولم يكن مسموحاً لهذه القبيلة تقاضي (الصرّة) من الحج ولا الضريبة من القوافل الآتية من البصرة وبغداد. أما أفخاذها الأساسية فهي **السوالم** و**العبدل** و**فرجا** و**البلايش** و**البدور** و**ابن عويج** و**الزراق** و**صخّان** و**حجليس** و**دريع**.

رابعاً: قبيلة البشر، أكبر قبائل عنيزة عدداً. شيخ هذه القبيلة ابن هذال[٣] يستوطن وعَرَبِهِ نجد حيث نزل معظم القبيلة. وابن هدّال مرموق الجانب في بلاط ابن سعود. وقبل ٥٠ عاماً، بدأ أفراد هذه القبيلة يطلبون المال من قوافل البصرة وبغداد.

تنقسم هذه القبيلة إلى عدة أفخاذ قوية. وفي طريقي من حماه إلى تدمر لاحظت هذه القبيلة مسيطرة على كل الواحات التي صادفتها في الطريق. غالبية البشر في نجد **كالسليمات** و**الحسيني** و**المضيان**. هذا ما أعرفه بالتمام عن أعظم قبائل عنيزة. لتفصيل طوائفها يجب فهرسة كل عائلاتها مع توابع العائلات. صعبٌ جداً معرفة عدد أفراد كل قبيلة بسبب اعتقاد شائع يقول بعدم جواز إحصاء الأفراد كما المال.. فأنت إن أحصيت مالك خسرت منه شيئاً. وعلمت من بعض الشوام الذين أمضوا وقتاً طويلاً برفقة البدو، أن عدد فرسان هذه القبيلة

(١) سميت قبيلة الرولا بالجلاس، نسبة إلى جدها الأكبر زايد الجلاسي. ووادي الجلاس معروف من أودية خيبر.
(٢) يقصد بابن سعود هو الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد وابنه عبد الله بن سعود بن عبد العزيز.
(٣) من شيوخ البشر، المرحوم فهد البيك ابن هذال وابنه المرحوم محروث بن فهد البيك الهذال، وكانت مشيختهم في العراق ثم انتقلوا إلى السعودية.

يقترب من العشرة آلاف بالإضافة إلى ما بين تسعين ومئة ألف راكب جمل. لكني أظن فعلاً أنها أرقام مبالغ فيها، وأقدر أن قوم عنيزة الشماليين يعدون بين ثلاث مئة ألف وثلاث مئة وخمسين ألف نسمة على بقعةٍ من الصحراء مساحتها على الأقل أربعون ألف ميل مربع.

أهل الشمال

عرب الشمال أو كما يسمون بـ«أم الشمال»[1] هم النازلون كل العام بين قرى سوريا الشمالية خصوصاً من المناطق الممتدة بين حوران وتدمر شمالاً حتى قرية سُخُن التي تبعد مسير خمسة أيام من حلب، على الطريق إلى بغداد. هذه هي أرض الشمال التي تقابلها أرض نجد وقبلي بني جنوب الجزيرة العربية. لم يتوغل عرب الشمال أبداً في البادية الشرقية، وهم يمتلكون الكثير من الجياد والقليل من النوق بالمقارنة بقبيلة عنزة.

وتمتد مضارب القبائل من الشمال وهي:

١ ـ قبيلة الموالي قرب حلب وحماه. يتلقى أميرها أو شيخها مالاً سنوياً من حاكم حلب إذ يقوم بحماية قرى البشليك من غزوات القبائل الأخرى. فرسان هذه القبيلة أربع مئة فارس يعرفون بالخداع والمكر وعدم الأمان. والد الشيخ الحالي، محمّد الخرفان، ذبح في فسطاطه، يوم أحد الأعياد، مئتي ضيف عنيزي وامتلك مالهم وسبى نساءهم. انشق عن الموالي التركي والجماجمي والعقيدات. قبائل الحديفة والمداهش الصغيرة تتبع عادةً الموالي برغم عدم تنزلها منهم. بعض العقيدات أمسوا مزارعين فزرعوا أرض «دير» على ضفاف الفرات، بينما البعض الآخر استوطن محيط بعلبك وبعض ثالث في جبل حيش جنوب ـ غرب دمشق.

٢ ـ الحديديون. أعداء الموالي الدائمون وهم: في الفروسية، يجارون الموالي كذلك في السلاح. وتشتهر نساء هذه القبيلة بنعومة بشراتهن. وفي الحروب التي كانت تدور دوماً بين هاتين القبيلتين، كان المهزومون يطلبون ملجأً خلف أسوار جنائن حلب. قبيلة السكين المؤلفة من ستمائة خيمة، زرعت جزءاً من جبل حصّ جنوب شرق حلب. أما البراق والمجل فمن أصول كردية أو تركمانية يستوطنون المناطق الممتدة من عينتاب إلى الفرات.

---

(١) لقد أورد المؤلف أسماءً لأفخاذ وبطون عنزة، وقد حاولنا تصحيح الأسماء بقدر الامكان وشطبنا بعضها لأنها مكتوبة بالانجليزية حسب السماع وأن نقلها إلى العربية يبعدها عن الحقيقة. ولمعرفة تفاصيل أكثر عن قبيلة عنزة يرجى الرجوع إلى كتاب (أنساب قبائل عنزة) تأليف عبد الله بن عبار العنزي، ولم يذكر الكتاب سنة الطبع أو مكانه.

٣ - التركمان. قبائل بدوية من أصل تركماني تجوب المناطق المحيطة بحماه وحمص.

٤ - (العرب تحت حمل حماه)، أو العرب الموالين لمتسلّم حماه الذي يعينه الباشا ليقوم مقامه، فيكون عليهم دفع الضرائب له من الخراف والسمن والجمال. هذه القبائل العربية هي بنو خالد - بعضها في نواحي البصرة - وبشاكين وطوقان وأبو شعبان وحواميرون والأبو عاصي وبنو عز والرطوب والشقرا وغنمات التل والخراشيون والرزيق والحدادون والتركي والجماجمي[١]. لبني خالد بين مئتي وثلاث مئة خيمة، بينما للآخرين خمسون أو مئة خيمة على الأكثر.

٥ - عرب نواحي بعلبك على مبعدة مسير عشرين ساعة نحو حمص شمالاً، يدفعون الخراج لأمير بعلبك كي يسمح لهم بالبقاء في أراضيه صيفاً. وهم قبائل **التركمان السويدية** الذين ينزلون في الجرد الشرقي التابع لسهل بعلبك. وهناك خيام قليلة لعبيد القعيدات قرب الهرمل بين القاع وحمص. وهؤلاء ينحدرون من عبد أسود خدم آل حرفوش الذين تحولوا إلى الحياة البدوية.

٦ - عرب سهل البقاع ينزلون هناك طلباً للكلأ والماء والرعي، فيدفعون الخراج للأمير بشير الشهابي أمير الموحدين الدروز. قسم من الفضل ينزلون أصلاً في القنيطرة وجبل حيش. وقسم من النعيم إلى جوار الفضل.

أما النميرات والزريقات فيجاورون صفد. ويضاف إلى هؤلاء قبائل صغيرة كعرب الهايب الذين يقصدون الساحل البحري شتاءً بين جبيل وطرطوس. وبعض عائلات الهايب تبقى في الجبال شتاءً حيث تنصب خيامها بين قرية العاقورة وقرية طمرين. في الصيف، يتسلق عرب الهايب جبل لبنان حيث وجدتهم في عام ١٨١٠ بين بشري والعاقورة، قريباً من أعلى قمم الجبال، في أرض محلوح. بالإضافة إلى النوق والخراف والماعز، كان هؤلاء يربّون الأبقار ويدفعون الخراج لوالي طرابلس ويشتهرون بكونهم لصوصاً محترفين.

٧ - الصليب، قبيلة من أهل الشمال مشتّتة بين قبائل عنزة المجاورة، وهي مسالمة لفقرها فلا خيل عندها ولا نياق ولا خراف بل إنها لا تملك خياماً تسكنها. وفي الشتاء تلجأ عائلات عديدة منها إلى خيمة واحدة لكي تتقي البرد والمطر. متاع أفراد هذه القبيلة أوانٍ قليلة للطهي وعندهم بعض السلاح. أما النساء والأطفال فيرتدون جلود الغزال

(١) هذه الأسماء هي ترجمة حرفية لما ورد في الكتاب من تسميات للقبائل أوردها المؤلف حسبما سمعها بالعربية، فنرجو الانتباه إلى ذلك.

كما يستخدمونها كحقائب يحملون فيها متاعهم. أما غذاؤهم الأساسي فهو لحم الغزال المقدّد خلال العام[1].

٨ ـ أهل الجبل هم القاطنون في الجبال بين حمص وتدمر، وفق سلسلتين: الأولى الجبل الأبيض والأخرى جبل رواق اللتان تلتقيان في تدمر. هؤلاء العرب يتقاضون المال من قرى أرض الشمال ويدفعون الجزية لإحدى قبائل عنزة، الحسنة. وخيام أهل الجبل تجاور أكواخ المزارعين في تدمر ولهم جياد أصيلة جداً يعتزون بها.

إن اتجهنا صوب الجنوب، نجد قبائل عربية عديدة تسكن دمشق وفي جوار حوران، يرى فيها السوريون قبائل تحتل المناطق الفاصلة بين عرب الشمال وعرب القبلي. تنقسم هذه القبائل العربية إلى أربعة أقسام معروفة بموالاتها الجماعية لباشا دمشق:

١ ـ عرب حوران أو الفحيلي وتعدادهم مئتا فارس. في كل عام يقدم باشا دمشق لشيخهم معطفاً من الفرو[2] لكن يتقاضى الضريبة من كل عرب جبل حوران والمنطقة التي تدعى لجة. في المقابل، ينتظر الباشا هديةً سنويةً محترمةً. يتلقّى الفحيلي ضريبة سنوية من كل قرى حوران وغالباً ما يدخلون في حروب مع حاكم هذه المنطقة.

وهناك قبيلة السردية وهذه مقسومة إلى فخذين هما عرب الظاهر وعرب الواكد ويتبعان شيخين اثنين. ولهذه القبيلة ١٥٠ فارساً ولها جياد أصيلة. وفي كل عام، يقدم باشا دمشق الثياب والسلاح للشيخ ويتلقى منه فرساً أصيلةً، وعندئذ يمسي هذا الشيخ شيخ حوران ويساعد قوات الوالي في صد أي غزوات على منطقة حوران. لكن كما الفحيلي، غالباً ما تجد هذه القبيلة نفسها في حروب مع الباشا.

عموماً فإن أهل جبل حوران منقسمون إلى قبائل متعددة تعيش بسلام مع جيرانها ولا تنسى أبداً تحالفها مع والي دمشق. لا يتركون الجبال أبداً لكنهم يبحثون عن الكلأ في كل مكان ويرعون ماشية مزارعي حوران، وفي الربيع يعيدون القطعان إلى أصحابها لتحلب ويصنع من لبنها الزبدة ولتباع الخراف الفتية في أسواق دمشق. وفي مقابل مشقتهم يتقاضون ربع الجيل الجديد من الماعز والخراف وربع إنتاج الزبدة، ويحملون الفحم إلى دمشق. بينهم قبائل الشنابل والحسن والهديّة والشرفات والمزايد وبني أدهم

(١) صليب وصلبة. قبائل تائهة في الصحراء، يُرد عليها انتسابها لنسب معين في العرب. ويقال عنهم إنهم بقايا الجيوش الصليبية.

(٢) يقصد المؤلف بمعطف الفرو، ما يسميه البدو (الفروة) أي العباءة الرجالية المصنوعة من جلد الخروف بصوفه يرتدونها شتاءً.

والصمّارات والكراد أو الكرد ذوو الأصول الكردية، الذين نسوا لغتهم الأم وأمسوا عرباً. أما قبائل الروفاع والغياث، فهم من أهل جبل حوران ولو خيموا خارج ذلك الجبل. منازلهم عادة في بلدة الصفا، على بعد يوم واحد من جبل حوران، ولهذا يجدون صعوبة في تحدي إرادة باشا دمشق أو القبائل العربية المتحدة. الصفا مكان صخري خصب. يمتلك الغياث قرابة ٨٠ جواداً أصيلاً وقرابة ١٠٠ خيمة. أما الأكثر عدداً فهي قبيلة الشنابل[١].

٢ - عرب اللجّا. ينزل هؤلاء منطقة اللجا الصخرية شمال غرب سفح جبل حوران. إن أحوال هذه المنطقة غير الخصبة تدفع بالعرب إلى الامتناع من دفع الضريبة للباشا في دمشق ما يؤدي إلى الحروب وغزوات القرى الحورانية. ولكن بسبب الحاجة لينابيع المياه في تلك المناطق، يضطر الجميع إلى الاسراع في عقد الصلح قبل حلول جفاف الصيف. وكانت الضريبة تصل إلى ٦٠ قرشاً من كل خيمة، بحسب غنى صاحب الخيمة.

أما القبائل الأساسية في اللجا فهي الصولوت والمدلج التي تعدّ كل واحدة قرابة مئة وخمسين خيمة، والسلمان والضويهرة والسيّالة.

٣ - عرب الجولان: هذه منطقة تمتد من على بعد ٨ ساعات من دمشق حتى مسير ٣ أيام نحو الجنوب الشرقي. عيّن والي دمشق حاكماً على الجولان ليجمع له «الميري» أي الضريبة من الفلاحين وأموال الخراج من القبائل النازلة في الجولان وهي قبائل **الدياب والنعيم والمناذرة** الذين يعيشون في وادي حامي صقر، على ضفاف مسيل ينبع في حوران ويصل إلى البحر الميت ليصبّ فيه بعد أن يتخذ اسماً جديداً هو «شريعة المنذور». بعض هؤلاء العرب حضر لكن لا يزالون يعيشون في خيام. وعلى ضفاف هذا النهر يزرعون حدائق الأشجار المثمرة، فيدور الباعة المتجولون بالمحصول ليباع في حوران. أما بنو كلب فخيامهم في جنوب الجولان.

٤ - عرب القنيطرة أو جبل حيش: القنيطرة قرية صغيرة فيها خان، تبعد مسير يومين إلى الجنوب الغربي من دمشق، وسط جبلٍ يدعى حيش القنيطرة، ويمتد من سفوح جبل الشيخ حتى الضفاف الجنوبية الشرقية للبحر الميت حيث يلتقي بسلسلة جبال Arabia Petraea. يقطن العرب في هذه الجبال وينتشرون حتى سفوحها الغربية التي

(١) يرجى ملاحظة تعليقاتنا السابقة بشأن أسماء القبائل.

يطلقون عليها اسم الحول، ويقوم ضباط الباشا الدمشقي بجمع مال الخراج، ويرسله إلى قلعة المزاريب.

ومن قبائل عرب القنيطرة قبيلة الفاضل التي يحمل شيخها لقب أمير. وقد سبق لي أن ذكرتهم من قبل بين عرب البقاع والجولان، ولهم ٢٥٠ خيمةً، ويمدون دمشق باللبن الحليب والماعز والفحم الذي يصنعونه من خشب شجر السنديان الموجود بكثرة في هذا الجبل. أفخاد الفاضل هي الحروك والعجرميّة.

وهناك قبيلة النعيم، وهي قبيلة عربية قوية. مثل الفاضل، وتقوم هذه القبيلة بمد دمشق باللبن والزبدة والجبنة والفحم، وتدفع الضريبة للوالي، وبعض أفراد هذه القبيلة يعملون بالزراعة في الجبل وبعضهم الآخر بدو رحل. جيادهم قليلة لكن قطعان خرافهم كبيرة يبيعون منها في دمشق وجبل الدروز ولبنان خلال إقامتهم في سهل البقاع. ولقبيلة نعيم ٥٠٠ خيمة، وإحدى قبائلهم الصغيرة تدعى آل حرب.

ومن القبائل أيضاً قبيلة الوسيّة وهي من قبائل القنيطرة، تزرع الأرز والذرة في الجبل لكن يعيش أفرادها في الخيام ويبدلون منازلهم بعد كل موسم حصاد. هذه القبيلة مقسومة إلى قبيلتين صغيرتين: الحماسة والبكارة.

أما الشوايا والذياب والكابرة وبني رابية والمحمّدات والتركمان، فهؤلاء قبائل يعيشون في ١٦٠ خيمةً، ويتكلمون التركية ويفهمون القليل القليل من العربية. قبيلتاهما الصغيرتان هما النهايات والسويدية التي أطلق عليها هذا الاسم بسبب سواد خرافها.

وبني عزّ واللّهايب والسمّاكة (لأنهم يعملون أحياناً في صيد السمك) والبركيات والعتبة والواهب والزغرية والسيّاد والعزيّة والأبي هيّا والدحيوات والعركية والشرازيل والشام. لمعظم هذه القبائل بين ٦٠ و٨٠ خيمة لكل قبيلة. أما الدياب وبنو عز والعرقية فتملك كل قبيلة قرابة ٦٠٠ خيمة. تتعايش هذه القبائل بشكلٍ سلمي وترتبط بعلاقات مع دمشق. وهناك ثمة ثلاث قبائل مستوطنة إلى الجنوب من الجولان هي بنو صخر والسرحان وبنو عيسى.

وتقع مضارب بني صخر في السهل الذي يحاذي من الغرب جبل البلقاء كما لهم مضارب أخرى في حوران. لا يدفع بنو صخر أي مال للباشا لشدة بأسهم وشجاعتهم. كما تدل سمات وجوههم وذقونهم ولحاهم الكثة على أصول لا تمت بصلة إلى البداوة؛ وبرغم ذلك فإنهم يفاخرون بانتسابهم إلى بني عبس، القبيلة النجدية المشهورة في التاريخ البدوي.

وبنو صخر في حرب مستمرة مع قبائل العنزة التي تقترب من مضاربهم في الصيف. لهجتهم العربية مميزة وقوتهم متمثلة في حوالي ٥٠٠ فارس. وينقسم بنو صخر إلى قبيلتين:

أولاً، الطواقة وفروعها الحكيش والبرسان وبنو زين وبنو زيدان؛ وثانياً، الكعابنة وقبيلتها الصغيرة بنو زهير.

أما قبائل **السرحان** فيضربون مضاربهم بجوار بني صخر ويرتبطون معهم في علاقات جيدة ويتحالفون معهم في وجه عنزة. وقبل قرنين من الزمان، كان السرحان أسياد كل حوران، لكن السرديّة طردتهم من البادية حتى الجوف حيث بقوا هناك فريسة الجوع طوال عشرين عاماً، فعادوا بعدها واحتموا ببني صخر. قواهم تتمثل في ٣٥٠ فارساً. وأصول هذه القبيلة تعود إلى أرض ما بين النهرين، وهي مجزأة إلى قبائل صغيرة هي قبائل ابن رملة وابن رفاعة وابن البالي والحبيني.

وتتساوى قوة بني عيسى مع قوة السرحان، وهم أصدقاء بني صخر وأعداء عنزة، ويتقاضون الضريبة من قوافل البصرة وبغداد.

عرب جبل البلقاء

على بعد خمسة أيام إلى الجنوب الغربي من دمشق، يتحوّل جبل حيش إلى جبل البلقاء. إلى غرب قرية فدحين، وهناك ينزل العرب ويمدون خيامهم حتى كرك الشباك في الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الميت، ونزولاً إلى السفح الغربي للجبل حتى السهول قرب البحيرة. يتألف عرب جبل البلقاء من قرابة ٤٠ قبيلة صغيرة تسكن في ٣ أو ٤ آلاف خيمة. والأصل المشترك لكل هذه القبائل يعود إلى قبيلة الهتيم. شيخهم العظيم يدفع ضريبةً سنويةً تقدر بألفي رأس ماعز للباشا في دمشق. أفراد هذه القبيلة كانوا يبيعون الماشية في القدس، ويمارسون الزراعة لكنهم بقوا يعيشون في الخيام. قبائلهم الأساسية هي بنو حسن وابن الغنام والبدايات والجهاوشة والعوائم والشيرات والزفاينة والرشايدة والواجة والبلّي والخناتلة والمشالحة.

وإلى الغرب من البلقاء، نجد في السهول قريباً من البحر الميت وبحيرة طبريّا قبائل متعددة تؤلف عرب الغور المقسّمين بحسب مضاربهم إلى أربع طبقات.

عرب غور طبريا ومنهم الصخور (غير بني صخر) والفوت والبشاتوة.

عرب غور بيسان ومنهم الغزاوية والبواتين وبنو فأد عرب غور القدس الساكنون بين البحر الميت والقدس. قبيلتهم الرئيسة هي قبيلة المسعودي الذي يدعى شيخها أمير القدس. وكانت هذه القبيلة تتقاضى الضريبة من الحجاج النصارى الذين يقصدون أريحا والبحر الميت.

عرب غور أريحا وقبائلهم هي الجرمية والتامرة. معظم عرب الأغوار يمارسون الزراعة ويربون الثيران ويبيعون المواشي في أسواق القدس ويدفعون الضريبة لمتسلّم تلك المنطقة.

بالعودة من الغرب نحو مناطق البحر الميت الشرقية، نجد قبيلة عربية ناصبة مضاربها قرب الخليل هي قبيلة الجهاليين التي تزرع الأراضي الصالحة للزراعة لكنها تلازم الخيام وتملك الجياد القليلة والبنادق الكثيرة[١].

أهل القبلي

تدعى القبائل التي سنتحدث عنها بأهل القبلي أي أهل الجنوب أي عكس ما يطلق عليه اسم أهل الشمال. فإلى الجنوب من البلقاء يعيش عرب الكرك وقد أخذوا اسمهم من قرية كرك الشباك التي يسكنون بجوارها. في هذه القرية قلعة فوق جبل مشرف على البحر الميت. سكان الكرك، ستمائة نصراني ومثالهم الترك، بدو رحل يتركون مضاربهم صيفاً ويهيمون في الصحارى مع عائلاتهم وقطعان ماشيتهم بحثاً عن الكلأ والماء. أتراك الكرك وهابيون يفرضون الجزية على النصارى. إن القبائل العربية في الكرك هي قبائل العامر، وهم قرابة ٣٠٠ فارس يعتاشون على (الصرّة) من قوافل الحجيج ويصاهرون أهل الكرك من الصوليط الأقوياء، وبني حمايدة المزارعين. وإلى الجنوب من الكرك، يتغير اسم الجبل ليصبح جبل شراء ويمتد حتى غزّة. وهذا الجبل مأهول إذ يسكنه عرب الحجاجة (٥٠٠ فارس تقريباً). ويزرع الفلاحون الأرض في سهول وادي الحصّة حيث يمر السيل الذي يصب في البحر الميت، ويدفعون لهؤلاء العرب نصف ما تنتجه حقولهم. بنو نعيم يتمركزون في منطقة معن، أي عند المحطة التاسعة على طريق الحجاج إلى مكة.

أما قبيلة الحويطات فمضاربها عند العقبة الشاميّة الواقعة في المحطة العاشرة على الطريق بين دمشق ومكة، على بعد مسير نصف يوم من العقبة المصرية على الرافد الشرقي للبحر الأحمر.

رجال هذه القبيلة ٣٠٠ فارس لكن عند الأزمات يتجند الآلاف من راكبي الجمال المسلّحين. ولهذه القبيلة علاقات وثيقة بالقاهرة ويذهب أفرادها إليها مرّة كل عام لشراء المؤن والثياب. وفي مواسم الجفاف، تقترب الحويطات من غزة أو الخليل. ومن بين ١٢ قبيلة، فإن القبائل الرئيسة هي العملان والجأسي والمسلك والرسائي.

وهناك قبيلة الشرارات وهذه تنصب مضاربها في السهل الرملي جنوب العقبة الشامية وإلى الشرق من طريق قوافل الحجاج. وهي قبيلة كثيرة العديد وهابية المذهب. جيادها قليلة لكن نوقها لا تعد كما بنادقها. تعيش مسالمة لا تعادي جيرانها بل تتاجر بالخيول والجمال مع أهل حوران وغزة لتشتري الحبوب والقمح. تدفع هذه القبيلة الضريبة لقبائل العنيزة ولقبائل عديدة من عرب

(١) نرجو الرجوع إلى ملاحظاتنا السابقة بشأن أسماء وألقاب العشائر الواردة في هذا الكتاب.

الشمال والقبلي. يتقاضى بنو صخر من كل مارّ صاحب خيمة ثلاثة قروش أما أبناء قبيلة الطيار فيأخذون دولاراً كاملاً. وبين قبائلها الصغيرة العديدة قبائل الخيّال والحاوي وبنو حويني.

وإلى الجنوب من قبيلة الشرارات وإلى الشرق من طريق الحج، وحتى نواحي مكّة، فهناك قبائل عنزة موجودة لا ينازعها أحد.

في وسط البادية الشرقية، على بعد ٢٥ يوماً من دمشق باتجاه الدرعية، المنزل الرئيسي للوهابيين، تبدأ سلسلة جبال شمّار حيث تنزل قبيلة بني شمار القوية المعادية حتى الموت لقبائل عنزة. وبعض قبائلها التابعة لها تسكن العراق حيث تدعى الجربا وتكون مع قبيلة الضفير القبائل الأقوى في نواحي بغداد وتغزو أحياناً مناطق حوران.

قبائل شمر هي التميّات والمنيّات وابن غازي وباير والفسياني.

أما القبائل التي تسكن ضفاف الفرات بين البيري وأناح، أي مناطق الزور هم عرب الزور أي قبائل العقيدات وأبو شعبان وبنو سيّد وقبيلة الولد الكبيرة التي تقسم إلى قسمين عرب الفحل وعرب الدندل، وقبائل السبخا والبكارة والجبور والدليب. معظم هؤلاء العرب مزارعون يسكنون الخيام ويدفعون الضرائب لشيوخ قبائل عنيزة ويمدون حلب بالحليب والزبدة والجبنة.

مخططات[١]

المخططات التالية خاصة فقط بقبائل عنيزة، فهي القبائل البدوية الحقيقية الوحيدة في سوريا إذ أن القبائل المجاورة لها فقدت بعض ميزاتها البدوية، كأن تمسي خاضعة للقوانين المختلفة عن قوانينها الخاصة التي شاعت في البادية منذ بداية الحقبة المحمّدية.

طرق الاستقرار

عنزة هم بدو رُحّلٌ إذ يصرفون كل العام في ترحال مستمرّ تقريباً. مضاربهم الصيفية قرب الحدود السورية والشتوية في قلب الصحراء، أو بجانب نهر الفرات. وفي الصيف ينصبون خيامهم قرب آبار المياه والواحات لكنهم لا يبقون في المكان نفسه أكثر من ٣ أيام. فما إن تستنفد قطعان ماشيتهم العشب بقرب الماء، تنتقل القبيلة كلها للبحث عن كلأ. ويختلف عدد الخيام بين مخيم وآخر. ويتأرجح بين ١٠ و٨٠٠ خيمة. حين تكون الخيام قليلة تنصب بشكل دائرة ويطلق عليها اسم الدوّار. أما عند ازدياد أعداد الخيام المنصوبة، يتم نصبها وفق خطوط مستقيمة، الخيمة خلف الأخرى، فتشكل ٣ أو ٤ خطوط، الخط خلف الآخر. هذه الطريقة في

(١) يقصد المؤلف بلفظة مخططات، أنها منهاج البحث.

التخييم تدعى (النزل). وفي الشتاء، عندما لا يكون ثمة خطر من جفاف الينابيع وانقراض الكلأ، يختلف منهاج التخييم.

وتنتشر الخيام على طول السهل منقسمة إلى مجموعات مؤلفة من ٣ أو ٤ خيام في المجموعة، وتبتعد الواحدة عن الأخرى مسافة مسير نصف ساعة.. إنها طريقة (الفُريق) في التخييم. في الدوار كما في النزل، وخيمة الشيخ أو القائد تكون دائماً إلى الجانب الغربي، لأن عرب سوريا ينتظرون العدو كما الضيف من الغرب. ومسؤولية الشيخ الأولى هي صد العدو والترحيب بالصديق. كما أن الضيف يطرق باب أول خيمة يصادفها ولهذا يجب أن تكون هذه خيمة كبير القبيلة الكريم.. ولذلك عار على الثري إذا نصب خيمته في الجانب الشرقي(١).

كل رب عائلة يغرز رمحهُ قرب أوتاد خيمته أو حيث مربط جواده أو فرسه. يبقى قطيع الماشية ليلاً نهاراً في عهدة الراعي الذي يقودها مساءً إلى الحظيرة.

حين كنت في طريق العودة من تدمر إلى دمشق، قابلت في اليوم نفسه قافلتين كبيرتين تتحركان ببطء فوق الأرض الرملية بحثاً عن الطعام والشراب. في ما يلي وصف لمنهاج مسيرهما: في المقدمة، وعلى بعد ٤ أميال من القافلة، ثمة ٥ أو ٦ فرسان في مجموعة استطلاع تدعى (الصلوف). والقسم الأكبر من جذع القافلة بطول ثلاثة أميال. أول القافلة فرسان مسلحون ثم تأتي النوق وبعدها الجمال المحملة بالهوادج والخيام والمتاع والمؤن، وأخيراً تأتي النسوة والأولاد في هوادج خاصة تقيهم الحرّ والشمس. وينتقل الخيالة على طول القافلة لحراستها من أي اعتداء. أما القافلة الأخرى فكانت تعد أكثر من ثلاثة آلاف جمل. ومن كل العرب لم أرَ ماشياً على الأقدام سوى الرعاة الذين يسوقون القطعان على مسافة ميل خلف القافلة الرئيسية.

في المسيرة يسمى الجمل الذي يخص إحدى الخيام المظهور أو الظعن وتجمع على مظاهير وظعون.

وسمعت أوامر نصب الخيام «ابنوا البيوت» وهدوا الخيام «هدّوا البيوت» أو «اطرحوا

---

(١) الأقوام العظيمة عند العرب تدعى قبائل مثل قبائل ولد علي. أما فروع القبائل فتدعى (فندة) كفندة المساليخ. أما القبائل الأصغر المتشكلة من الغرباء فتدعى عشائر جمع عشيرة مثل عشيرة النعيم. فلو سميّ العنيزة بالعشيرة أصيبت بالعار. الطائفة هي مجموع العائلات التي تعود إلى جدّ واحد. كل قبائل العرب تلقب بلقب «بني» لأنها تتنزّل من جد الجد.. فالمساليخ والحسنة وولد علي متنزلة من بني واهب برغم عدم اعلانها ذلك. ـ نرجو ملاحظة أن هذا التحليل والتفسير خطأ من المؤلف.

البيوت». كما أن تعبير «هدّوا ومدّوا» يعني أنهم طرحوا بيوتهم ومشوا. الغزو هو المجموعة المسلحة من العرب فوق جياد أو جمال. حلّ الغزو أي أناخ الغزو أي استقروا، وخلافها عبارة طوّح الغزو[١]. لكن أهل سوريا المقطوعين عن البدو يجهلون معنى هذه التعابير الاصطلاحية.

(١) هذا التعبير خطأ، إذ لم نسمع أن لفظة الغزو تعني المجموعة المسلحة من العرب، ولعله يقصد (الغزاة) وليس الغزو ـ المحقق.

٢

الخيمة وأجزاؤها المختلفة

ما نقول عنه إنه خيمة الآن كان يدعى بيتاً لا خيمةً أبداً وهو تعبير سوري دارج. فظهر البيت مؤلف من قطع من شعر الماعز وجلدها عرض الواحدة منها حوالى ثلاثة أرباع الياردة تجمع مع بعضها لتغطي مساحة طويلة، لكي تكون الخيمة أو البيت فسيحاً. وأعرف من التجربة أن جلد الماعز هذا يمنع تسرب المطر إلى داخل البيت، مهما كان المطر غزيراً. وترتكز الخيمة على العواميد وتكون عادة تسع، ثلاث في الوسط وثلاث إلى اليمين ومثلها إلى اليسار. العامود الأقرب للداخل إلى البيت يسمى المقدوم، والذي في الوسط هو الواسط والأخير هو الدافع[1]. واحد من العواميد الثلاثة إلى اليسار هو اليد والأوسط هو الكاسر. وفي الخيمة التي يجتمع فيها الرجال. وكلما ازداد شد العواميد إلى السقف كلما قويت. كما يمكن صنع جدران الخيمة من فروات الرجال الصوفية أي العباءات القديمة. وحين خياطة جوانب الجلد إلى العواميد، تسمى القطع المخيطة بكوم البيت. الطرف المنخفض منها مربوط بوتد صغير بواسطة الحبل ويدعى الخرب، لكل عامود خرب إلا الواسط. وهذه الحبال هي التي تحمي الخيمة من أن تتهاوى وتسقط.

إن قطع جلد الماعز التي تشكل ظهر البيت لا تتمزق أو تتخلخل عند انكسار العامود الواسط، لذا فمن الضروري خياطة قطعة من القماش نفسه فوق خط الوسط، وتدعى مترك أو سفيفة. جوانبها مخيطة لحبل خرب المقدوم والدفعة. أما الجزء الخلفي في الخيمة فيكون مقفلاً بالرواق الذي هو قطعة من جلد الماعز تتدلى من ارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام موصولة بعباءة أي أسفل الشيء وتتدلى حتى الأرض. مهمة الرواق والسفالة حماية البيت وأهله من الريح. ويكون الرواق مربوطاً بغطاء الخيمة عند العواميد الثلاثة، وفي الشتاء يوصل بعواميد الجوانب أيضاً.

(١) الدفعة: حيطان بيت الشعر، الأيمن والأيسر. وهي أيضاً الزاوية أو الركن في الغرفة ـ المحقق.

على طول الجزء الخلفي من الخيمة مريسٌ بحلقاتٍ حديدية معلقة بالرواق أو مفصولة عنه عندما يريد النازلون في الخيمة استقبال بعض الهواء من مؤخرتها. أما الحبال المربوطة في الخرب الثمانية فتدعى أطناب البيت، والقطع الخشبية الصغيرة التي تغرز في الرمل ويشد إليها الطنب هي الأوتاد.

تقسم الخيمة إلى مجلسين: مجلس الرجال أو (مقعد ربيعة)[١]، ومجلس النساء أو المحرّم. ويكون مجلس الرجال إلى يسار الداخل للخيمة ومجلس النساء إلى يمينه. لكني رأيت في جبل حوران مجلس الرجال إلى يمين الداخل ومحرم النساء إلى اليسار. ويحجب على النساء عن الرجال سجّادة دمشقية تسمى القاطع أو الساحة، أو حاجب صوفي مورّد يدعى المرقوم. وتغطي الأرض في مجلس الرجال سجادة فاخرة من بلاد فارس أو من بغداد.

وفي الداخل توجد أكياس القمح حيث تكدس فوق بعضها على شكل تلّة هرمية، تدعى (الرجود). وإلى جوارها الهوادج الصغيرة وأسراج الجمال إذ توضع قرب الرجود أو قرب الرواق. لكن من العيب وضعها إلى جانب الكاسرة أو الجزء الجانبي من الخيمة.

أما قسم الحريم، فهو مستودع لكل عدّة الطهي والزبدة وأوعية الماء. توضع قرب العواميد وتسمى الحاضرة حيث يجلس العبيد وتنام كلاب القبيلة خلال النهار. وفي الزاوية التي تشكل نهاية الخيمة والتي لا تغطي مساحة واسطه حيث تتدلى حيطانها قليلاً بعيداً وتتلاعب بها الريح. فيسمونها (الرفّة). ولا يجلس تحتها الرجل المحترم، بل عند إهانة أحدهم أو عند عقابه، يصيح الشيخ «مقعدكم الرفّة». أما ما يشبه هذه الرفّة في الجانب الأمامي من الخيمة فيستعمل لتجفيف اليدين قبل الطعام وبعده.

إن حان وقت تقويض الخيام (رمي البيت)، فإن الرواق هو أول ما يخلع من مكانه ثم القاطع ثم اليد ثم المقدوم، فتنهار الخيمة خلف الرجود. وأحياناً، تكون الرجود أول ما يخلع. ثم تجمع أطراف الخيمة وتربط بحبلين يدعيا (شيعان)، ثم تعلق إلى جانب واحدٍ من ظهر الجمل.

هذه هي خيام أهل الشمال التي فيها ثلاثة أعمدة في وسطها وخاصة خيمة الشيخ بخلاف عامودين في خيام عنزة وهما عمود الواسط، وأربعة أو خمسة أعمدة في خيمة الشيخ في القبيلة. وفي حال تعدد الواسط، تصف هذه الأعمدة على طول الخيمة، وتتناسب مع الدفعات والمقدمات.

أحياناً في الصيف، لا تستخدم الأعمدة الأمامية الثلاث، فتعتمد الخيمة على الأعمدة

---

(١) يقصد بمقعد الربع.. أي مجلس الجماعة.. المحقق.

الوسطى والخلفية. ويصل ارتفاع المقدوم والوسط إلى ٧ أقدام، والأعمدة الأخرى إلى ٥ أقدام. والخيمة التي بوسطين تصل إلى ارتفاع ٣٠ قدماً وبعمق ١٠ أقدام. وخيام قبيلة عنزة مبنية بجلد الماعز الأسود دوماً، لكنني رأيت بين عرب اللجا في حوران من بنى خيمته بجلد ماعز مخطط بالأبيض والأسود.

والثري من رجال عنزة لا ينصب غير خيمة واحدة، إلا في حالة واحدة، وذلك حين تكون زوجته التي لا ينوي طلاقها غير منسجمة مع زوجته الثانية، فيقيم لها خيمة صغيرة بجانب خيمته. لكنه قد يفعل ذلك أيضاً إن أراد أن يسكن معه ابنه المتزوج، أو أخوه.

أثاث الخيمة ومعداتها المختلفة

يوجد في داخل الخيمة هداج الجمال والشداد (أي سروج هذه الجمال التي يركبها الذكور)[١]. أما سروج الجمال التي تركبها الإناث فمختلفة، وهناك الحصار[٢] التي تتألف من سجاد وعباءات تخدم كمعقد فوق ظهر الجمل عند أهل الشمال. بينما نساء عنزة يجلسن في (المقصر) المقفل المغطى بجلد الجمل الأسمر أو (الغَرف). نساء الشيخ يركبن القتب المشابه للمقصر لكن المغطى بجلد الجمل الأحمر، والذي يعلق بجوانبه قطع قماش ملونة.

ويتحكم الراكب بالجمل عن طريق حبل الرسن، وهذا المصطلح شائع في سوريا. والنساء يزينّ الرسن بقطع الأقمشة الملونة والريش ويطلقن عليها اسم الراس. أما العصا الذي يقاد به الجمل فيدعى العصا أو المطرق إن كان مستقيماً، و(العجان) أو المشعب إن كان ملتوياً في رأسه. أما الأجراس الصغيرة التي تعلق بعنق الجمل فتسمى الطبل، وأكياس الصوف التي يجمع فيها الصوف أو الوبر إذا تساقط من جسم الحيوان فتدعى (اللبيد).

يحفظ العرب الماء لخيولهم في أكياس من جلد الماعز، وتكون على شكل هذا الرسم:



يسمى هذا الكيس راوية، واثنان منه يشكلان حملاً ثقيلاً على ظهر الجمل.

أما السقاء، فهي أكياس مصنوعة من جلد الماعز يحفظ فيها اللبن الحليب. والسقاء التي

---

(١) يقصد المؤلف بلفظه الهداج، أي الهوادج، وهي ليست السروج أما الشداد، فهي الحبال التي تربط السرج أو الهوادج إلى جسم الحيوان. فالاسم الغالب على سروج النوق والجمال هو الكور ـ المحقق.

(٢) الحصار أي الحصران، جمع حصيرة وهي السجادة التي تصنع من الحصير ـ المحقق.

تقدم للغرباء من المارين هي الشرعة. وهذا الاسم يطلق أيضاً على الأكياس التي يشرب منها المحاربون حليب النوق.

وتصنع الزبدة في المخضات وتحفظ في (المقراش).

وأكياس القمح الصوفية تسمّى العُدل وتجمع على عدول. أما المصنوعة من جلد الماعز فهي (عدل حرّس).

يرد الجمال الماء في الحوض الذي يصنع أيضاً من جلد الماعز ويوضع فوق حجرين ليتقعّر جيداً. حينها، يطلق عليه اسم فرش. والدلو هو الوعاء الذي يحمل الماء من أسفل البئر وفي أعلى الدلو توجد (مرقا الدلو) وهما عصاوان مصلتيان يربط بهما حبل الرشاء، وذلك بعد أن يربط (بالمحاس) وهو الحبل المجدول من جلد الجمل.

القدر هي وعاء الطهي النحاسي الكبير، والغلية هي الوعاء الصغير. الرحى هو حجر طحن القمح، ويوضع فوق قماشٍ يلتقط ما ينزل من طحين، وتسمى (تفال الرحاي). والجرار الخشبية التي تحلب فيها النوق هي القدح، والكوب الخشبي هو الطاس، ومطحنة البن الخشبية هي المهباج، وابريق القهوة العربية هو الدلّة.

أما كيس طعام الخيول يسمى العليق أو المخلاية باللغة السورية. وحديد الفرس هي السلسلة التي تربط بها قائمتا الفرس الأماميتان. ومربط الفرس هي السلسلة التي توثق بها الفرس ليلاً إلى وتدٍ قرب الخيمة.

ولهذا يصعب جداً سرقة الفرس لكن ثمة لصوص تمكنوا فعلاً من سرقة بعض الأفراس بعد فك وثاقها الحديدي.

الثياب البدوية

في الصيف، يكتفي الرجال بثوب فضفاض من القطن ويرتدي فوقه الأثرياء القمباز الذي يرتديه الأتراك، غير أنهم بصورة عامة يرتدون العباءة الصوفية فوق قمصانهم. وهناك أنواع عديدة من العباءات فمنها المصنوع من الصوف الأبيض الناعم في بغداد وتسمى (المسومي). أما العبا فتكون المصنوعة من الصوف السميك وتلبس فوق (المسومي). أما العباءة المصنوعة في حماه بأكمام قصيرة تدعى بوش، أما في شمال سوريا فإن أية عباءة بيضاء أو سوداء أو مخططة فتدعى المشلح. ولم أر عباء سوداء في قبيلة عنزة، لكن مشايخ أهل الشمال يرتدون العبا السوداء المطرزة بالذهب تسوى واحدتها عشر بلونات. وأفراد عنزة لا يرتدون سروالاً داخلياً ولا ينتعلون شيئاً بل يمشون أو يركبون الركب حفاة ولكنهم يحبون اقتناء الأحذية الصفراء أو الحمراء إن حصلوا على واحدة. وكل البدو يعتمرون الكوفية بعد طيها لتصبح مثلثاً بثلاث

رؤوس واحد إلى الخلف واثنين من الجانبين يصلان إلى الكتفين. بهذين الرأسين يغطيان الوجه لحمايته من الشمس أو الريح أو المطر أو لإخفاء معالمهم حين يريدون ذلك. تكون الكوفية صفراء أو صفراء وخضراء. وفوق الكوفية، يثبت أهل عنزة حبلاً حول الرأس مجدولاً من شعر الجمل يدعى عقال. وبعضهم يربط قماشاً حول الرأس يسمى الشطفة. أما المشايخ الأثرياء فيعتمرون الشالات المخططة بالأبيض والأحمر والمصنوعة في دمشق أو بغداد، كما قد يستعيضون عن هذه الشالات بطاقية وليس الطربوش التركي وتحتهما طفية مصنوعة من وبر الجمل وتسمى العرقية، أو (المعرقة التي تصنع من القطن الجيّد، وهذه التسمية في سوريا).

يتميز رجال القبيلة عن غيرهم بشعرهم الطويل إذ لا يقصون شعرهم الأسود أبداً بل يهملونه منذ الولادة حتى يطول فيصبح جاهزاً لأن يجدل. والجدولة التي تهبط من الرأس حتى الصدر تدعى القرن وتجمع قرون.

وحول الوسط وفوقه ثيابهم يتحزم قسم من الرجال بحزام من الجلد بينما يتحزّم النساء والرجال منذ الرضاعة بأحزمة يشدونها على بطونهم العارية، وهي مكونة من سيور جلدية مربوطة بحبال. وعلمت أن السيور التي تربطها النساء لا تكون مربوطة الواحدة بالأخرى.

يطلق العنزيون على هذه الحبال اسم «حاكو» بينما يسميها أهل الشمال «بريم». وفي الصيف، يلهو الذكور الصغار حتى سن الثامنة عراة تماماً، لكنني لم أر فتاة في مثل هذا العمر أو أقل دون ما يستر كلّ جسدها. وقيل لي إن في داخل البادية، لا ترتدي الطفلة شيئاً كما أخوها.

وفي الشتاء، يرتدي البدو معاطف مصنوعة من شعر الجمال، حتى أن بعضهم يرتدي هذه المعاطف صيفاً إذ يسود اعتقاد أن دفء الإنسان يمنع عنه أذى الشمس الحارقة. ويمضي البدو أوقات الشتاء حفاة في خيام مفتوحة حين يكون كل من حولهم يرتجف برداً. وفي منتصف الصيف، يتغطى البدوي بالمعطف وينام على التراب تحت الشمس الحادة.

ثوب النساء قطني داكن اللون، ورؤوسهن مغطاة بغطاء يسمى (بالمقرونة) أو (الشوبر) الأحمر أو الأسود. وكل نساء رولا يعتمرن الحجاب الحريري الأسود الكبير الذي يدعى (شالة كاس)[1] والذي يصنع في دمشق.

ونرى الخواتم الفضية في أصابع النساء، كما في آذانهن وأنوفهن. وأقراط الأذنين تسمى

(١) لعل المؤلف يقصد (شيلة راس)، كما يسمى غطاء رأس المرأة في الخليج.

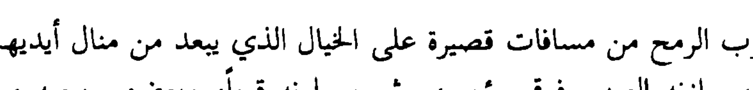
تركية (جمعها تراكي)، وأقراط الأنف الصغيرة تسمى شدرة، والكبيرة خزام، تَشِمُ النسوة شفاههن باللون الأزرق ويسمى هذا النوع من الوشم البرطم. ونساء سرحان تشمن الخدين والصدور والسواعد، أما نساء العمود فيشمن الكاحل، وكذلك يفعل الرجال بكفوفهم وسواعدهم.

وتغطي البدويات نصف الوجه بحجاب داكن اللون يسمى (نقيّة) يخفي قليلاً الفم والذقن. أما البرقع المصري فشائع بين نساء عرب قبلي، تتزين نساء عنزة بأساور وعقود من الفضة والزجاج الملوّن.

ويمكن تمييز العنزيين دوماً عن عرب الشمال بقاماتهم القصيرة نسبياً، وبأجسامهم المتناسقة وأنوفهم المعقوفة وعيونهم السوداء اللامعة تحت الحواجب الكثة ولحاهم الصغيرة لكنها كثيفة. ونساء عنزة أطول قليلاً من رجالها، جميلات الوجوه طيبات الخواطر. وبسبب كوني طبيباً فإنني تمكنت مرة من الكشف عن ساعدي إحدى حريم الشيخ فوجدت نعومة وجمال بشرة كما في نسائنا الأوروبيات.

أسلحة البدو

السلاح الشائع بين البدو هو الرمح. وللعنزيين نوعان من الرماح الخشبية المصنوعة في غزة بفلسطين وهي رماح سان، والمصنوعة من أخشاب تر ومن غزة، ونوع آخر جديد وهم من العراق في بغداد وهي رماح القنا المصنوعة من الخيزران الذي به عقدٌ. يفضل البدو الرماح الخفيفة فيتراوح ثمنها بين ٦ و٥٠ قرشاً ويسمى الرأس الحديدي أو الفولاذي في الرمح القنتاد. وقد رأيت رماحاً مزينة بالذهب والفضة. أما الرأس الذي يدس في التراب فهو الحربة. وهذه الرماح غير مزوقة بشيء، ولكن أحياناً، يوضع في أسفل الرمح كرتان من الريش الأسود تسمّى دوبة. الأولى متصلة بريش قليل أبيض تسمى غالابة. وبين الكرتين قطع من القماش الأحمر، نسمّى تومان.



يرمي العرب الرمح من مسافات قصيرة على الخيال الذي يبعد من منال أيديهم وسيوفهم. ولرمي الرمح، يوازنه العرب فوق رؤوسهم ثم يرسلونه قوياً، وبعضهم يرميه من علو سرج الفرس. وحين يحسّ البدوي بخطر عدوّه خلفه، يرمي الرمح إلى الوراء ليعيق تقدّمه فيقتله أو يقتل فرسه. وحين يجد العربي صعوبة في خلع الرمح من الخرج يستعين بسيفه الذي يحمله ليلاً ونهاراً. يفضل البدو النصال الفارسيّة فيشترونها من الباعة المتجولين مقابل ٨٠ أو مئة قرش،

لكن غالباً ما يتعرضون للخداع فيشترون نصالاً لا تساوي أكثر من ٢٠ قرشاً بسبب عدم خبرتهم في معرفة الجيد منها. وبالإضافة إلى الرمح والسيف، يحتفظ البدوي في حزامه بسكين. والمحاربون المشاة يستخدمون الرماح القصيرة وتسمى القطعة، يرمون بها إلى أهداف بعيدة.

إن كان الفارس دون رمح، يحمل أنواعاً أخرى من السلاح مثل القنوعة سلاح ذو مقبض خشبي طويل في نهايته كرة معدنية والدبوس وهذا كله مصنوع من الحديد والقلنج سلاح ذو مقبض خشبي طويل في نهايته مطرقة حديدية. أما المشاة فيحملون الدرقة وهو درع بقطر ١٨ ومصنوع من جلد فحل بقر الوحش، يكسى قضبان من الحديد(١).

ما يزال العرب يستخدمون الدرع. فولد علي يملكون قرابة خمسة وعشرين والرولا مئتين وأولاد فاضل والمصالح لديهم ما بين ٣٠ ـ ٤٠ درعاً. ثمة نوعان من الدرع، واحد يغطي كل الجسد ويسمى السرغ وآخر يطلق عليه اسم القمباز يحمي نصف الجسد حتى وسطه، بينما الساعدان محميان بقطعتين من الفولاذ، القلجق. ويستعد العربي للحرب باعتمار الطاس الحديدية. ويتراوح سعر سترة الرجال ما بين مئة إلى مئة وخمسين بيتاً.

يملك ابن سعود، القائد الوهابي الحالي، أثواباً عديدة من الدروع برغم ارتفاع ثمنها الذي يتراوح بين مئتين وخمسمئة قرش. الدروع الجيدة تصدّ كرة الحديد. والملبس هو المعطف الخفيف الذي يخفي به الفارس دروعه، ويطلق عليه اسم الدّافن. وقيل لي إن العرب يغطون جيادهم بالدروع أيضاً لكني لم أر ذلك أبداً.

يعرف العنزيون استخدام الأسلحة النارية، لكني لم أر بأيديهم سوى البنادق ذات الفتيل التي يستعملونها بشكل رائع إذ نادراً ما يخطئون هدفهم. ولا يحب العنزيون المسدسات بخلاف عرب الشمال.

الرعاة الذين يرعون القطعان بعيداً من الخيام يحملون الرماح القصيرة والمقالع التي ترمي بالحجارة بعيداً. ويملك العنزيون نوعاً من الدروع لجيادهم يدعى اللبس، يستخدمونه أيام الحرب. هذا اللبس مصنوع في حلب ومؤلف من سبع قطع من الورق المقوّى ومغطى بالقماش الأحمر. بعض الأغنياء يطلب تطريز اللبس هو الذي يخفف من وطأة ضربات الرماح الخفيفة أصلاً.

---

(١) بقر الوحش، هو المها ـ يتغذى البقر الوحشي من العشب في منصب الجوف. البقرة الوحشية مزيج من البقرة والغزال. عنقها عنق بقرة وقوائمها أسمن قليلاً من قوائم الغزال وقرونها قصيرة ـ المحقق.

طعام العرب

الأطباق البدوية الرئيسة هي:

الفتيتة ـ وهي عبارة عن عجين الدقيق والماء المخبوز في رماد روث الجمال ليمزج بعدها بالقليل من الزبدة ويقدم في إناء من الخشب أو الجلد. إن مزجت الفتيتة باللبن تدعى خافوري.

عيش ـ دقيق ولبن ناقة الرائب، تعجن وتغلى. يحمض لبن الناقة بعد وضعه فوراً في السقاء وهو الدلو المصنوع من جلد الماعز.

بحتّة ـ أرزّ ودقيق مغليان في لبن الناقة المحلّى.

حنينة ـ خبز وزبد وبلح معاً في عجينة.

خبز ـ ويدعوه البدو أيضاً باسم (جيسر). وهو نوعان: أول دائري يخبز على الصاج كما يفعله الفلاحون في سوريا، وثانٍ يخبز على الحجارة الساخنة ويدعى الخبز عالي الرضاف.

برغل ـ المصنوع من القمح المطبوخ أولاً ثم المجفف في الشمس. يحفظ طوال العام ويغلى بالماء والزيت أو الزبدة.

تصنع الزبدة بالطريقة التالية: يوضع حليب الماعز أو حليب الناقة في قدر فوق نار هادئة مع قليل من اللبن الزبادي. ينفصل الحليب بعد ذلك فيوضع في السقاء ويربط في إحدى زوايا الخيمة لينبذ خلال ساعتين أو أكثر. تتخثر الزبدة وتخرج الماء وبعد يومين، يغلى البرغل في الزبدة. يترسب البرغل في قعر القدر ويبقى الزبد في الأعلى لينقل ثانيةً إلى كيس من الجلد فيجفف في الشمس. وعند أكله يُسمّى (عوكت). أما البرغل الذي يجفف فيأكله الأطفال فيدعى خلاصة. ثمة قبائل في نجد لا تأكل اللحم بل يقتصر غذاؤها على اللبن والتمر. أما الزبدة فيجففونها لتصبح صلبةً ويتوزعونها فيما بينهم ليعودوا إلى تناولها مع الزبدة اللينة.

لا يصنع العنزيون الجبنة بل يحولون كل اللبن الحليب إلى زبدة، بخلاف أهل الشمال الذين يمدون سكان مناطق شرق سوريا بالجبنة.

الكماية ـ أو الكما (الفقع)، وهو طبق مفضل عند العرب. فالكما نوع من النبات الصحراوي لا جذور له ولا بذور. وهناك ثمة أنواع عديدة منه: الأحمر أو الخلاصي والأسود أو الجبّة، والأبيض الزبيدي. ويجد الفلاحون الكما في نهاية شهر آذار على عمق أربعة إنشات تحت سطح الأرض، وتُعرف بواسطة نبتةٍ صغيرة جداً تظهر فوق الرمل، حيث يقتلعها الرجال والصبيان بواسطة قضبان صغيرة. ثم تجمع كل عائلة حمولة أربعة أو خمسة جمال فتقصر طعامها على الكماية دون البرغل أو العيش.

تغلى الكما في الماء أو الحليب حتى تصبح عجيناً يضاف إليه الزبد السائل. يقال إن الكما تسبب الإمساك. وإذا كان الجنى كبيراً يأخذ البدو الفائض منه ليجفف ويستخدم فيما بعد كما لو كان طازجاً. والسوريون يستهلكون كمياتٍ كبيرة من الكما ولهذا يرتفع سعرها في سوريا. حيث تنقل إلى هناك من مناطق قرب تل الزيقل والمرج، وإلى حلب من جبل حصّ والسهول التي بجواره. أما الجمال فلا تأكل الكما أبداً، والتي نجدها بكثافة في بادية حمّاد بين دمشق والبصرة وبغداد.

يأكل العنزيون الغزلان متى يصيدونها، كما يأكلون الجربوع أي فأرة الصحراء ويفضلونها على ما عداها لمذاقها الشهي. وهذا الحيوان يكثر داخل الصحراء.

العيش هو الطبق اليومي في قبائل العنيزة؛ حتى المشايخ الأثرياء يعتبرون عاراً أن يأمروا الحريم بطهي طبق آخر. لا يهتم العرب بالكماليات والترف إلا في الاحتفالات أو عند وصول غريب وإذا جاءهم ضيف عادي، يخبز الخبز ويقدم مع العيش. وإن كان الضيف مرموق الجانب، تقدم القهوة أولاً ثم (البحتّة) أو الفتيتة أو الخبز مع الزبد السائل. أما حين يكون الضيف شيخاً عالي المقام تذبح الذبائح وتغلى مع البرغل في الحليب ثم يقدّم في أطباق خشبية يوضع اللّحم على أطرافها. وفي وسط البرغل يوضع الإناء الذي يحتوي على مرقة الحيوان المدهنة حتى تدس فيها كل قطعة لحم قبل ابتلاعها. وعند ذبح الجمل ـ وهذا نادر الحصول ـ يقطع إلى قطع كبيرة، بعضها يُغلى ليمزج دهنها مع البرغل، وبعضها الآخر يشكل شواءً يوضع بعدها ثانيةً على البرغل. عندئذٍ، تجتمع القبيلة كلها لتشارك في الأكل وملذاته. يفضل البدو تناول لحم الجمل في الشتاء أكثر من الصيف. كما أنهم يفضلون الناقة على الجمل. ودهن الجمل يحفظ في جلد الماعز ويستخدم كزبدة للطهي.

للعرب طريقة فريدة في الأكل: فهم يدسون كل الكف في الطبق الواسع الذي أمامهم، يشكلون كرةً من البرغل بحجم بيضة الدجاجة ويرسلونها في فمهم ثم يبتلعونها. ويغسلون أيديهم قبل الطعام دائماً لكن نادراً ما يغسلونها بعد تناول الطعام، بل يستمتعون بلعق ما علق بأناملهم من الدهن أو يحقّون كفوفهم على مقابض سيوفهم الجلدية أو يجففونها بالروفة المتدلية أمام مدخل خيمتهم كما أشرنا سابقاً.

ساعة الفطور في العاشرة صباحاً والعشاء عند الغروب. وهم يتناولون طعامهم بسرعة هائلة برغم كون البرغل أو الزبدة ساخنةً تحرق الأصابع، وأتذكر أني في بداية معاشرتي للعرب قلما قمت عن الطعام قبل الشبع إذ يحرصون على مراقبة الضيف وحضّه على تناول المزيد من

الطعام، ويلاحظ أمر آخر وهو عادة التجشؤ العامة بين العرب عند الانتهاء من الطعام.

تتناول النساء الطعام في المحرّم أي ما يفضل من مائدة الرجال. أما حين يجتمع رجال القبيلة في خيمة أحدهم أقام مائدة طعام على شرف ضيف من الضيوف، فتتسلل النساء إلى محرّمه متوسلة زوجته إعطاءهن القليل من لحم الحيوان المذبوح.

الحرف والصناعة

قليلة هي الحرف المعروفة في قبيلة عنزة: فهناك حدادان لحذوات الجياد وصانعا أسرجة جلدية لا غير. يطلق على هؤلاء الحرفيين اسم الصنّاع وهم من غير عنزة أصلاً لأن العنزيين الأحرار لا يعملون في هذه الأعمال المخزية. ومعظم الصناع من الجوف الذي يسكنه العمال الذين ينتشرون في الربيع بين البدو يعودون في الشتاء إلى عائلاتهم. لا يزوج عنزي ابنته لأحد الصناع أبداً أو لأحد المتنزلين من عائلات هؤلاء الصناع، فيتزوج هؤلاء فيما بينهم أو من بنات عبيد عنيزة.

ويمارس العنزيون حرفتين لا ثالثة لهما: وهما الدباغة والخياطة، فالدباغة للرجال والخياطة للنساء.

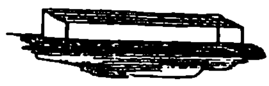
ولكي يصبغوا جلد الجمل باللون الأصفر، يغطونه بالملح يومين أو ثلاثة أيام ثم ينقعونه في الماء والشعير حيث يبقى منقوعاً أسبوعاً كاملاً، وبعدها يغسلون الجلد في الماء وينظفونه من الشعر بسهولة. ثم يخلطون قشر الرمان الجاف الذي يشترونه من فلاحي سوريا أو من المناذرة، ويضعون الجلد في الخليط ثلاثة أيام.. وهكذا يصطبغ الجلد باللون الأصفر. وليصبح هذا الجلد الأصفر ناعم الملمس يدهنونه بالدهن. وإن لم يحصلوا على الرمان استعاضوا عنه بالعرق وهو نبتة صحراوية تعطي الجلد لوناً أحمر.

بهذا الجلد المصبوغ تصنع الراوية أي كيس الجلد الذي يُحفظ فيه ماء الشرب. في البداية، يكون طعم الماء حامضاً لكن العرب يتقبلونه ولا يرفضونه أبداً.

وكل القبائل البدوية تستخدم جلد الماعز المكسو بالشعر لصناعة ظهور الخيام وأغطية الجمال وأكياس المؤن. ظهور الخيام تخاط غالباً في حوران وجبال حيش والبلقاء حيث الماعز كثيرٌ جداً.

والنساء العربيات يستخدمن النول البسيط المؤلف من قضيبين قصيرين مثبّتين في الأرض تفصل بينهما مسافة هي نفسها عرض الشوقة أو قطعة القماش المراد نسجها. وهناك قضيبٌ ثالث يثبت فوقهما. وعلى مبعدة أربعة ياردات منهما توضع ثلاثة قضبان مماثلة، وفوق الجميع

يثبت الصادوح. ليبقى الصادوح الأعلى والأسفل على مسافة واحدة، تنصب المنصبة بينهما وهي عصاة مسطحة.



وهناك قطعة من الخشب تقوم مقام المكوك، وقرن غزال يعيد الخيط إلى هذا المكوك. مكان النول يكون أمام المحرّم، وتعمل عليه الوالدة والبنات. وإلى النول، يستخدم الغنزيون مغزل الصوف. وقد رأيت رجالاً عديدين في تدمر يغزلون الصوف وكذلك علمت أن كل رعاة عرب قبلي يغزلون أصوافاً من ماشيتهم.

من شعر الجمال، تصنع النساء الحقائب والأكياس التي تعبأ فيها ضروع النوق لمنع حوار[1] الناقة من الرضاعة، وتسمى حينها الشملة. أما المترك والعقال فهما الحبلان القصيران القويان اللذان يستخدمان لربط عظمتي الساق والفخذ في الجمل كيما ينتصب واقفاً وهو مُحَمّل. كما أن شعر الجمل يخدم في ربط المعرقة أو الطاقية التي يعتمرها الرجال.

والفقراء وحدهم يغزلون أكياسهم من شعر الجمل وحده دون إضافة صوف الماعز لأن هذا الصوف أثمن من شعر الجمال.

ثروة وأملاك البدو

أملاك العربي هي ما يمتلكه من الجياد والجمال. وأرباحه التي يجنيها من الزبدة التي يصنعها وتجعله قادراً على شراء ما يحتاج من القمح والشعير والكساء اللائق لزوجته وبناته. وتلد أفراسه كل ربيع جيلاً جديداً من المهر والجياد الأصيلة التي تزيد من غناه. ولا تجد عائلة عربية تستطيع أن تعيش دون اقتنائها جملاً واحداً على الأقل، والرجل المالك أقل من عشرة جمال فقير في عيون الآخرين. ثلاثون أو أربعون جملاً يجعلون من حياة المرء حياةً سهلةً، أما من يملك ستين جملاً فأكثر فيعتبر من الأثرياء. ولكن هذه القاعدة لا تعمّم على كل العرب إذ بين عرب أهل الجبل الفقراء، من اقتنى عشرة جمال فأمسى من الأعيان. وبعض مشايخ عنزة يملك أكثر من ثلثمائة ناقة. والشيخ الذي كان دليلي في الطريق إلى تدمر كان مشهوراً باقتنائه مائة جمل وأربعمائة خروف وماعزة وفرسين وجواداً واحداً. ويختلف ثمن الجمل في غير رمان الحج عن

(١) الحُوَار (ج أحورة وحيران): ولد الناقة قبل أن يفصل عنها.

موسم الحج وقوافل مكّة. وفي مرّة سألت عربياً ميسوراً عن مصاريفه في تلك السنة فقال إنه خلال السنة العادية يصرف:

٢٠٠ قرش مقابل أربعة جمال محملة بالقمح

١٠٠ قرش مقابل الشعير للفرس

٢٠٠ قرش مقابل كسوة زوجته وبناته

٢٠٠ قرش مقابل القهوة وقمر الدين والدبس ونصف دزينة من القناديل.

المجموع ٧٠٠ قرشٍ أي قرابة ٣٥ أو ٤٠ جنيهاً استرلينياً.

ولا يملك العرب الكثير من الجياد بخلاف تقارير الرحالة الآخرين، فعند زيارتي مضارب عنزة لاحظتُ فرساً واحدةً لكل ست أو سبع خيام. والعنزيون يمتطون أفراسهم ويبيعون المهر إلى فلاحي سوريا وبغداد. أما أهل الشمال فيقتنون الكثير من الجياد لكن جيادهم ليست بأصالة الجياد التي تنتجها أفراس عنزة.

أما الثروة عند العرب فمسألة غير ثابتة. فالغزوات والسطو تحولان الثري إلى فقير يتسوّل ليعتاش. ويمكن القول بكل ثقة إن ربَّ عائلة واحد لم ينجُ من هذه المصيبة. والتفاصيل التي سترد لاحقاً، أي تفاصيل حروب البدو وسرقاتهم، ستُثبت ما قصدتُ إليه. قد يقال أحياناً إن العرب يجدون أنفسهم مجبرين على السرقة والنهب خلال الحرب؛ لأن معظمُ عائلات قبائل عنزة يعجزون عن دفع مصاريفهم من نتاج قطعانهم هناك وقلة من العرب تبيع الجمال لتأمين المؤن. والعربي يعرف أن السلام الدائم يقلل من الثروة ولهذا تصبح الحرب ضرورة لا اختياراً. والشيخ هو الذي يقود فرسان قبيلته في الحرب ضد العدو إذا كان هناك عدو وإذا لم يكن هناك عدوّ، اخترع عدواً.

والثروة وحدها لا ترفع من مقام العربي بين أترابه. فالفقير الذي يذبح الذبيحة تلو الأخرى حين يصل إليه غريبٌ والذي يقدم القهوة لكل جلسائه ويحمل علبة تبغه ولا يرد طالباً ويشارك أقرباءه الفقراء ما يتبقى معه من المال القليل ويصرف آخر قرش في جيبه كي لا ينهر سائلاً، هذا يلقى الاحترام أكثر من البخيل الغني الذي يستقبل الضيف بوجه بارد ودون حماسة وكرم ضيافة، ويترك فقراء القبيلة يتضورون جوعاً دون أن يحرك ساكناً. وشيخ القبيلة يعيش كما الأغنياء ويأكل كل يوم الأطباق الشهية ولا يشارك أصدقاءه ما لديه من طيبات إلا حين يحل الضيف عليه فيفتح خيمته للجميع. وذروة سعادة الشيخ تكمن في امتلاكه فرساً أصيلةً وفي رؤيته زوجته وبناته في حليٍ أفضل من حُلل نساء القبيلة الأخريات.

والافلاس معروف بين العرب. فالبدوي يخسر ما يملك بسبب الحرب ويقال حينها إنه (وَخَدَ حلاله)، أو يصرف كل ما يملك في سبيل الضيافة. وفي هذه الحالة أي الافلاس بسبب كرم الضيافة، يصبح شهيراً ومرموق الجانب في قبيلته. لكن هذا المفلس يجد صعوبة كبيرة ليعوض خسارته الكبيرة.

٣

علوم البدو وموسيقاهم وشعرهم

لا مجال للخوض بعيداً في مسألة العلوم البدوية إذ أن ثمة قبائل كاملة كقبيلة (ابن ضواحي) ليس فيها واحد يعرف القراءة أو الكتابة. وقد أخبرني بذلك بائعٌ متجولٌ من دمشق أمضى وقتاً طويلاً في مضارب تلك القبيلة وعمل أميناً لسرّ شيخها. كما أن خبراً غريباً سرى بين القبائل يقول إن أولاد قبيلة (ابن إسمير) تعلموا القراءة والكتابة. وفي رحلتي صوب تدمر، حملت معي سيرة عنترة وكنت أقرأ منها لأصدقائي ورفاقي في الرحلة لكني لم ألتقِ بعربي واحدٍ يقرأ العربية أفضل مني. وما رأيت في عنزة كلها كتاباً غير بعض نسخ من القرآن الكريم. أما علوم العربية الطبية فسوف يكون لها حصة في هذا الكتاب. وفي الفلك لهم أسماء خاصة يطلقونها على الكواكب والنجوم والأجرام.

وللشعر مكانة رفيعة في نفوس العرب ولهذا يلقبون الشاعر بلقب «صاحب قول»، ويشتهر البدو بقصائد المديح التي تنظم في مديح مشايخ القبائل أو بقصائد الغزل يوجهونها لحبيباتهم.

إن بعض البدو يحفظون من الشعر القديم وكذلك سيرة عنترة وقصة الزير سالم، وعادة ما تروى في الاجتماعات كسبيل للترفيه وإذكاء نار الحماسة. وعندما يقوم العنزي بإلقاء القصائد، يرافق إلقاؤه صوت الربابة، الآلة الموسيقية الوحيدة التي يعرفها أهل الصحراء. وأهل الجوف مشهورون بقصائدهم الغنائية. فيقوم شعراء الجوف بزيارات إلى مضارب عنزة للغناء في خيام المشايخ. ومن بين القصائد التي سمعت وأعجبتني قصيدة يوجهها شاعر لشيخ قبيلته يسأله تعويضه الخسارة التي تكبدها نتيجة إرساله جماله ونوقه للرعي خلال الشتاء مع جمال قبيلة أخرى فنفقت جماله.

قصيدة بدوية(١)
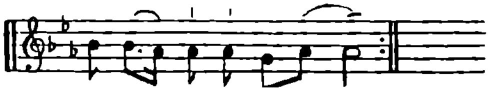
«سليمان! إنطني الريشة والورقة البيضاء
وأنص قولي، قول الحق
رب يساعدني ويرحمني ويغفر لي
نصلّي له كما المزارعين في الأرض؛
البدو والرعيان
«النبي يشفع لنا بالله وتُغفر الخطايا.
«وأنتم يا من ارتحلتم عني ركباً على الجمال الغبرا
ارجعوا لي بالشداد المربّعة، والأكياس، والمرقة والدقيق والقهوة والتباك.
هو شاب فاضل محبوب الأتراب وفخر الزوجة.
يعرف مسالك الديار أحسن من القطط
وعينه للبعيد تشوف مثل النسر
لا يلاحظ الفريسة.
هذي الطريق (للبدجه) تباطأ بالمسير
وتكسب غنيمة رائعة من الحج.
عليك أن تحارب السارق في الطريق وتلاحقه،
لكن صديقي، يحرس الجمال أو يأخذها إلى السهل لتموت هناك.
ارحل بالليالي بعد الغروب ولا تقرب نار المضارب قبل أن تسمع
نباح الكلاب. وأغاني قومنا؛
النساء الفخورات لا ينقطعن عن مديح أختي وضحا.
بين قطعان الرعيان فتش عن شقيق وضحا
يتبع السحت، راكباً فوق (الخضرا) يسبق كل الفرسان
ويغنم الكثير من الغنائم.

---

(١) هذه ترجمة من الانجليزية إلى العربية، وكان المؤلف أصلاً قد ترجمها عن العربية، لذلك أتت ركيكة ولا تمثل من قريب أو بعيد أشعار البدو التي لها قوافيها وبحورها وأساليبها، والقصيدة البدوية التي تعنى بلهجة البدو وعاميتهم، لا تقل في سعتها ومحيطها عن القصيدة الفصحى والشعر الفصيح عامة ـ المحقق.

مـــن يُـعِـــدّ الأبـــطـــال والـــفـــرســـان ألـــقـــتـــلـــهـــم؟
وســـيـــل دم قـــلـــوبـــهـــم عـــلـــى الـــتـــراب،
يـــطـــيـــر الأبـــطـــال مـــثـــل الـــطـــيـــور المجـــروحـــة.
يـــراهـــم،، لا يـــقـــتـــربـــون مـــنـــه وهـــو يـــصـــيـــح الـــنـــخـــوة..
حـــتـــى الجـــبـــان يـــدافـــع عـــن غـــنـــائـــمـــهـــم.
ألم يـــشـــعـــر قـــريـــبـــه بـــثـــقـــل ذراعـــه؟
والـــدم الـــذي يـــقـــربـــهـــم ممـــجـــد عـــظـــيـــم.
ومتى اقتربت من المضارب غنى فرحاً وصاح عالياً، فالمذبحة رهيبة.
وتـــأتـــي الـــفـــتـــيـــات لامـــعـــات الـــســـنّ
تـــســـأل عـــن أخـــي وعـــنـــي عـــربـــانـــه
لحيـــتـــه تـــنـــطـــق بـــالـــفـــضـــيـــلـــة ومـــشـــيـــتـــه غـــيـــر المشـــدودة
والـــلـــيـــل لا يـــقـــعـــده عـــن أفـــعـــالـــه.
لا ذنـــب اقـــتـــرفـــه ولا دلـــيـــل عـــلـــيـــه.
قـــدم لـــه تحـــيـــاتـــي ودعـــائـــي وإلـــيـــه ســـلّـــم قـــصـــيـــدتـــي
وحـــين تـــدخـــل الخـــيـــمـــة، رحّـــل الأشـــرار؛ ومـــجـــدّ الـــلـــه ورســـولـــه.
عـــندهـا، لـك يمـدّ الـسـجّـاد، ولـك يـتـضـوع طـيـب الحـبـوب المغـلـيّـة.
تنصب لك موائد القوالق من زبد وتمر.. فكر بالماشية المذبوحة.
بـــعـــد الـــطـــعـــام، يـــســـألـــونـــك عـــنـــي.
أخبره، يوسف يعيش في البؤس منذ عصاك وأرسل الماشية والجمال.
خسر الملك.. لم يسلبه سالب أو عدو.. بل خسره إذ لم يستمع للنصح.
الـــرب هـــو المعـــوّض يـــا أخـــي.. لـــيـــســـاعـــد دومـــاً يـــا أخـــي.
أيها السعد رافقه أين ذهب! وانبت العشب تحت قدميه والكما.
حـــتـــى فـــي الـــشـــتـــاء، وبـــارك قـــطـــعـــانـــه.
مـــتـــى صـــلـــيـــت لـــلـــه، اشـــكـــره واحـــمـــده عـــلـــى نـــعـــمـــه
احـــمـــده بـــعـــدد شـــعـــر خـــراف الـــقـــطـــيـــع.

إلى جانب القصيدة، كان للعرب أغنيات، منها الأسامير التي تغنيها النساء. في مناسبات الأعياد والاحتفالات، تنسحب النسوة إلى مكان غير بعيد من الخيام وينقسمن إلى كورسين أو ثلاثة ويغنين للكرم والضيافة والشهامة وفق موسيقى لا تتغيّر كما التالي:



زمن اللحن سريع أو بطيء، وفق إرادة المغني. وهذا مثال هنا على تلك الأغنيات:

الخيل جتنا يا ديبا!

الخيل جتنا حطّيبا!

الخيل (ضوحي) يا ديبا!

أول أبيات الأغنية يردد مراراً عديدةً ثم الثاني، لكن الثالث الذي يحتوي عادة على اسم أحد أبطال القبيلة فيردد قرابة خمسين مرّة. وتقوم النساء بلفظ اسم هذا المحارب البطل بطريقة يتعذر معها على الرجال سماعه بوضوح.

أغنيات الرجال القومية مختلفة. فهناك أغنيات الغزل وتسمى بالهجيني[(١)]. الحب العربي ليس مغلفاً بالغموض كما الحب الأوروبي. فأمر الحب يتفشّى في كل القبيلة، ولا أسرار فيه إلا لقاءات الحبيبين التي يسهل انعقادها بفضل الأودية الكثيرة التي تؤمنها لهما البادية. وتبقى الواحات والينابيع التي تذهب إليها الفتيات للحصول على الماء المكان المفضل للقاءات العاشقين. وإن أصاب السهاد عاشقاً ذهب إلى خيمةٍ فيها صحبه قريبة من خيمة الحبيبة وأمضى الليل وأترابه يغني حجينيه حتى بزوغ الفجر. وكذلك تفعل الفتيات أحياناً.

موسيقى ولحن الهجيني مختلفان تماماً عن كل الغناء الأوروبي أو التركي. وهذا مثال من كلام حجيني الرجال:

يا ذيب يا أعلا من القعرة

عانيت شوقي ودوارها

ياعم قوم دنّي لي ضامرة

مالحد تشوق للخلاويه

---

(١) الهجيني ضرب من الشعر المغنى، يغنيه القوم وهم مرتحلون على ظهور الهجن، لذلك يسمى الهجيني ـ المحقق.

حط عليها شداد الزين والجربه جلد النجديه

ابغي عليها مع الزمال

والجمل الضامر والناقة المسودّة الملحا وهما الشائعان بين نساء عنزة لكن الجمال الغبراء المحمرّة فتفضلها سيدات بني صخر.

ولم أستطع الحصول على أي مقطع من حجيني النساء إذ لا يعرف هذه الأغنيات النساء.

للرجال أغنية تدعى (الصهجة) وهي مديح لأحد المشايخ. ولغناء هذه الصهجة، يتحلق العرب ويبدأون ترديد اسم واحد بعد تحريفه على سبيل المديح (حمودة بدلاً من حمد مثلاً)؛ ثم ينتصب أحدهم ويغني جملةً من خمس أو ست كلمات مديحاً بحمودة نفسه بينما الآخرون يواصلون ما بدأوه وهم يصفقون بأيديهم. ويقف غيره ليمدح بالاسم نفسه أو بغيره على القافية والروي نفسهما. وهكذا تستمر الصهجة لساعات متعددة.

الحدو من أغاني العرب. فحين تجرد قبيلة فرسانها في حرب ضد قبيلة أخرى، يكون الخط الأول خط الفرسان وخلفهم ركاب الجمال ثم المشاة المسلحين بالرماح والسيوف والقلنج. وعند الاقتراب من مضارب العدو، يركض المشاة ليبقوا بقرب الفرسان والجمالين. وعندها يبدأون الحدو الشهير:

يا موت خلّي السكرَ

يا موت حتّي نترَ

وغناء الجمالين حدوٌ أيضاً؛ والمعروف عن الجمال حركتها المتثاقلة إلا حين تسمع غناء راعيها الذي فوقها[1]:

يا رب سلّمهم من التهديد

واجعل قوايمهم عمد حديد

يكون الغناء حماسياً بصوتٍ عالٍ جداً فيشيع الضوضاء في كل الصحراء حتى يصل قرى سوريا.

الأعياد والابتهاجات

ختان الذكور يكون مناسبة للاحتفال والفرح عند العرب. والختان يطبق على الصبيان حين

(١) لم يعرف هذا الأسلوب في الحدو.. فالحدو أصلها الحداء أي الغناء الذي تسير على صوته الجمال في القافلة وينسق حركتها أما شعر الحرب والحماسة فهو شيء آخر - المحقق.

يبلغون السادسة أو السابعة. ففي الصباح المحدد موعد هذه العملية، يذبح والد الصبي خروفاً، ويأتي عمّه بخروفٍ آخر مذبوح. عندئذٍ، يوضع مقصر الجمل أمام الخيمة ويغطى بقماش أحمر. وتتحلق حوله النساء وقد تحول اسمه إلى «المصنع» ويبدأن الغناء الفرح بينما الرجال في الخيمة يتناولون الطعام. بعد انتهاء هذه الوجبة الدسمة يتم الختان على صوت الزغاريد التي تطلقها النساء. ويترك عندئذٍ الرجال الخيمة ويمتطون أفراسهم مستلين الرماح المزينة، ويقوم كل منهم بثلاث دورات حول المصنع، قبل أن يلعبوا لعبة الحرب لساعة أو أكثر. وفي هذا الوقت، تغني النساء الأسامر مادحات الفارس الأفضل أو صاحب الفرس الأجمل.

وخلال شهر رمضان، يبني العرب موضعاً على الطريق تُشيد الجدران بالحجارة، حيث يمارسون طقوس دينهم منه إذ صار المكان مسجداً. وبعد صلاتي الفجر والمغرب، يدرب العرب الجياد أمام المسجد، وذلك خلال الشهر الفضيل فقط.

وخلال عيد التضحية على جبل عرفات أو عيد الأضحى، يبنون مسجداً مشابهاً لذلك الذي وصفته آنفاً، وتركض الجياد بعد الصلوات لساعة من الزمان. وفي العيد، يكون العرض أجمل من الأيام الأخرى، وتحتفل كذلك العائلات التي لم تقدم الأضاحي لأنها فقدت عزيزاً خلال السنة الماضية.

وإلى جانب الاحتفالات التي ذكرتها، لا توجد لقبيلة عنزة احتفالات أخرى، لكن رجال هذه القبيلة يحتفلون بقدوم أي غريب لأنّ كل أصدقاء المضيّف مدعوون لتناول الطعام على شرف الضيف. وحين يغيب أحد أفراد العائلة دون سبب أو تدرك العائلة أنّ قريباً لها يمرّ في ضيق في سفره، تنذر العائلة نذراً كأن يضعوا رايةً لوجه الله، ويكون النذر عادة التضحية بجمل لِلّه يذبح ويوزع على الفقراء والأصدقاء والأقارب ما إن يصل المسافر أو تفك مشكلة.

الأمراض وعلاجاتها

ما يزال الجدري يصيب البدو حتى الآن، حتى أن مخيماً كاملاً فرغ من ناسه بسبب انتشار هذا المرض: فعند إصابة رجل أو طفل بداء الجدري، تنصب له خيمة بعيداً من المضارب ولا يزوره ويعامله سوى شخص واحد أصيب بالجدري سابقاً ونجا منه. ودق الجدري (أي التلقيح) معروف في عنزة وأكثر في عرب الشمال وعرب قبلي، يقوم به الرجال فقط بواسطة إبرة بين الابهام والوسطى. لكن هذه الطريقة لا تنفذ إلا عند انتشار الجدري في كل القبيلة. وقد تعلم العنزيون دق الجدري من فلاحي سوريا، لكن عرب داخل الصحراء كبني شمّر مثلاً يجهلون هذا العلاج ويتركون المريض في عهدة الله ليشفيه.

وقد بدأ التلقيح ينتشر في سوريا بعد أن وصل اللقاح من حلب في حقيبة السيد جون باركر، قنصل بريطانيا العظمى هناك. فهو كان تلقّاه من فيينا وقدمه لسكان جبال الدروز. ومنذ ذلك الحين، انتشر التلقيح بين العائلات المسيحية واليهودية في حلب واللاذقية وطرابلس وبيروت وجبال الموارنة والدروز ودمشق. وفي عام ١٨١٠، فاق عدد الأطفال الملقحين ضد الجدري الثمانمائة طفل في دمشق وحدها، وكذلك في بغداد، إذ أخذ اللقاح يشق طريقه ولا بد أن الأتراك سيحذون حذو المسيحيين وسوف يعرفون مدى أهمية وفائدة اللقاح.

يعاني العرب عادة من أمراض المعدة، ويرد ذلك إلى الافراط في تناول حليب النوق. وفي حالات الالتهابات الروماتيزمية، الكي هو العملية الوحيدة التي يقوم بها العرب للعلاج، وتقضي بكي منطقة الألم بحديد حام جداً. رأيت عرباً كثيرين أجسادهم مغطاة بآثار هذه العمليات، والمؤكد أن الكي أدى إلى نتائج مفيدة. أحياناً، يأخذ المعالج الجلد في موضع الألم بين إصبعين ويثقبه بواسطة عودٍ من الحديد ثم يغرز في الثقب عوداً آخر ليساعد الجلد على التقيّح.. هذه العملية تدعى الخلال. في بعض الأحيان، يستعيضون عن الحديد بخشب السنديان الكثيف الموجود في جبلي حيش والبلقاء. يقوم العربي بحك قطعة الخشب المقوسة على حجر ساخن لكي تسخن ثم يدخلها في جلد المريض.

أما الحمى فشائعة جداً في الصحراء: أهمها الحمى الالتهابية تدعى (خبيّه)، والحمى المتقطعة، السخون. وحين يعجز الكي عن علاج المريض، يترك للعناية الإلهية.

والأمراض البصرية شائعة أيضاً، وبرغم عدم مبالاة البدو بهذه الأمراض إلا أن قلّة منهم تفقد النظر مقارنة مع فاقدي هذا النظر في قرى سوريا وبلدانها. فالعرب ينامون متدثرين بالمشلخ حتى رؤوسهم بينما الفلاحون ينامون في أسرّة في فناء البيت ويبقون مكشوفي الوجوه؛ وأظن هذا سبب مشاكل عيون الفلاحين الحلبيين كما بعض الدمشقيين. وفي حال الاصابة بالصداع الشديد، يتخلّص البدوي من قليلٍ من الدم إذ يشج جبينه بسكّينه. كما يعاني البدو كثيراً من ديدان البطن.

مشاكل الأمراض مجهولة تماماً في عنزة بخلاف أهل الشمال. فالعنزي لا يتورط في الفسوق عند دخوله المدن والقرى برغم أن سوريا تقدم كل التسهيلات في هذا المجال. لكن في حال الإصابة بمثل هذه الأمراض (وهذا نادر جداً) يرسل المريض إلى المستشفى، أو المرستان، في دمشق أو بغداد.

ما يزال البرص موجوداً بين العرب، لكن خلال ١٢ سنة من التطبيب في حلب، لم يعاين

طبيبٌ فرنسي عرفته سوى حالة واحدة من البرص. كما أني لم ألتقِ أبرصَ واحداً في الصحراء ولكني سمعت أن البرص هو المرض الذي يتسبب بتشكيل البقع البيضاء على يدي المريض ثم على جسمه كاملاً. والبعض يولد مصاباً بالمرض والبعض الآخر يصاب به في عشرينياته أو ثلاثينياته. وحين تصل هذه البقع البيضاء إلى الخدين، تتساقط اللحية. وإن تساقطت هذه اللحية بسبب مرض آخر يعتبر ذلك عاراً، ويسمى المصاب (حتوث). ولم يتم إيجاد علاج للبرص أبداً. ويعلن العرب أن دخول البرص إلى عائلةٍ ما أمرٌ لا يمكن التخلص منه، ولكن هذا المرض لا ينتقل مباشرة من أبٍ إلى ابنه بل من الجد إلى الحفيد ليمرّ في مرحلة انتقالية. والمصاب يبتعدون عنه، فلا عربي يرقد بقرب أبرص ولا يأكل معه الطعام أحد ولا يسمح لأولاده بمعاشرة أولاد أبرص.

وألم الأسنان مجهول تماماً في الصحراء وكل العرب يتمتعون بأسنان جميلة لامعة.

وهناك ثمة من يعرف كيفية تجبير قدم الرجل المكسورة من طريق المجبّر، وهي الطريقة نفسها التي يداوون بها قائمة خروف أو معزاة إن انكسرت.

ويستعين البدو ببعض الأعشاب الصحراوية في تصنيع العقاقير العلاجية. فهذا الأمر، والكي، هما كل معارفهم الطبية. لكن البدو يثقون ثقة عمياء بفاعلية كلمات محددة تكتب على قطع ورقية صغيرة يبتلعها المريض بكل حماسة وقبول[1].

وتعاني نساء البدو من الحمل ويضعن غالباً في الهواء الطلق. وعند حصول ذلك، تنظف الأم وليدها بنفسها فور ولادته بالرمل[2]، وتلفه بمنديلها وتعود به إلى المنزل. وإن جاءها المخاض وهي راكبة الجمل يُناخ الجمل وتلد كيما يراها أحد، ثم تعود إلى ظهر الجمل ما إن ينتهي وضعها. ترضع الوالدة وليدها الجديد حتى يستطيع الرضيع تناول الطعام، لكن حليب الأمهات البدويات قليل. وهن يشربن الكثير من حليب النوق في آخر أيام الحمل بغية إدرار حليبهن وهكذا يأتي الطفل معتاداً طعم حليب الناقة فيبدأ استقباله بطيب خاطر ابتداءً من شهره الرابع.

ويُسمّى الولدُ حالما يولد، ويشتق الاسم من حدثٍ حصل للأم في حملها أو عند الولادة، أو حصل لأخرى موجودة. وهكذا، إن صودف نباح كلب أثناء المخاض، سمي الولد كلاب، وإن

(١) يقصد الأحجبة والأدعية التي تكتب بالزعفران وغيره على ورقة، تنقع بالماء ويشربها المريض ابتغاء شفاء من الله تعالى ـ المحقق.

(٢) لم نسمع بأمرٍ هكذا بين البدو، إذ الأغلب أن الرضيع حال ولادته يدلك جسمه بالملح ثم يغسل بالماء ـ المحقق.

ولد الوليد حين بزوغ الفجر سمي ضويحي (من الضحى)[١]. أما الأسماء الإسلامية كمحمد وعلي وحسن ومصطفى وفاطمة وعيشة فشائعة جداً بين البدو. وبالإضافة إلى الاسم الأول، ينادى الأعرابي باسم والده ثم باسم القبيلة التي ينتمي إليها مثل «قدوة ابن غيّان الشمسي». فهو قدوة وأبو غيّان وقبيلته شمس.

يترك العنزيون أطفالهم يعيشون على الطبيعة ولا يسهلون عليهم الحياة بل يسعون لتعويدهم منذ صغرهم على شظف العيش في الصحراء. وقد رأيت بأم العين أطفالاً عراة في منتصف النهار تحت الشمس الحارقة يلعبون ويتراكضون فوق الرمل الساخن حتى ينال التعب منهم كل منال فمتى عادوا إلى منازلهم أنبهم أهلهم لتوقفهم عن تمارين الجري[٢].

وبدلاً من تمرين الصبي على كيفية التعامل المدني مع الآخرين، يحضه والده على ضرب الغرباء الذين يقربون من الخيام بغية السرقة. وكلما تجالف الصبية ازداد اعتزاز أهلهم بهم إذ يتوسمون فيهم محاربين أشدّاء في المستقبل.

لا يعطي الولد العربي للغريب غير اسمه الأول إذ يعلمه أهله ألا يفشي اسم القبيلة والعائلة خوفاً من عمليات الثأر والمطالبة بالدم التي ما تزال تحدث حتى اليوم. كما أن الراشدين أنفسهم لا يفصحون عن أسماء عائلاتهم وقبائلهم للغرباء.

المعتقدات الدينية

حتى السنوات القليلة الماضية، لم يكن بين البدو أي ملالي أو أئمة، لكن منذ أن تحولوا إلى المذهب الوهابي، أخذ شيوخ القبائل كالطيار وابن إسمير يقدمون مشايخ الدين ليعلموا أولادهم قراءة القرآن الكريم. والعنزيون دقيقون جداً في تأدية الصلوات اليومية لكن ليس لهم خطبٌ في يوم الجمعة. ويحافظون على الصوم في رمضان محافظة دقيقةً أيضاً حتى لو حلّ هذا الشهر وهم في مسير في منتصف الصيف. فلا يوقف صومهم إلا الموت. وثمة ثلاثة أشياء محرّم على البدوي أن يأكلها وهي الخنزير والميتة والدم. وعدا ذلك فهم يأكلون أي شيء يصطادونه، وفي يوم القربان، أي يوم التضحية في جبل عرفات، ينحر الأعرابي جمالاً بعدد موتى عائلته في تلك السنة، سواء أكان الموتى ذكوراً أو إناثاً. وقد يستعاض عن الجمل بسبعة خراف. ولهذا يُعتبر يوم القربان من الأيام الاحتفالية العظيمة بين القبائل.

---

(١) هذا ليس شرطاً، إنما قد يحدث ذلك، فإن ولد طفل والقوم ظاعنون أسموه ظاعناً، أو في يوم ماطر، أسموه مطراً، وهكذا.

(٢) يركض العرب مسافات طويلة بسهولة وسرعة لا توصفان.

وحين يموت أعرابي، يدفن جثمانه فوراً دون أي صلاة[1]. وعندما توفي سليمان، الصبي الأكبر للقائد العنزي المشهور ابن إسمير، وُضِع جثمانه على جمل وسلّم إلى فلاّح ليدفنه.

وإن مات أعرابي في مضارب قريبة من أطلالٍ ما، دُفِن في هذه الأطلال، ووضع على قبره الحجارة لحمايته من الكواسر. وحين موت والدٍ يقوم أولاده الذكور والاناث بقطع قرونهم (ظفائر الشّعر المجدولة) علامةً على حزنهم لفراق أبيهم. ولحظة يفارق فيها الوالد الدنيا، تجتمع النساء والبنات والقريبات للولولة. إن لم يكن للفقيد ذكر يرثه أو كان له ذكر قاصر، فعلى العائلة الانتقال إلى خيمة عمّ أو خال أو قريب، وتهدّ عواميد الخيمة فوراً وتسمى حينها (خربة).

ومنذ تحول العنزيون إلى المذهب الوهابي، شرعوا يهتمون بالصلوات ومواقيتها إذ عرفوا أن الوهابيين أشداء جداً مع غير المهتمين بالواجبات الدينية. وهناك ثمة آراء متضاربة بين البدو حول أمرائهم الوهابيين بيد أني لم أر بدوياً واحداً في سوريا زعم معرفته بهذا المذهب. وأظنني قادر على الاستشفاف، من خلال تجربتي مع العرب ومع الوهابيين أنفسهم، أن دين الوهابيين هو أشبه بالبروتيسانتية المسيحية، حسب التطبيق المحمدي. فالوهابي لا يعترف سوى بالقرآن وحياً منزلاً، وشعاره «القرآن ولا غيره»، لذلك يرفض الاعتراف بالحديث الذي يتوسله المفسرون لتفسير القرآن. والوهابي ينظر إلى محمد رسولاً من الله فقط ولهذا يمنع الحج إلى قبر الرسول في المدينة ولا يعترف إلا بالحج إلى الكعبة في مكة وبالتضحية فوق جبل عرفات. والوهابي يرفض الحال الذي وصل إليه المسلمون من إغراق في أمور الدنيا من بهرجة في اللباس وترف في الطعام والشراب، ويسأل إن كان النبي يوماً ارتدى العباءة المقصبة بالذهب أو دخن النارجيلة أو الغليون. أتباع الوهابية يرتدون الثياب البسيطة ولا يقتنون الذهب أو الفضة ولا يدخنون ولا يقبلون الموسيقى والغناء والرقص واللعب، ويؤمنون بالمساواة فيما بينهم لأن لا احترام وإجلال إلا للّه الذي يتساوى أمامه الجميع. ويرفض الوهابي أي علاقة قد تربطه مع المشركين وهو الاسم الذي يطلقه على المسلمين الآخرين. كما يفرض الوهابي دينه بحدّ السيف، ويغزو مناطق المشركين بعد تحذيرهم ثلاث مرات وبعد دعوتهم إلى الدخول في المذهب الوهابي. وبعد التحذير الثالث، يفوت أوان العفو، فيجرد الفرسان سلاحهم ليستبيحوا مضارب الآخرين ويقتلوا من يشاؤون.

حين سقطت بلدة مسجد علي في يد الوهابيين، ذبح هؤلاء كل البدو. وما إن تصبح البلد في يدهم حتى يأمن فيها العيش. ففي نجد والحجاز الطرقات آمنة والناس أحرار. أما النصارى

---

(١) لا ندري من أين جاء المؤلف بهذا الخبر الخاطىء، بينما لا يدفن المسلم دون تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ويستثنى الشهيد في ساحة الوغى.

واليهود، فهم قادرون على ممارسة طقوسهم بحرية طالما يدفعون الجزية. وحين سُئِل مرّة مولى وهابي لماذا لم ينجُ الأتراك والمسيحيون واليهود من إحدى الهجمات قال: «إن أردت أن تطحن كيساً من القمح وتعرف أن فيه بعض حبات الشعير، ألا تطحن الجميع كله بدلاً من تكبد مشقة البحث عن حبّات الشعير والتقاطها الواحدة بعد الأخرى»؟

أحد أركان الوهابية الأهم هو دفع الزكاة للشيخ. في الشتاء ينتشر جامعو الزكاة (المزكي) في كل المناطق الوهابية يجمعون المال بالحسنى أو بالقوة ليعودوا إلى شيخهم محملين بالذهب والفضة. العنزيون يدفعون دولاراً إسبانياً مقابل كل خمسة جمال، (وطنباً) واحداً لكل جواد أو فرس. الزكاة هذه مدفوعة نقداً، ومقبولة الآن بالعملة التركية المعدنية. وابن سعود يمتلك وحده الكثير من الأراضي والأملاك في الظروف نفسها التي أدت إلى قيام النظام الاقطاعي في أوروبا سابقاً. والمستأجرون في أملاكه لا يدفعون أجراً بل يحاربون في صفوفه ويلبون النداء كلما ناداهم إلى الحرب والموت. وهذا الاضطرار إلى الخدمة وإلى الموت في سبيل ابن سعود شائع في كل نجد، لكن يشذ العنزيون عن هذه القاعدة إذ هي القبيلة التي لم تنكسر يوماً بل تطوعت لدفع الجزية. وهناك ثمة عنزيون في الشمال لم يدفعوا مالاً قط منذ سبعة أعوام.

وكل العنزيين الذين التقيتهم خلال ترحالي في الصحراء كانوا ثواراً؛ لكنهم كانوا دوماً محافظين على انتمائهم الوهابي في الظاهر. كما أن مشايخ القبائل أقلعوا عن التدخين واعتنقوا المذهب الوهابي لكن العامة لا تهتم بالمذهب الجديد ولهذا تراهم يغنون ويدخنون. وبرغم هذا، لا يذكرون اسم ابن سعود إلا مقروناً باحترام جزيل.

الزواج والطلاق

تعدد الزوجات مباح عند البدو، لكن معظمهم يكتفي بواحدة فقط. وهناك قلّة من الرجال متزوجين من زوجتين كما أني لم ألتقِ بدوياً يتذكر حادثة وجود أربع زوجات في خيمة رجلٍ واحد. واحتفال الزواج، أو العرس، بسيط عند العنزيين. فحين يعتزم الرجل الزواج من فتاة يرسل أصدقاءه إلى والدتها وتبدأ المفاوضات، ويستمزج الوالد رأي ابنته، فإن توافق رأيها مع رأيه، يقف صديق العريس مصافحاً والد العروس ويسأله: «أتعلن أنك تزوج ابنتك من فلان؟» فيأتي جواب الأب إيجابياً. ويحدد موعد الاحتفال ويكون بعد خمسة أو ستة أيام من الخطبة، فيصل العريس يجرّ خروفاً إلى باب خيمة والد العروس حيث يُذبح هناك أمام شهود. وما إن يصل دم الخروف إلى الأرض، يعتبر الزواج قد تم وحلّ[١]. يحتفل الشباب والصبايا بالغناء.

(١) هذا خلط آخر من المؤلف، إذ كيف تحل الزوجة لزوجها بدون عقد قران؟

وبعد المغرب، يجلس العريس في خيمة نصبت له على مبعدةٍ من المضارب منتظراً وصول العروس. في هذه الأثناء تكون العروس راكضةً من خيمةٍ صديقةٍ إلى خيمةٍ أخرى حتى تلتقط أخيراً وتساق إلى خيمة الزوج المنتظر. فيستقبلها هذا على الباب ويرغمها على الدخول، فتعود النساء اللواتي رافقن العروس أدراجهن. يسرّ العريس لأصدقائه في اليوم التالي عن حالة العروس وعذريتها، إذ العادات حول هذا الأمر مخالفة لتلك السائدة في الأمم الشرقية الأخرى. ولكن إذا تزوجت أرملة عنزي مرة ثانية ينظر إليها بازدراء وعليها أن تتحمل ملامة الآخرين.

وهناك في نواحي الناصرة قبيلة عربية هي عرب (الرايير) حيث يتفاوض الوالدان حول زواج ولديهما. وبعد الاتفاق، يسلم والد العريس ورقةً من النبات الأخضر إلى والد العروس ويدعو الشهود ليشهدوا على العقد.

ومن العار عند العنزيين طلب والد العروس مالاً مقابل ابنته، أو ما يُدعى حق البنت. لكن هذا الأمر شائع وطبيعي في سوريا حيث يدفع التركي والنصراني واليهودي مالاً لوالد العروس يكون متناسباً مع مقامه الاجتماعي.

ومن عادات عرب الشمال أن تتلقى العروس «الخمس» الذي يبقى معها حتى بعد طلاقها، والخمس يتألف من سجادة وخاتم أنف وعقد فضي وسوار فضي وهودج جمل من صنع بغداد. ومن الممكن أن يتقدم العنزي بالهدايا من زوجته وأبيها ويعود للعروس أن تقبلها أو ترفضها.

ذكرت آنفاً أن أبناء عنزة لا يتصاهرون مع الصناع أبداً، ولا يتزوجون من الفلاحين أو ساكني القرى. لكن أهل الشمال أقل تعصباً في هذا المجال. وإن شكك العريس بعذرية العروس لا يبادر فوراً إلى فضح أمرها خوف إهانة عائلتها بل ينتظر يومين أو ثلاثة ليعيدها إلى أبيها معللاً الأمر أنها لم ترضه أبداً. وهذا سبب كافٍ لفسخ الزواج. وإن شك اعرابي في أمانة زوجته واعتقد أنها تخونه، رفع الأمر إلى أبيها أو أخيها.. فإن تأكد هذا الاتهام بالبرهان القاطع، قام الأب أو الأخ فوراً بذبح الفتاة.

ويكتفي معظم العرب بالزوجة الواحدة، لكن الأعرابي لا يبقى على هذه الزوجة الواحدة طوال حياته بل يستبدلها بأخرى وبثالثة متى يشاء، إذ أن القانون التركي في هذا المجال يسمح للرجل بالانفصال عن زوجته متى أراد أو متى شعر أنه غير راغب فيها، فيكفي أن يقول لها «أنتِ طالق» ليعيدها إلى خيمة أبيها مع ناقةٍ، دون أن يكون ملزماً بإعلان السبب الذي دفعه إلى هذا الأمر، ودون أن يؤثر هذا الطلاق على شرف الزوجة وعائلتها.. فالكل حينذاك يبرر فعلة هذا الرجل بالقول: «لم يعد يحبها». ولربما، في اليوم نفسه، يقوم بطلب فتاة أخرى

للزواج. أما المطلقة فعليها الانتظار أربعين يوماً قبل أن تصبح زوجة رجل آخر، إذ قد يتضح في هذه المدّة أنها حامل من طليقها[١].

والطلاق كثير الحدوث في قبيلة عنزة حتى أنه قد يحصل خلال حمل الزوجة. في هذه الحالة، تربي الزوجة الطفل حتى يمسي قادراً على الركض، فيأخذه أبوه في خيمته. وحين يطلق الرجل زوجة «قديمة» استولدها أولاداً عديدين، يسمح لها أحياناً بالبقاء في خيمته بين أولادها، لكنها تستطيع العودة إلى أهلها متى شاءت. وتتحرر المرأة التي تطلّقت أربع أو خمس مرات من كل وصمة عار أو تهمة لحقت بها. وقد رأيت أعرابيين لم يبلغوا بعد الخامسة والأربعين تزوجوا أكثر من خمسين زوجة. فطلاق الزوجة والزواج من غيرها لا يكلف الأعرابي أكثر من ناقة.

كما يسمح القانون للمرأة بنوع من الطلاق؛ فإن لم تسعد في خيمة زوجها هربت والتجأت إلى خيمة أبيها. وقد يرغبها الزوج بالعودة من طريق الهدايا والسجاد والأساور، فإن رفضت عصت عليه واستحال عليه أن يجبرها، ولا يكون أمامه سوى طريق واحد، أن يقول لها «أنتِ طالق»، وإلا استحال عليها الزواج ثانيةً. وأحياناً، يتلقى الزوج الرشوة من أجل أن يتفوه بإعلان الطلاق. أما في حالة رفضه التام تطليق زوجته فيحكمُ عليها بالعيش وحيدة طوال حياتها، وتسمّى (الطامحة)؛ والطامحات كثيرات في القبائل.

إن ترملت الفتاة الشابة، يتقدم أخو زوجها للزواج منها. والعادات لا ترغم الطرفين على القبول بهذا الزواج ولا تمنع الأرملة من الزواج برجل آخر، لكن الأرملة عادة ترفض الزواج بغير أخي زوجها لتبقى أموال العائلة مجتمعة لا تتفرق. فهذا يصب في صالح أولادها.

وللشاب الأولوية في يد قريبته؛ وقد لا يرغب في الزواج منها لكنها لا تستطيع الزواج من غيره إن لم يوافق هو. وحين يوافق على زواج ابنة عمه من غيره، أو حين يطلق الرجل زوجةً هجرته إلى بيت والدها، يقول عادة: «كانت بابوجي وشلحتها»[٢].

في قبائل أهل الشمال، إن حصل هروب رجلٍ مع زوجة رجل آخر والتجأ في خيمة رجل ثالث، يقوم هذا الأخير بذبح خروفٍ وهكذا يزوج الرجل والمرأة[٣]. إن حصل ذلك في قبيلة عنيزة، تعود المرأة أدراجها إلى خيمة والدها وتنتظر الطلاق من زوجها. أما الرجل الذي هربت معه فيكون آمناً من كل أذى إذ يكون دخيلاً على خيمة الرجل الذي أواه مع محبوبته.

(١) هذا أيضاً خلط من المؤلف فعلى المطلقة في الإسلام أن تعتد عدة الطلاق أو الاستبراء وهي ثلاثة قروء.

(٢) البابوج ضرب من النعال، واللفظة تركية.

(٣) لا ندري من أين حصل المؤلف على هذه المعلومات الخاطئة جملة وتفصيلاً، إذ كيف تتزوج المرأة بذبح خروف، وهي ليست مطلقة ولم تنه عدتها ولا تم عقد قرانها بشكل شرعي - المحقق.

وسهولة هذا الطلاق تليّن العلاقات بين العائلات. كما أن تبديل الكثير من الزوجات، يشيع أسرار (الأباء والأبناء) في كل القبيلة إذ تفعل الغيرة فعلها المدمّر.

برغم كل هذا، فمن واجب الأعرابي معاملة والديه بالحسنى دوماً، وخصوصاً والدته. وأحياناً، يقف الولد جانب والدته في خلافها مع والده، فيقوم أبوه بطرده من الخيمة.

وحين يبلغ الصبي، يُهديه والده فرساً أو ناقةً ويتركه حرّاً في كسب المغانم. فإن كسبها أمست ملكه لا ينازعه فيها منازع حتى والده.

في بعض الأحيان، يقدم الوالد الهدايا لولده المدلل حين زواجه. لكن في الغالب يبدأ الصبي حياته الزوجية بناقةٍ واحدةٍ لا غير تؤمن له الطعام ريثما يبدأ الغزو ويكسب المغانم. وفي كل الأحوال، لا تتلقى الفتاة حين زواجها أي هدية من أبيها، ولا تملك إلا الخمس الذي يقدمه والد العريس، كما ذكرته سابقاً.

الحكم والقضاء

العرب أمّة حرّة، تصل الحرية فيها إلى حدود الفوضى. ومن خلال التجربة اتضح لي أن المؤسسات المدنية عند البدو خاضعة لعاداتهم وتقاليد حياتهم، وإن الهدف الأوحد من القوانين هو حماية الضعيف من القوي وتجنيبه بطشه.

فلكل قبيلة عربية شيخها وقائدها، ولكل مخيم من مخيمات القبيلة شيخٌ أو أعرابي محترم من الجميع. لكن ليس للشيخ أي نوع من أنواع السلطة على أفراد القبيلة، بل يستطيع من خلال صفاته الشخصية التأثير خصوصاً إن كان الآخرون ينظرون إليه بعين الاحترام بفضل قدراته على التعامل مع المشاكل العامة والخاصة[١].

والسلطة الفعلية عند البدو تتألف من قوة العائلات التي تشكل كل منها جيشاً صغيراً من الفرسان جاهزاً لأي عدوان يفرض عليه صده. وإن تفاهم هذه العائلات وتوازنها يجلبان السلام إلى القبيلة. وما إن ينشب الخلاف بين فردين، حتى يهب الشيخ لحله. وإن لم يوافق الطرفان على نصائحه، يضطر حينها إلى الانسحاب إذ لا مجال لفرض الطاعة في هذه الحال. وعند فشل كل محاولات الاصلاح التي يقوم بها أصدقاء وأقارب طرفي الخلاف، تبدأ الحرب بين العائلتين وما يتصل بهما من عائلات أخرى. وهكذا يصدق البدوي حين يعلن عدم اعترافه بسيّد عليه غير رب العالمين. وفي الحقيقة، لا يجرؤ أشجع وأقوى قواد قبيلة عنزة معاقبة الفقير

(١) وهذا خلط آخر، إذ كيف يعقل ألاّ تكون لشيخ القبيلة أية سلطة على أفراد قبيلته؟ ـ المحقق.

في قبيلته دون أن يجلب على نفسه خطر الثأر من هذا الفقير وعائلته. ولذلك فإن مشايخ القبائل وأمرائها ليسوا حكام الصحراء كما يعتبرهم بعض الرحالة. فكل مهمتهم قيادة قبائلهم في الحرب ضد القبائل المعادية، والقيام بمفاوضات للسلم أو الحرب وتحديد مكان ضرب الخيام واستضافة الضيوف. وحتى هذه المهمات محددة أيضاً. فالشيخ لا يعلن الحرب أو السلم دون استشارة أعيان قبيلته.. وإن أراد إعلان الترحال، عليه استمزاج آراء أهل القبيلة والسؤال عن الطرقات المأمونة وعن كفاية الكلأ والماء في المنطقة التي عزم التوجه نحوها. وقد لا تنفذ كل أوامره لكن توجهاته تُتبعُ في أغلب الأحيان. وقد يهدم الشيخ بيته ويظعن دون أن يرغم غيره على ذلك، لكن ما إن يعرف العرب بنية الشيخ الارتحال حتى يسارعوا للانضمام إليه. وإن حصل وحطّ الشيخ خيامه في مكان لا يروق لباقي أفراد القبيلة، يبتعد هؤلاء عنه مسيرة نصف يوم ويتركونه مع بعض أقاربه.

ولا يتقاضى الشيخ أي مال سنوي من قبيلته أو مخيمه، بل على عكس ذلك هو مجبر على تدعيم مشيخته من طريق توزيع المال وإكرام الضيوف ومساعدة الفقير واقتسام ما يتلقاه من هدايا مع أصدقائه. أما سبيله إلى تحمل هذه النفقات فهو فرض الأتاوات على القرى السورية وجباية التعويضات من قوافل الحجيج المتوجهة إلى مكة. حين يتوفى الشيخ يسدّ أحد أبنائه مسدّه، أو أحد إخوانه أو قريب له. لكن هذه ليست قاعدة عامة، فإن تحلى أعرابي آخر بصفات الشيخ أكثر من أبناء الشيخ المتوفى، أمسى هو مكانه. وغالباً ما تنقسم القبيلة: قسمٌ يناصر عائلة الشيخ القديم وقسمٌ يفضل اختيار شيخ جديد، وكثيراً ما تنتزع المشيخة من أحد المشايخ الأحياء ليكلف بأعبائها رجلٌ كريم.

وتقتصر عملية انتخاب الشيخ على إعلانه قائداً على القبيلة. والمشايخ بين العنيزيين، هم الموالون لوالي دمشق ووالي بغداد، والمغانم التي يكسبونها جرّاء هذه العلاقات السياسية مع الولاة أكبر من أي غنيمة يحصلون عليها بفضل الغزو.

في حالات المقاضاة، لا سلطة للشيخ تخوله إصدار الأحكام. وأحياناً، يتوافق الأطراف كافةً على القبول بقرار أو يطلبون حكاماً وقضاة. وقاضي العرب نادر الوجود بين البدو. وفي قبيلة ولد علي ثلاثة قضاة وعند قبيلة الرولا قاض وعند البشر قاض، هؤلاء القضاة مميزون لنفاذ بصيرتهم وحبهم للعدل وتجربتهم في عادات القبائل وتقاليدها. لا يعرفون القراءة والكتابة ويعتمدون على الذاكرة كدليل في الحالات التي تعرض أمامهم. وهذا القاضي يُدعى قاضي (الفرق) أي قاضي التقاليد، وثمة قاضٍ آخر يدعى قاضي الشريعة أي قاضي القانون المكتوب كالموجودين في المدن التركية. وليس ثمة ما يميّز هؤلاء القضاة كملبسٍ أو أسلوب حياة، عن

أمثالهم البدو الرحّل، ويتوارث أبناء القاضي مركزه. كما أن انتخاب قاضٍ جديد يعتمد على آراء القضاة الآخرين في القبائل العربية الصديقة، كما يعتمد على آراء الناس في القبيلة نفسها. وفي هذا الانتخاب، لا دور للمشايخ. أما الأموال التي يتقاضاها القضاة جرّاء حلّ القضايا فهي كثيرة. فعلى سبيل المثال، إن كان موضوع الخلاف فرساً أو جواداً، يصل تقدير أتعاب القاضي إلى بقرة أو ناقة، وإن اختلف المختلفان على جملٍ تقاضى القاضي ليرة ذهبيّة واحدةً. أما إذا كان موضوع الخلاف مالاً كانت حصّة القاضي ربع هذا المال، يدفعها رابح القضية وحده وليس خاسرها.

وإن تعذر على القاضي التوصل إلى حكم مُرضٍ، أرسل المختلفين إلى قاضي آخر هو (المبصّه)، حيث تقام محاكمة مشابهة لمحاكمات أوروبا في القرون الوسطى. فإن تعذّر إثبات جرم المتهم، أمر القاضي بإشعال النار وإحماء ملعقة من الحديد، وطلب من المتهم أن يلعقها، فإن فعل بانت براءته، وإن لم يفعل، كان مداناً. وما أن يُدان إنسان بجريمة قتل وينكر فعلته، يفسح المجال أمام الاستئناف، ويأتي دور الشهود برغم عدم أهميّة شهادتهم. قد يرفض المتّهم حكم أحد القضاة فله أن يتقدم من قاضٍ آخر لكن الحكم لن يختلف. كما قد يرفض المتهم تنفيذ الأحكام إذ لا قوة شرطة لتنفيذ هذه الأحكام بالقوة. وحينها، يحين دور العلاقات العائلية لثنيه عن التعنت حقناً للدماء التي ستبقى تسيل بسبب الثأر الذي سيستمر.

العقاب الجسدي مجهول بين العرب، فأحكام المشايخ والقضاة تقتصر على الجزاء المادي بغض النظر عن الجريمة المقترفة. ولكل جنحة أو جريمة جزاؤها المعروف، وهذا ما يحدد من انتشار الجريمة في القبائل.

لكل الشتائم(*) والأفعال العنيفة والضرب والبصق والجرم ما يقابلها من الجزاء..

هذا مثال على حكم أحد القضاة:

بخيت شتم جولان وأسماه بالكلب. فبصق جولان على ساعد بخيت، فقام بخيت بجرح كتف جولان بالسكين.

بخيت مدين لجولان بخروفٍ بدل شتيمة، وجملين بدل جرح في الكتف.
وجولان مدين لبخيت بحمل واحد بدل بصقة
وهكذا، يكون جولان مديناً لبخيت بجملين وخروف واحد.

(*) الشتائم مثل: «مطرد على ضيفك» و«أنت عبد» و«أنت جعاري» و«أنت هيتمي» و«أنا عرفتك» و«أنت أبرص».

وبين الغرامات التي تدفع بسبب الجرائم غرامة غريبة تدعى حق الجعري، تدفع مقابل قتل كلب حراسة. يُحمل الكلب المقتول من ذيله حتى يلامس وجهه الأرض، ثم يُغرس رمح بطول الكلب في الأرض، وعلى قاتل الكلب أن يصب القمح حتى يتغطى الرمح، فيأخذ صاحب الكلب القمح تعويضاً عما خسره.

وإن أراد أعرابي شهوداً على أي اتفاق بينه وبين آخر، ينادي على كل الموجودين قائلاً: «اشهد يا فلان...» وهذه دعوة للإدلاء بالشهادة بما رأى وسمع عندما يُسأل. وعند رفع الدعوى القضائية، يسأل القاضي عن الشهود أكانوا حاضرين عند إبرام الاتفاق أو هم شاهدون عليه، لأن الحاضرين لا يشهدون بشهادة مقبول بها. الحاضرون يطلبون من القاضي الحضور إلى خيامهم لسؤالهم ما يريد من الأسئلة أما الشاهدون فالتقليد يقضي بمثولهم شخصياً أمام القاضي برغم كون خيمته على بعد أيام.

في حال أقعد المرض شاهداً عن الحضور إلى مضارب القاضي ينقل الشيخ أقواله بكل أمانة إلى هذا القاضي ويعلن نفسه شاهداً على شهادة هذا الشاهد. يُدعى الحاضرون أولاد الحلال أو أولاد الخير أو محضر الخير. في حال وجود شهود، يقدم القاضي حكمه فوراً وإلا يدعو المتهم أن يقسم أنه بريء مما يوجّه إليه. فإن أقسم بُرّىء. لا يُطلب القَسَمُ من المدّعي بل فقط من المدّعى عليه على أساس القول السائد «ما يصير يحلف وياكل».

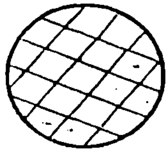
ثمة أنواع عديدة من القسم القضائي الذي يطلب من العرب، مثل أن يقف الأعرابي على باب الخيمة ويقسم:

وحياة هذا البيت وأصحاب البيت كذا وكذا.

والقسم الأكثر رسمية هو قسم العود. فلاختبار مصداقية رجلٍ ما، يستل طالب القسم قطعة من الخشب عن الأرض ويقول للآخر:

«خذ العود واحلف بالله وحياة من خضّره ويبّسه».

وقسم ثالث هو يمين الخط ولا يطلب القسم به إلا في المناسبات الهامة جداً. وهكذا، إن اتهم بدوي جاره بسرقة ما ويعجز عن إثبات السرقة بواسطة الشهود، يصطحب المدّعي المدّعى عليه أمام الشيخ أو القاضي ويدعوه للقسم مدافعاً عن نفسه وأن يقسم القسم الذي يفرضه عليه اختيارياً. فإن قبل المدّعى عليه، يصطحبه المدعي إلى جوار الخيمة ويرسم بواسطة السكين دائرة صغيرة فيها خطوط متقاطعة.



ثم يرغم المدعى عليه أن يضع قدمه اليمنى داخل الدائرة، كما يفعل هو، ويقول القسم الذي يضطر المتهم أن يردده: «والله وتالله وبالله إني ما أخذته وما هو عندي».

بعضهم يدخل الدائرة بقدميه الاثنتين، والكل يعرف أن استخدام هذا القسم كذباً يجلب العار على الأعرابي. ولجعل القسم أكثر قداسة، يضع المدعي شملةً ونملةً داخل الدائرة للدلالة على أن كذب القاسم سوف يمنعه من ركوب الجمل ومن الحصول على مؤن الشتاء كما النملة. هذا هو يمين الشملة والنملة.

ثمة عادة أخرى عند العرب تساهم في تهدئة الخواطر المتأجّجة داخل القبيلة. إنها عادة الوصاية. والوصي هو الحارس. فإن أراد أعرابي أن يؤمن السلام والطمأنينة لعائلته بعد موته، يعهد إلى أحد أصدقائه ليكون وصياً على أولاده. عليه أن يذهب إلى هذا الصديق راكباً ناقةً ويقف أمامه ليعقد طرف كوفيته ويقول: «أعلنك وصيّاً على أبنائي وأبناءك أوصياء على أبنائي، وأحفادك أوصياء على أحفادي». فإن قبل الصديق الناقة، يتم الأمر ويصبح وعائلته أوصياء على عائلة طالب الوصاية. وهكذا، (أ) أوصى (ب) على أولاده، أولاد (ب) أوصياء على أولاد (أ)؛ أحفاد (ب) أوصياء على أحفاد (أ). لكن أحفاد أولاد (أ) لن يطلبوا وصاية أولاد (ب). لكل أعرابي تقريباً وصي على عائلته، وهو وصي في الوقت نفسه على عائلة أخرى، حتى الشيخ في القبيلة يوصي آخر على عائلته وأولاده. عندما يضطر الوصي إلى الإيفاء بتعهده كوصي، تهب عائلته كلها لمساعدته والوقوف إلى جانبه. نظام الوصاية هذا مناسب جداً للقاصرين والنساء والعجائز، ومناسب لكل القبيلة لأنه يزرع السلام في ربوعها ويجنّبها الانقراض جراء الدم المسفوك في النزاعات والانشقاقات.

إن عملية عقد نهاية كوفية الوصي تحصل في حضور شاهد. وعلى الناقة (الحجّة) التي تقدم للوصي أن تكون قد بلغت سنتها الرابعة. أما الفقير، فقد يقبل الوصي العباءة بدلاً من الجمل.

قوانين الإرث عند البدو يحددها القرآن، فالأملاك تقسم بالتساوي بين الذكور. إن توفي الاعرابي وأطفاله قُصَّرٌ أخذهم أقرب أقربائه تحت رعايته ويسكنهم خيمته ويمسي وصياً على أملاكهم. ولأن القبيلة كلها تعرف عدد الماشية والجمال والجياد التي يملكها الميت، صعبٌ جداً أن يتعرّض أطفاله للخداع. ما تنتجه هذه الأملاك من حليب وزبدة وجلد ملك للورثة. وما إن

يصبح هؤلاء قادرين على الاهتمام بما يملكون، يستلمون الميراث ويتقاسمونه، وعادة ما يحصل ذلك إذ يصل عمر الأطفال فوق الثانية عشرة. أما إذا ورث الوريث دين والده المتوفى وطالبه به الدائن، فعليه دفعه من الماشية أو من المال الحر دون أي زيادة.

٤

حروب البدو غزوات النهب

القبائل العربية في حالةٍ من الحرب المستمرة في ما بينها، فنادراً ما تكون قبيلة ما في صلح وسلام مع كل القبائل التي تحيط بها. لكن الحروب القبلية لا تطول، فالسلام سهلٌ الوصول إليه، لكن المشكلة تكمن في صعوبة المحافظة عليه. والحروب العامة نادرة الحصول. فمراد الطرفين مباغتة العدو ونهب خيامه وممتلكاته، ولهذا تحصل الحروب دون إراقة الدماء. فعند الهجوم المباغت، تسلم القبيلة المدافعة عن مضاربها آملة أن ترد الضربة في حيّ ضعيف من أحياء القبيلة العدوّة. والعرب من أشد المقاتلين وأشجعهم، لكن عندما يكون النهب والسلب هدف الحرب يتحولون إلى جبناء جداً. أعرف حوادث حصلت بين قوافل المسافرين والبدو قدر خلالها هؤلاء المسافرون على ردع ما يقارب ثلاثة أضعاف عددهم من العرب، لكن حين يكون البدوي في مواجهة عدوه القومي في الميدان المفتوح، وعندما يكون شرف القبيلة في خطر، يظهر شجاعة وقوة يقل نظيرهما. ويُذاع في كل أرجاء الصحراء صيت بعض المقاتلين الصناديد. وذلك لأن سلاح البدوي يضطره إلى التلاحم من قرب مع أعدائه، ولأن أصالة جواده تضعه في حالةٍ أفضل من عدوّه. ولهذا، نسمع في سيرة عنترة كيف يستطيع هذا العبد عندما يمتطي صهوة فرسه الغبرا أن يقتل برمحه ثمانمائة محارب معادٍ. ثمة فارس ذائع الصيت مشهور بقواه وشجاعته القتالية، يرد اسمه في عددٍ كبيرٍ من قصائد الفخر ويدعى (جدوع بن غيّان الشمسي). فيقال إن هذا الفارس قتل ثلاثين من أعدائه في معركة واحدة، كما يفتخر بنفسه إذ ما اضطر يوماً إلى الفرار من وجه سيف مسلول. إلا أنه لم يستفد من شجاعته هذه فلقد بقي طوال عمره فقيراً. وفي عام ١٧٩٠، نشبت الحرب بين قبيلتي ابن فاصل وابن إسمير، فالتقى الشيخان، كل واحد منهما على رأس خمسة آلاف محارب بعد انضمام الحلفاء إليهما، وكان اللقاء قرب المزاريب، على الطريق إلى الحج، على مبعدة خمسين ميلاً من دمشق، في سهل حوران. وبدأت المناوشات بين الطرفين، لكن جدوع قرر التضحية بنفسه من أجل شرف

قبيلته. فتقدم من شيخه، ابن إسمير، وخلع عنه الدروع وقبّل لحيته معلناً الطاعة العمياء له. ثم غادر صفوف أصدقائه وتقدم سالاً سيفه غاضباً يسوق جمله نحو خطوط الأعداء. فتسمّر الجميع في أمكنتهم ليروا ما سيفعل هذا المقاتل الصنديد. ففتح جدوع بقوة ساعده طريقاً في وسط فرسان العدو ووصل إلى المركب الذي يرفع في الوسط. لكن ضربة سيف أوقعت الجمل الذي يمتطيه. فعاد إلى المكان الفاصل بين الجيشين ليموت هناك بنبلة أصابته آتية من متراس، ومن جندي مشاة. فلما رأى أصدقاؤه المركب ينهار شنوا الهجوم الصاعق. وفي ذلك النهار، قُتل ذبحاً ما يقارب الخمسمائة من المحاربين المشاة. إذ ما إن يسقط مركب إحدى القبائل في الحرب تكون هذه القبيلة خاسرةً.

لقد سبق وذكرت أن الطريقة المتعارف عليها في الاستراتيجيا الحربية تقتضي المباغتة. وللمحافظة على هذا العنصر المهم، تقوم بعض القبائل بالتحضر لغزو قبيلة على بعد مسيرة عشرة أو عشرين يوماً.

فالعنزيون يجردون الحملات على نواحي مكّة، أو بعض عرب الظفير من نواحي بغداد يهاجمون مضارب عنزة في دمشق، أو بنو صخر ينطلقون في جبل البلقاء للغزو في العراق. وكل فارس يتحضر للمشاركة في الحرب ينتقي رفيقاً له يسمّى زمّل(*) يواكبه ممتطياً جملاً قوياً. فيركب الفارس خلف الزمّل إذ يجب ألا تتعب الفرس قبل أن تدق ساعة الكسب.

حين يقترب الغزو من العدو، يحدد عقيد الغزو أو كبير الغزو (أي القائد) ثلاثة مواعيد حيث ينتظر الزمّل ذهاب الفرسان وعودتهم من الهجوم. الميعاد الأول على مبعدة نصف ساعة من مضارب العدو، في أحد الوديان أو خلف إحدى التلال. إن لم يعد الفرسان في الوقت المحدد، انتقل الزمّل إلى الميعاد الثاني وبقوا هناك طوال النهار في انتظار أصدقائهم. وبعد ذلك، وجب انتقالهم إلى الميعاد الثالث حيث يبقون ثلاثة أو أربعة أيام. هذا المكان يكون بعيداً جداً من المضارب التي هوجمت. وإن انقضى وقت الانتظار دون إياب أي من الفرسان، يسرع كل زمّل إلى مضارب القبيلة. إن كانت الغزوة ناجحة، يتلقى الزمل جملاً، أما في حال فشل الغزو، فلا ينال الزمل شيئاً. قد يحدث أحياناً مقتل كل الفرسان خلال الغزوة البعيدة.

ومتى ما يصل العدو من بعيد يغزو المضارب، لا يهتم بما في الخيام بل يكتفي بالجمال والجياد. أما حين يكون الغزو آتياً من قريب، فيأخذ الغزاة الخيام بما فيها. وأحياناً تنقذ إحدى النساء واحداً من جمال زوجها إن هي لحقت بالغزاة ونادت على قائدهم:

(*) الزمّل: رجلان يمتطيان جملاً واحداً يسميان مردوف. أما مجموعة الرجال الراكبين الجمال فيسمونهم الركب، أما مجموعة راكبي الخيل فهم الخيّالة.

«يا عقيد القوم أريد من الله ومنك الأكل نحن مقطوعين».

وهكذا، قد يجد عقيد الغزاة نفسه مجبراً على إطاعة طلب هذه المرأة وإعطائها ما تريد مقتطعاً من غنيمته.

وكل ما يصيبه العرب من الغنائم في الغزوات يوزع وفق اتفاقات سابقة. لكن غالباً ما يكون الاتفاق متمحوراً حول توزيع متساوٍ في الحصص. قد يكون الاتفاق ينصّ على أن كل فارس يمتلك كل ما يمسه رمحه، ولهذا يتسابق الفرسان إلى الجمال لتكون الحصص بقدر ما يكون الفارس سريعاً. ويطالب قائد الغزو بحصّة أكبر من حصص فرسانه كأن يأخذ كل الجمال لنفسه تاركاً النوق لتكون موضوع الاقتسام. أما حين يكون الغزو كبيراً والغنيمة قليلة، تصف القطعان والجمال المسبية أمام خيمة القائد، ويأمر كل واحد من رجاله ليتقدم ويأخذ حصّته حتى إذا ما بقي قليل لا يمكن اقتسامه، صاح القائد «مالحة»، هذا المصطلح الذي أعجز عن تفسيره هنا إذ لا يمكن أن يدل بأي شكل إلى الملح. وما إن يسمع الفرسان تلك الكلمة حتى ينقضون على ما بقي ويحاول كل منهم إصابة الحصة الكبرى لتكون له.

ولا يهاجم العنزيون أبداً خلال الليل إذ يعتبرون ذلك سرقةً أو غشاً، فقد يتوه الرجال المهاجمون ليلاً ويدخلون قواطع الحريم أي النساء مما قد يؤدي إلى استبسال فرسان القبيلة التي يقع عليها الاعتداء، فتحلّ المجزرة التي يجهد العرب لتجنبها دوماً. إلا أن عرب شمّر اعتادوا الهجوم خلال الليل على مضارب قريبة من مضاربهم. فهم يباغتون الخيام ويكسرون عواميدها. وبينما يكون سكان هذه الخيام يتناطحون ويحاولون الخلاص من ظهر الخيمة الذي انهار عليهم، يبتعد الغزاة بالقطعان. وهذا النوع من الهجوم يسمّى (البيات).

وبشكل عام، النساء محترمات خلال الغزو كما أن رجلاً أو امرأةً أو عبداً لا يتخذون أسرى. وحين يصل العون للقبيلة المعرضة للهجوم، تبدأ بتعقب الأعداء والهدف إعادة المسروقات إلى أصحابها.

القتلى قليلون خلال الغزوات إذ يلعب عنصر المفاجأة دوراً مهماً في استسلام القبيلة للمهاجمين كثيري العدد. كما أن المهاجم لا يقتل من لا يقاوم إلا إذا كان بينهما ثأر.

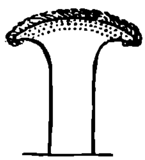
وأحياناً كثيرة لا تفاجأ إحدى القبائل بالهجوم إذ تصلها الأخبار من بعض أفراد القبيلة المهاجمة أو من قبيلةٍ قريبةٍ لا تسعد لرؤية هذه القبيلة مسبية ومسروقة. من يتقدم بهذه المعلومات التحذيرية يُدعى النذير.

وإن وجد أعرابي نفسه مطارداً من الأعداء وفرسه أشرفت على التعب، فلا يتردد في رمي نفسه عن ظهرها، أي يحوّل عنها، ويتوسّل الحماية. لكن هذا الفعل مشين إن كان دون سبب

وجيه، كما أن الأعداء سينشرون خبر تحويل هذا الفارس خلال المطاردة. ويحيا الفارس هذا لكنه يخسر فرسه وثيابه.

أحياناً، أثناء الحرب بين قبيلتين، يكون واحدٌ من القبيلة الأولى على علاقة عمل بواحدٍ من القبيلة الأخرى ما يتطلب اجتماعاً بينهما. فيدعو هذا الرجل إلى اجتماع في خيمة الشيخ يجتمع فيها كل أعيان القبيلة ويحمل رمحاً أو صقراً ويعلن أن هذه هدية لشيخ القبيلة المعادية. وما إن يصل إلى القبيلة الأخرى يقدم هديته، فيستطيع أن يبقى ما يشاء. وإن أوقف في طريق عودته وسلب، اضطر شيخ قبيلته للتفاوض مع القبيلة الأخرى لإعادة ما خسره.

القادة في عنزة يستخدمون أسرجة خاصة للحرب عليها مركب يعني سقوطها خسارة الحرب. المركب قطعة من الخشب بحسب الصورة أدناه.



توضع هذه المراكب على ظهر الجمل ويجلس بينها قائده بعد أن تغطى بالريش الأسود.

العلم الآخر الدال على الحرب هو العطفة الذي يستعمله الطيار شيخ قبيلة ولد علي.

لكل من ابن اسمير وابن فاضل مركبه الخاص. ودليل جمل المركب لا يكون حرّاً بل هو دوماً صبيٌ أو امرأة أو عبد، فمن العار أن يقوم البالغ الحر بالصراخ وإصدار أصوات (الغرايط) التي تعلن الحرب. يتحلق الفرسان حول المركب، ويكون كل هم المقاتلين من الجانبين الوصول إلى المركب المعادي وإسقاطه بغية الانتصار في المعركة، كما أن سقوط علم القبيلة يعني هزيمتها في الحرب.

يعقد الصلح عادة بين شيخي القبيلتين المتقاتلتين في خيمةِ شيخٍ ثالثٍ يكون من قبيلةٍ متصالحةٍ مع الطرفين المتخاصمين. السبب الأشيع للحرب هو النزاع حول الينابيع والمراعي، لكن عادةً يسوّى الأمر سريعاً إن رغب أحد الطرفين في السلام بدلاً من الحرب. وفي حالة حصول بعض الخلافات داخل العائلات مع الأوصياء، فيقوم الشيخ بتقريب وجهات النظر. وحين يرى الشيخ أن قبيلته مستاءة من صلح عَقَدَهُ مع القبيلة الأخرى، يرسل خطاباً يعلن لها تجدد الحرب، وهذا الخطاب يدعى (مردود النقا)، والنقا مرادف في اللهجة البدوية للحرب[1].

ولحقن الدماء التي تراق عادة بفعل عمليات الثأر يقوم الشيخ بالتوسط عند مستحقي الثأر

---

(١) يطلق على حالة نقض اتفاق السلم وإعادة الحرب عند أهل الإمارات والخليج لفظة (رَدْ البَرا). (المحقق).

كي يستعاض عن القتل بحق الدم، ويقال حينها: «الشيوخ اصطلحوا وحفروا ودفنوا». لكن هذا الصلح ليس ملزماً أبداً.

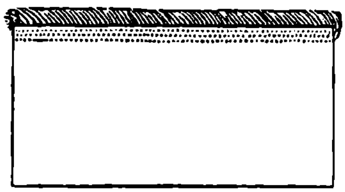
توقف العنزيون عن اعتبار الشهور المقدسةِ شهور توقف عن القتال، ولهذا يقومون اليوم بمهاجمة أعدائهم خلال شهر رمضان. لكنهم يتوقفون عن هذه الغزوات ثلاثة أيام في الشهر القمري هي اليوم السادس والسادس عشر والواحد والعشرون(*).

الثأر

أعتقد شخصياً أن هذا العرف ساعد على منع القبائل العربية من قتل بعضها بعضاً. فبدون الثأر تتحول حروبهم الصحراوية إلى مذابح كما تلك التي حدثت في مصر أيام المماليك. وبما أن أسباب الحرب لا تنقطع ما دامت الحياة البدوية مستمرة، لا شك في أن حالة الحرب المستمرة أيضاً ستقضي على أرفع القبائل منزلة وأقواها. لكن ثأر الدم يمنع الحروب من أن تكون دموية.

القانون السائد في البادية أن من يريق دم إنسان يدين بالدم لعائلة المقتول، والتي تهدر دمه. وهذا القانون مبارك في القرآن ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ (الإسراء، ٣٣).. لكن العرب لا يتقيدون بالكلام المنزل ولا يطلبون الدم من القاتل وحده بل من كل عائلته.

يمتد الثأر إلى الجيل الخامس (الثأر في الخمسة). أولاد وأحفاد القتيل يعلنون حقهم في الثأر كلما سنحت الفرصة بعد استئذان الأهل.



إن (أ) قتل (و)، يُقتل (ب) و(ج)، لكن (د) ليس داخلاً في الخمسة فلا يطاله الثأر. (و) و(ز) أعلنا حقهما في الثأر لكن (ح) لم يفعل. لا يضيع الثأر أبداً بل يستمر حتى ما لا نهاية.

إن بادرت عائلة المقتول إلى الثأر من اثنين من عائلة المطلوب دمه، يعود هذا إلى قتل رجلٍ

(*) كفى الله شر الست وست العشر وواحد العشرين بكفيك الكدي.

جديد. وإن قُتِلَ واحدٌ، يستكين الوضع وتهدأ النفوس.. لكن الخلاف يعود ليستعر ثانية بسبب الأحقاد المتأجّجة تحت الرماد.

وقبول حق الدم منوط بأقرباء المقتول، لكن عدم قبوله يعني أن يبادر القاتل وأقرباؤه ضمن الخمسة إلى اللجوء إلى إحدى القبائل حيث لا وصول لذراع الثأر. العادة المقدسة تسمح للهارب ثلاثة أيام وأربع ساعات لا يُلاحق خلالها أبداً. هذه الملاجىء الموجودة في مضارب كل قبيلة واللاجىء إليها يدعى الجلاوي.

نتيجة جريمة واحدة، قد تشرد مئة خيمة. ويبقى الجلاوي في ملجئه حتى يتوصل إخوانه وأقرباؤه إلى اتفاق مع عائلة المقتول لكي تقبل حق الدم. لكن هذه المفاوضات قد تطول لتبلغ سنوات عديدة، فلا يتم الاتفاق في حياة القاتل أو ولده، وهكذا تمضي عائلة الجلاوي السنوات متنقلة من قبيلة إلى أخرى. وللأخذ بالثأر، كلّ الوسائل متاحة إلا قتل القاتل وهو ضيف في خيمة ما، أو لاجىء في خيمة المقتول نفسه. وفي معظم الحالات، يقبل حق الدم، ويأتي دور تقدير هذا الحق. إن قتل عنزي عنزياً فالحقّ خمسون ناقة وذلول وفرسٌ وعبدٌ أسود ودرعٌ وبندقية. كل هذه تُدعى سلع. الخمسون جملاً في السلع تدعى ديّة. وإن قتل عنزي أعرابياً من قبيلةٍ أخرى، أو غريب قتل عنزياً، تقدر الديّة بحسب العرف السائد في القبيلة الأخرى. ففي قبائل (الموالي) و(السرديّة) و(الفحيلي)، ثمن الدم ألف قرش. لا يهتم العرب بنوعية الموارد والأشياء التي تؤلف الديّة ما دام الذلول (وهو جمل صالح للركوب) قوياً. والسلع ضروري حتى لو كانت الفرس من أصل مشكوك فيه والبندقية غير صالحة للاستخدام.

وإن أعلن أقرب أقرباء المقتول ـ وهو صاحب الدية ـ قبوله هذه الديّة، يقوم أصدقاء الدموي (القاتل) مع زوجاتهم بزيارة خيمة عدوّه ويتوسلون أن يخفض الديّة. إن كان هذا كريماً، يخفض عدد الجمال جملاً كرمى لفلان، وجملين كرمى لفلان. وأربعة وخمسة جمال كرمى لجمال عيون إحدى الفتيات، حتى يصل إلى عددٍ محدد لا يخفّضه أبداً. أما الفرس والعبد والبندقية فلا يتخلى عنها. وبعد ذلك، يصل الدموي نفسه أو أحد صحبه إلى خيمة عدوه ليسوق ناقةً ليذبحها وهكذا يمحو دمها دم المقتول وفوراً يؤكل لحم الناقة بعد أن تعتبر واحدة من نوق الديّة، ويعلن الجميع أن القاتل خلص من الدم.

وإن قتل إعرابي قريباً له، يطالب أقرب أقرباء المقتول بحق الدم من أفراد عائلته. وفي هذه الحالة، تجمع الدية، وتدفع فوراً. ويقال إن قُتِلَ عبدٌ يثأر له سيده وكأنه رجل حرّ، ويتقاضى الديّة بنفسه؛ لكنني لست متأكداً من ذلك.

حقّ دم المقتول خلال الحرب يَسأل من الذي يُعتقد أنه قتله. إن تم الصلح دون «حفر

ودفن»، يجب أن يثأر للدم المسفوح حتى لو ساد الشك في القاتل. وبسبب صعوبة تحديد القاتل يرفع الأمر إلى (المبشع) خصوصاً إن رفض المتهم التّهمة وأنكرها. وهناك يأتي دور الملعقة الحامية.

في حالة الحرب، يبقى الدم بين القبائل ويُقال مثلاً «بين الفضعان والموالي دم». لكن حين يبدأ رجال قبيلة قتل رجال قبيلة أخرى بغير طريق الناس، أي بذبحهم حين يقعون جرحى في ساحة الحرب. وفي هذه الحالة، يقول العرب «بيننا ذبح». وهكذا يرد الفريق المذبوح بذبح ضعف عدد قتلاه من بين رجال القبيلة الأخرى، وبالطريقة الوحشية نفسها. وكنت أسمع أنّ عرب الموالي متهمون عادة بتهم ذبح الأسرى، ولهذا يكثر طالبو الثأر والانتقام من هذه القبيلة. وهذا يحدث عداوة كبيرة بين القبائل: وسمعت أن الثأر كان يستمر حتى بعد انتهاء الحرب بسنوات.

السلب واللصوصية

حين لاحظت الغزوات التي تقوم بها القبائل العربية بعضها على بعض، وجدت لازماً أن أروي القليل عن حروبهم السرية واللصوصية التي يتعرض لها الصديق والعدو على حدٍ سواء. وربما كان يقال إن العرب أمة من اللصوص لا يشغل تفكيرهم سوى السرقة. لكن يجدر عدم ربط هذه الممارسة بمفاهيم الإجرام التي تلصق بقطاع الطرق واللصوص في أوروبا. فاللص العربي يفخر بمهنته ولذلك يفتخر الرجل عندما يدعوه الناس بالحرامي.

يسلب العربي أعداءه وأصدقاءه وجيرانه شرط ألا يكونوا داخل خيمته حيث سرقتهم عار. إن السرقة داخل المخيم أو بين القبائل الصديقة لا تحسب فخراً ولا يعاقب عليها أبداً ولا يمس السارق عار من ارتكابه عملاً كهذا والذي يعتبر في الواقع حدثاً يومياً. ولكن مدعاة الفخر هي سرقة الأعداء في عقر دارهم بالمكر والدهاء إن لم يكن بالقوة وقد خفف البدو كثيراً من السرقة على مختلف أنواعها وجعلوا لها نظاماً متكاملاً يقدم تفاصيل مهمة جداً. حين ينوي عربي القيام بغزوةٍ للسلب يصطحب معه دزينة من أصدقائه يتلثّمون ويحمل كل منهم كمية متواضعة من الطحين والملح وقربة جلدية مملؤة ماءً. ويقصدون مكان السرقة مشياً على أقدامهم ولو كان يبعد مسير ثمانية أيام مثلاً. فالحرامي يمشي ولا يركب. وحين يصلون مساءً قرب الهدف، يتقدم ثلاثة من الشجعان باتجاه الخيام في منتصف الليل حين تكون غالبية البدو نائمة وعلى الآخرين أن ينتظروا دورهم على مسافة بعيدة من المخيم. لكل واحد من هؤلاء الثلاثة عمله. واحد هو المستنبح الذي يتمركز خلف الخيمة المنوي نهبها ويعمل على لفت انتباه كلاب الحراسة، فتهاجمه فوراً، فيركض سريعاً أمامها لتلحق به وتبتعد عن الخيام التي أمست دون

حراسة. أما الثاني، وهو المدعو ضميناً، فيقترب من الجمال الجاثمة أمام الخيمة فيقطع الحبال التي تربط قوائمها، فتقف منتصبة وتمشي دون أن تصدر صوتاً. وتجدر الملاحظة أن الجمل الذي لا يحمل شيئاً ينهض دون إحداث أي صوت عندما يفك رباطه. يقود إحدى النوق خارج الحي فتلحق بها النوق الأخر. أما الثالث الذي يدعى القعيدة، فيجلس قرب قطب الخيمة ويسمى «اليد»، يحمل عصاً غليظة ليضرب بها رأس كل من يخرج من باب الخيمة، وذلك ليتسنى للحرامي الوقت لكي يفرّ. إذا نجحت السرقة، يقود الحرامي والقعيدة النوق المربوطة بذيول جمال قوية تجرها طوال الليل. وهذا يجعل الجمال تخب فتسحب وراءها الرجال إلى مسافة قصيرة، إلى حيث المستنبح الذي كان في هذه الأثناء تخلص من الكلاب التي في أثره. يحصل أن يصل عدد الجمال المسروقة إلى خمسين جملاً بهذه الطريقة. يعود اللصوص إلى بيوتهم على الأقدام ليلاً فيتقاسمون الغلال، لكن قائد الغزوة والأشخاص الرئيسيين كالمستنبح والحرامي والقعيدة، يحصلون على حصص إضافية.

يتغير الوضع تماماً إن فشلت عملية السرقة. فإذا رأى أحد جيران المسلوب الحرامي والعقيدة، يتسلل خارج خيمته ويوقظ أصدقاءه فيحاصرون اللصوص. أول من يمسك لصاً يجعل منه سجيناً أو ربيطاً... وقوانين البدو في ما يتعلق بالربيط غريبة جداً. وتدلل على أثر خلفته التقاليد على مر السنين علماً أن لا علاقة لها بالوعي ويمكن أن تمارس على ذوي الصفات الشرسة وضمن أوسع معاني الحرية.

يسأل الرباط (الرجل الذي أمسك بالربيط) سجينه عما أتى يفعله في تلك الديار، ويترافق السؤال بشكل عام مع بعض الضربات على الرأس. فيجيب الربيط الجواب التقليدي: «جئت أسرق. فالرب رماني». وبعد ذلك، يقاد الربيط إلى الخيمة حيث يصبح اعتقال الحرامي فرحة وابتهاجاً. يقف بعضهم أو الربّاط نفسه ويقول للحرامي: «إنفي».. ومخافة أن يتعرض للمزيد من الضرب والإهانة، يصيح الربيط، «بنفي». ولهذا الأمر علاقة بعرف الدخيل الذي سأشرحه الآن. يقول القانون عند العرب إن إنساناً واقعاً في الخطر ولمس عربياً ثالثاً كائناً من يكون ولو كان أخ المعتدي نفسه أو إذا لمس شيئاً يحمله الآخر في يده أو وقف على مرمى حجر منه وصاح «أنا دخيلك» أو «تراني بالله وبك أنا دخيلك»، ويصبح على الرجل الآخر واجب حماية المستجير والدفاع عنه ويطلب العفو وتتاح له الفرصة مرة ثانية ولا يعود معرضاً لأي خطر. ولهذا عند الدخول إلى الخيمة حيث وضع الحرامي، يصيح الداخل «إنفي» ولا يدخل حتى يرد الآخر «بنفي»، فهذا النفي يمنع الحرامي من طلب الحماية من دخيل. هذا النفي صالحٌ ليوم واحد. وإذا كان نفس الأشخاص سيدخلون في اليوم التالي إلى الخيمة فعلى الحرامي أن يكرر نفيه. ومثل هذا النفي يتكرر كلما دخل أي شخص الخيمة.

ولمنع الحرامي من الهرب أو طلب الحماية من أحد المارين، تحفَرُ حفرة في أرض الخيمة بعمق مترين بقياس الحرامي ويوضع فيها، ويغطى وجهه باستثناء فتحة صغيرة ليتنفس. وتقيّد قدماه وتوثق يداه.

أما في حال انتقال المخيم، فيغطى كل رأس الحرامي بكيس ولا يفك وثاق القدمين واليدين. وما إن يستقر البدو مجدداً، تحفر حفرة مشابهة لتكون سجنه.

ورغم دفنه حياً فإن السجين لا يفقد كل الأمل بالهرب. وهذا كل ما يشغل باله.

في هذه الأثناء، يكون الرباط داخلاً في مفاوضات يرمي منها الحصول على فدية كبيرة جداً. إن كان الحرامي من عائلة غنية، يخفي حقيقة هويته ويدعي الفقر. وما إن تنفضح هويته، وهذا ما يحصل دوماً، يضطر أن يدفع الفدية وتكون كل ما يملك من جمال وخيول وخيمة وقطعان ومؤن ومتاع. يطول حبسه أحياناً طوال ستة أشهر بسبب كذبه وإخفائه هويته الحقيقية. وبعد سجنه يسمح له بشراء حريته وفق شروط مقيديه أو أن الحظ قد يمكنه من الهرب وتقول القوانين البدوية إنه إن استطاع من «قبره» أن يصق في وجه رجل أو طفل اكتسب حامياً له.. أو جرى وقدم له طفل قطعةً من الخبز، يدعي الحرامي حينها تناول الطعام مع محرّره. وبرغم إمكانية أن يكون هذا الإنسان قريباً للرباط، يتحرر الحرامي ويخرج من الحفرة. فتفك قيوده. ينجح الحرامي أحياناً، في فك القيود وهكذا يفر ليلاً في غياب الرباط ويلتجيء إلى إحدى الخيام القريبة طالباً الحماية وقائلاً إنه دخيل لأول رجل يلتقيه. لكن ذلك نادر الحصول لضعف الحرامي إذ يتلقى القليل من الطعام فيمنعه ضعفه من بذل الجهود اللازمة للهرب.. أو، يتحرر السجين بالقوة أو الحنكة كما يلي:

تتزيا والدة الحرامي أو أخته بزي الفقراء وتقترب من خيام قبيلة الرباط طالبة الستر والطعام. وبعد أن تعرف أي واحدة هي خيمة الرباط حيث السجين، تتسلل إليها ليلاً حاملةً كرة من الصوف الملفوف، وتقزم برأس الخيط حتى يصل فم السجين، وتمدّ الخيط حتى الخيمة القريبة فتدخلها وتوقظ صاحبها واضعةً الكرة الصوفيّة على صدره قائلةً: «تراني بالله وبك هذا دخيلك». وما إن يفهم الأعرابي ما يحصل ينتصب ويمسك بالكرة يلف عليها خيط الصوف حتى يصل خيمة الرباط فيوقظه ليريه الخيط الذي ما يزال في فم الحرامي، ويعلنه دخيلاً.. حينئذٍ يحرر الرباط ربيطه ويكرمه كأنه ضيف حلّ تواً، ثم يتعهد بترحيله بأمان.

ليست هذه رواية رومانسية خيالية، بل هي قصة واقعية رواها لي الكثيرون ممن أثق بكلامهم بدون نقاش.

يتحرر الربيط أحياناً بطريقة أخرى: ينتظر صاحبه حتى يحين موعد ارتحال قبيلة الربّاط.

عندئذٍ يُربط الرّبيط بأحد الجمال ليتسنّى للربّاط هدّ البيت وتحميله. فينتهز صاحب الحرامي فرصةً لإبعاد ذلك الجمل إلى عربٍ آخرين يدخلون عليهم ويطلبون الحماية.

في حال تعذر كل إمكانيات الهرب، يصبح واجباً على الحرامي تنفيذ بعض بنود الفدية التي يحددها آسره. عادةً ما يكون ثمة أفراد من قبيلة الأسير بين أفراد قبيلة الآسر يأخذون على عاتقهم إيصال المال إلى طالبه، فيصطحبون الربيط إلى حيّه ويعودون بالمال أو الجمال المطلوبة ليسلموها بكل أمانة للرباط. أما إذا ما استطاع الحرامي جمع المال المطلوب، فعليه إذاً العودة مجدداً إلى خيمة الرباط ليعود أسيراً من جديد. قليلةٌ هي حالات عدم الدفع وعدم العودة. يتطوع الصديق الذي كفل الحرامي بدفع المتوجب ويعلن عقاباً شديداً على صديقه الخائن، أو كما يدعونه بيوق، ويشهّر فيه بين القبائل. عندئذٍ يفقد هذا الخائن حقه في الحماية ويستحيل عليه أن يكون دخيلاً على أي خيمة في الجوار. لكن هذا التشهير يتوقف حالماً يعيد الخائن المسروقات إلى أصحابها. يتم هذا الأمر إرادياً إذ لا سلطة للشيخ أو لكل أفراد العائلة تمكنه من إجباره على إعادة المسروقات. البوق غير مهم في قبيلة السارق برغم أن الخائن ينظر إليه نظرة مختلفة حتى بين أفراد عائلته.

حين يقرر رب العائلة (أو أحد أبنائها) المشاركة في السرقة، لا يخبر أصدقاءه بالأمر لكنه يأمر زوجته أو إحدى بناته بتحضير الطحين والملح في كيس صغير. وإن سأله أحد عن وجهة سفره يجيب بجواب البدو التقليدي «على باب الله».

يضحي والد وقع ابنه ربيطاً بكل ما يملك بغية دفع الفدية إذ فخر له أن يكون ابنه حرامي، ويأمل أن يرد له ابنه ما دفعه من مغانم الغزوات المقبلة.

في بعض الأحيان، تعاد إلى الربيط حريته دون مقابل أو فدية، أو مقابل فدية صغيرة، وذلك حين تكون حياة الربيط مهددة جراء السجن. فموت الربيط في أسره يستدعي ثأر أهله من الرباط وعائلته. ويأنف العربي العاقل والكريم أخذ عدوه في كمين بالطريقة التي ذكرناها أعلاه. ولكن الأدلة على ذلك ليست كثيرة.

لا يقترب أعرابي من خيام عدوه على قدميه أو وحيداً إلا في نية السرقة. أما العرب الذين ينوون الهجوم المفتوح فيصلون على صهوات الجياد والجمال. إن فشلت محاولتهم عاملهم أعداؤهم كأعداء حرب لا لصوص، أي يتعرضون للتعرية والسلب لا الأسر. من جهة أخرى، حين يلتقي أعرابي عدواً ماشياً على قدميه دون سلاح يدرك أنه حرامي فيقدر حينها أن يجعله ربيطه بشرط إمكانية أن يعود به إلى المضارب قبل الغروب أو أن يصل خيام أصدقاء. فالمفترض حينها أن هذا كان ينوي السرقة. أما إذا التقاه على مبعدة مسيرة يومٍ كاملٍ أو أكثر فلا حق له

في اتخاذه ربيطاً أبداً بل عليه مواجهته كعدو فقط.. ويجدر الذكر أن النساء لا يُتخذن كربيط أبداً.

عند القبض على رجلٍ يحاول إنقاذ قريب له ربيطٍ يصبح هو نفسه ربيطاً، هذا إن كان وصل لتوه من الصحراء. أما إذا كان حلّ ضيفاً على أي خيمةٍ في الحي أو شرب ماءً من خيمة بعد أن رمى السلام (السلام عليك!)، يكون حينها في حمى صاحب الخيمة تلك لا يمسّ أبداً.

أما إذا وقع اللصوص، بما سرقوه، في قبضة فرسان القبيلة المسروقة، تستعاد الجمال المسروقة لكن تصبح ملكاً لمسترجعها ولا تعود لمالكها الأصلي.. ومن يمسك بالحرامي يعلنه ربيطاً.

إن داهم الصبح اللصوص ووقعوا في خطر انكشاف أمرهم، أو أحسوا أن منهم من لن يفرّ بمسروقاته، تركوا كل ما وصلت إليه أيديهم ودخلوا أي خيمةٍ من خيام الحي ليوقظوا من فيها ويعلنوا له، (نحن حرامي ونريد نتحول)، فيأتي الجواب (سلمتوا). وفوراً، تشعل النار وتحضر القهوة العربية وبعدها الفطور، والغداء والعشاء، طوال مدّة إقامة الضيوف. وحين رحيلهم، يزودهم صاحب الخيمة هذه بالمؤن الكافية حتى وصولهم إلى مضاربهم. وفي حال التقوا في الطريق بأفراد من القبيلة التي كانوا نووا سرقتها قالوا لهم (نحن مالحين) أي أكلنا الملح في خيمة فلان وفلان، وهذا الإعلان هو بطاقة الأمانة في رحلتهم. كما أن شهادة صاحب الخيمة التي لجأوا إليها تنقذهم من سيوف رجال القبيلة والقبائل المناصرة والصديقة. أما إذا زينت لهم أنفسهم وهم في طريق الرحيل عن القبيلة التي وجدوا فيها ملجأً أن يسرقوا عرب هذه القبيلة فيخسرون الحماية وحق الدخيل، فيرفع المسروق الأمر إلى مضيفهم الذي يرسل تواً مرسالاً إلى شيخ قبيلتهم ينبئه بما حدث ويطالبه بالمسروقات. فإن أعاد الحرامي ما غنمه انتهى الأمر، وإن رفضوا قابلهم مضيفهم حاملاً الطبق النحاسي الذي فيه أكلوا حين استضافهم. وما إن يصل إلى خيمة شيخهم، يقول لهم: «هذا الطبق الذي فيه أكلتم. فأعيدوا القطيع المسروق إذاً». فإن قبلوا، انتهى الأمر، أما إذا أصروا على الرفض، يستعيد الأعرابي الطبق، أو المقرّه، ويعلن بأعلى صوت: «أنتم مبوّقون.. وستعرفون في كل مكان كمبوّقين».

حين يتم الصلح بين القبيلتين ويقوم الشيخان بحفر ودفن كل الخلافات لكن مسألة البوق لا تنتهي حتى تعاد المسروقات إلى أصحابها بشكل كامل.

مسألة الدخيل اختيارية لكن قلما ترفض. فالعرب يقولون إن الدخيل أو الرجل طالب الحماية، يفاجئهم فلا يتسنى لهم رفض طلبه. وفي بعض الأحيان يجزأ حق الدخيل.. ففي الحرب، حين يجد العربي نفسه ضعيفاً أمام من يطارده، يدخل على أعرابي آخر يطلب الحماية فيجيبه هذا: «أحمي حياتك لكن لا أحمي حصانك أو ممتلكاتك»؛ فهذه يستولي عليها المطارِدُ.

قد تستقبل النساء والعبيد وحتى الغرباء دخيلاً، فتحوله المرأة فوراً إلى أبيها أو أخيها أو زوجها، ويحوّله العبد إلى سيّده والغريب إلى مضيفه. لاحظت في ظروف عديدة أن الربيط يعلن نفسه دخيلاً على رجلٍ ما بمجرد لمسه. لكن المؤكد أن أحداً لا يستطيع تحرير الأسير الربيط بمجرد لمسه طواعيةً. هذا بندٌ وفاقي في القانون إذ يكون للرباط عادةً أعداء من قبيلته يسعون إلى حرمانه من الفدية، ولهذا على الرباط الحذر ومنع لقاء ربيطه بأي كانٍ ومنع دخول الغرباء إلى خيمته. فإن انشغل، عليه أن يوكل من يثق فيه لحراسة الحرامي الأسير وأن يقدم له ناقةً بدل عنائه.

إن آذى رجلٌ آخر رجلاً دخيلاً (وهذا نادر الحدوث)، فلن تكفي كل ممتلكاته كغرامةٍ على هذه الإهانة التي هي أكبر من أي أذى يصيب الحامي نفسه. فعندما يود الأعرابي أن يعلن أن دخيلاً عليه تأذى يقول: «كُسِرَ عرضي» أو «قُطِعَت أرضي».

لا يكتفي الأعرابي بسلب أعدائه بل ثمة حوادث كثيرة حصلت خلالها سرقة أعرابي لمتاع وقطعان أعرابي من قبيلته، أو من قبيلة صديقة. إن العقوبة التقليدية لهذه السرقة هي قطع اليد اليمنى، لكن هذه العقوبة نادرة التنفيذ ويستعاض عنها بثمن خمس نوق تدفع للذي تعرض للسرقة. من يسرق فرداً من أفراد قبيلته لا يُجعل ربيطاً بل يدعى نتّالاً لا نشالاً كما يسمى في سوريا.

كرم العرب وضيافتهم

بعد كل ما رويت أجد ضرورياً القول إن الضيف عند عنيزة إنسانٌ مقدسٌ حياتُهُ مصانة. ولا يذكر البدو أن انتقاصاً من كرامة ضيف قد حصلت. فمن يصبح صديقاً لفردٍ من القبيلة يمسي صديق القبيلة وضيفها كلها. إن رجلاً بدوياً لا يتذكر أبداً حصول خيانةِ ضيافةِ ضيفٍ ما، ولهذا يمكن فعلاً تأمين العنيزي على الحياة وعلى الممتلكات دون خوف. ومن عادى الضيف عادى عنيزة كلها. المراسيل بين حلب وبغداد والبصرة عنيزيون كلهم، ورجال عنيزة هم من يواكب الانكليز الآتين من الهند عبر الصحراء. قد تقع حوادث سطو وسلب يتعرض لها هؤلاء، لكنني أؤكد كما يؤكد غيري من الرحالة أن رجال عنيزة يفعلون أكثر مما في وسعهم للمحافظة على حياة من يدخلون في حماهم. وهنا أورد حقيقة توصلت إليها من خلال تجاربي الخاصة. في حزيران عام ١٨١٠، رحلت عن حلب برفقة شيخ من قبيلة الفضحان. وقرب حماه، تعرض للسلب من قبل عرب الموالي المعادين لعنزة. بعد أن استعاد ماله وجماله بواسطة متسلّم حماه، أكمل الشيخ رحلته، لكنّه خاف من تقدم الوهابيين نحو دمشق حيث تسكن عائلته فرفض مرافقتي بعد تدمر لكنه عيّن لي مرشداً حارساً يقودني بين آثار تدمر واستمر في

طريقه جنوباً. ظننت أنه خانني لكني أدركت أن هذا الحارس حارس بكل معنى الكلمة. استقبلني كل من التقيناهم من العرب بترحاب رائع وعدت برفقته عبر الصحراء إلى جرود، على بعد مسيرة ١٢ ساعة من دمشق.

يتعرض الضيف، أحياناً كما مضيفه للسرقة وهو في خيمة العربي المضيف؛ وبالتأكيد لا يسرقه أهل الخيمة بل الحراميّة أو النتال. ولهذا، يتخذ المضيف كل تدابير حماية فرس الغريب أو جمله كي يبقى سجله نظيفاً. وإن كان هذا المضيف غنياً وكريماً وحصلت السرقة، يعوض على الغريب كل ما خسره أثناء مكوثه في ضيافته وحماه.

يتوقف الغرباء الذين لا يعرفون أحداً في الحي أمام أول خيمةٍ يصادفونها، أكان صاحبها موجوداً أو غائباً. فالزوجة أو الابنة تبادر تواً إلى مد البساط وتحضير الفطور أو العشاء. إن أراد الضيف المكوث يوماً إضافياً أو أراد أن يعبر الصحراء في حماية القبيلة، يسأله مضيفه بعد ثلاثة أيام وأربع ساعات من لحظة وصوله، إن كان سيشرفه بحضوره أكثر. فإن أراد الضيف تمديد إقامته يفترض به مساعدة مضيفه في أعماله اليومية كإحضار الماء وحلب النوق وإطعام الجياد. قد يرفض هذا الضيف ذلك وعليه إذاً أن يذهب إلى خيمة أخرى هي النزل ويعلن هناك أنه ضيف إذ أن عرب هذه القبيلة يرفضون استقباله بعد رفضه مساعدة مضيفه. وهكذا يغيّر مضيفه كل ٣ أيام حتى ينهي الأمر الذي حضر لأجله. إحدى قبائل نجد ترحب بضيفها من طريق سكب كوب من الزبدة فوق رأسه. أما في قبيلة مرقدة، على حدود اليمن، فعلى الضيف أن يمضي ليلته الأولى مع زوجة مضيفه أياً كان شكلها أو عمرها أو حالها. فإن راق للسيدة رحب به المضيف وأكرمه واستضافه وإلا، يُمزق طرف عباه ويُبعد عن المضارب والعار مخيّمٌ عليه. حين اعتنقت مرقدة الوهابية، اضطرت لوقف العمل بهذا التقليد. لكن عندما حلّ الجفاف لاحقاً، قال أهل مرقدة إن هذا عقاباً لهم لتخليهم عن عادات الأجداد، وأرسلوا إلى القائد الوهابي عبد العزيز يطلبون العودة إلى ما اعتادوه فأجاز لهم ذلك. إن أردت إهانة الأعرابي اتهمه بسوء ضيافته (أنت باشع على ضيفك).

عبيد وخدم

يشيع استخدام العبيد الزنوج بين العرب، فكل شيخ يتخذ له خمسة أو ستّة عبيد من الذكور وبعض الإناث، يأتون من بغداد أو قلة أو القاهرة. يترفع العنيزيون عن السكنى في بيت يبيت فيه إناث عبيد، لكنهم يهبونهن الحرية بعد سنوات ويزوجونهن من عبيدهم. يتم إعتاق العبيد الذكور في حضور الشهود، وعلامة على انعتاقهم يُسمح لهم بحلق رؤوسهم. كان لابن إسمير ما يفوق الخمسين خيمة يسكن فيها عبيدٌ سابقون يدينون بحريتهم وأملاكهم لتحرر هذا الشيخ

وسعة صدره وكبر عقله. فهو لم يعد قادراً على تقاضي الضريبة السنوية منهم إذ أمسوا عرباً أحراراً، لكنه يطلب بناتهم ليزوجهن من عبيده الجدد أو المتحررين حديثاً. وإن حصّل هؤلاء العبيد غنيمة أثناء الحرب، يسألهم الشيخ أن يهبوه جملاً قوياً فلا يترددون في تلبية طلبه. برغم انعتاق هؤلاء العبيد، يبقون في مستوى الخدم إذ يستحيل عليهم الزواج من بيضاء، ويستحيل على عربي الزواج من سوداء. يتصاهر العبيد فيما بينهم، ويصاهرون الصناع المستقرين بين ربوع القبيلة. يفقد الزنوج سماتهم وخصوصاً في الشعر لكن تبقى قسماتهم دالة على أصولهم. يمكن القول دون تردد إن في بادية الشام قوافل من الزنوج ترتحل موسمياً من مكان إلى آخر.

يوظف الأغنياء خدماً من العرب، ويعاملون العبيد جيداً ولا يضربونهم إلا فيما ندر خوف أن يؤدي هذا إلى هربهم.

لكل خيمة أو خيمتين راعٍ يهتم بالقطيع ويتقاضى أجراً طوال ١٠ أشهر. خلال أول شهرين في الربيع، يتغذى القطيع من العشب النابت حول المضارب ولا يحتاج لمن يرعاه. يتألف الأجر من جملٍ فتي (هوار) يبقى مع والدته عاماً كاملاً، و«خمسة» هي زربول (حذاء) وثوب وكوفية (أو منديل) وعباءة وجلد ماعز، أي ما يساوي ٢٥ شلناً.

٥

شخصية البدوي

لا بد أن القارىء قد استشف مما مرّ في هذه الصفحات، تضارباً وتضادّاً في شخصية البدوي، صعب التفسير والتبرير. إن أردت الكلام على العرب عامةً، ينبغي التمييز بين البدو والفلاحين والأتراك (العثمانيين) الذين يمسكون بزمام السلطة. أسلط الضوء الآن على البدو لكن هذا التميز الذي ألفت إليه النظر واجب عند وصف الطباع السورية.

يميّز الشرقيَّ حبّه للربح والمال، وهذه الميزة مشتركة بين الباشا والبدو الرحّل. وقلّة هم الذين يسعون إلى الثروة والجاه من طريق الوسائل الشرعية. وهكذا، فإن شغل البدوي الشاغل هو الربح بأي طريقة. فالكذب والغش والخداع وغير ذلك من الصفات السلبية منتشرةٌ في الصحراء كما في القرى والبلدات السورية.. وفي سوق البيع والشراء حيث لا ضرورة لدخيل، لا تزيد مصداقية كلمة البدوي على مصداقية السمسار في أحد بازارات حلب. يستعرض العربي صفاته الرجولية حين يدافع عن ضيف استضافه ويفديه بروحه، لكنه برغم ذلك ينساق وراء المال ليصبح عبده. بالإضافة إلى ذلك، يتميز العربي عن التركي بفضيلتي الرحمة والعرفان، اللتين يعترف بهما التركي. فهذا التركي جلف بخلاف العربي الألطف والأرحم والذي لا ينسى أبداً كرماً رآه ولو في عدو. البدوي غير معتاد الأفعال الدمويّة التي تقسي وتفسد قلب العثماني، فيتعلم في مرحلة مبكرة من حياته كيفية الصمود وتحمّل الآلام ومعرفة قدرة التعزية والرحمة.

العربي حرّ وفَكِهٌ ورصين في حديثه أما التركي فحذر متكلف نادر الضحك وميال إلى التلميحات المشينة. ليس العربي بذلك السكوت كما يحاول الرحالة وصفه بل أجده رفيقاً رائعاً مسلياً إلا عند السفر في الصحراء نهاراً إذ أدرك البدو أن الكلام الكثير حينها يجفّف الحلق. لكن ما إن يجتمع العرب في الخيام يدور حديث شيق بينهم دون توقف. أقول إن البدوي في

البلدة مختلف عنه في الصحراء، فهو يعرف أن أهل الحضر الذين يكرههم يشوهون سمعة قومه ولهذا يفضل السكوت الذي يظهر حزمه، أو يستخدم جملاً وتعابير تدلّ على ثبات آرائه. وفي طريق عودته إلى الصحراء يضع جانباً هذا السلوك الذي يساعده على المضي قدماً في تجارته.

والحديث مع البدوي أصيل وطريف أكثر من الحديث مع سكان القرى الذين، ففي حين يسهب الأتراك في تفصيل حادثة يُجملها البدوي في كلمات قليلة. أحياناً يضطر البدوي للمجاملة في البلدات فيقول كلاماً لم أسمعه من بدوي في الصحراء أبداً.

في العرب الرحل ذكاء وحكمة أكثر مما في الناس القاطنين في البلدات، فأذهانهم متوقدة دوماً وأرواحهم لم يدنسها دنس وعقولهم لم تفسدها العبودية. ويمكنني القول بكل ثقة إن ثمة أمماً قليلة تضم المواهب الموجودة في البدو ويتمتع هؤلاء بتواضع يقل مثيله. إن وجد الأعرابي ما يكفيه من طعام غضّ نظره عن جودته أو عن ترف المائدة الذي نهتم إليه في الغرب. بالنسبة إلى النساء، فهو مكتفٍ؛ شائعات الخيانة الزوجية قليلة جداً، كما أن الدعارة المفضوحة مجهولة تماماً في مضارب العرب. يغار البدوي على زوجته لكنه لا يمنعها من الضحك والتحادث مع الغرباء. قليلة جداً حالات ضرب البدوي لزوجته. وإن فعل تنادي على وصيّها فيرد الزوج إلى صوابه.

الأعرابي في بيته كسول ومتراخٍ، يقتصر عمله على إطعام الجواد وحلب النوق في المساء، ونادراً ما يخرج للصيد بواسطة الصقر. فثمة أجير يتولى أمر القطعان، بينما تقوم الزوجة والبنات بكل الأعمال المنزلية. فهن يطحن القمح ويحضرن الفطور والعشاء، ويعجنّ ويخبزن الخبز ويصنعن الزبدة ويحضرن الماء من النبع ويعتنين بالخيمة. في هذه الأثناء يجلس الرجال أمام الخيمة يدخنون أو يتداولون أمر غريب وصل الحي ويتحضرون للذهاب إلى حيث نزل هذا الغريب إذ يجدون هناك طعاماً وقهوةً.

يُحيّي العربي الغريب بقوله «السلام عليكم!»، ويوجهون هذه التحية أيضاً للنصارى. وإن كان الغريب صديقاً قديماً قبلوه وعانقوه، وإن كان رجلاً مرموق الجانب قبلوا لحيته. ومتى يجلس هذا الغريب على السجّادة التي يمدها له المضيف، وجب عليه أن يسأل كلاً من الحاضرين عن حاله، والعبارة المستخدمة في هذه الحالة هي «عساك طيب؟!» ثم يبدأ الحديث: يسألون الغريب عن أحوال قبيلته وجيرانه، ثم يخوض الجميع في أحوال سياسة الصحراء. حركة العرب المستمرة تساهم في انتشار الأخبار في كل أرجاء الصحراء، ومدهش مدى دقة المعلومات التي تصل العنيزيين عن أحوال الحجاز ودعاية والعراق، في بلاد لا وجود لبريد مكتوب فيها. خلال إقامتي في حوران، علمت من قائد درزي أن بعض العنيزيين قبل شهور

عديدة أتوا بمعلومات مفادها أن فرنجاً هم الانكليز أنزلوا قواتهم على الشواطىء العربية للخليج الفارسي واحتلوا رأس الخيمة وقتلوا الكثير من العرب بينهم أحد أقرباء ابن سعود. في البداية، رفض أهل حوران تصديق هذه المعلومات إذ قالوا، «نعرف أن الانكليز حطوا الرحال في أكرا في الغرب فكيف لهم أن يصلوا سريعاً إلى الشرق؟» وعندما شرحت لهم الأمر بدلوا من رأيهم وأشاروا إلى أن «لا بدّ من صدق هذه الرواية إذ أن العنيزيين لا ينشرون أخباراً دون أساس صحيح في الصحراء».

أختلف مع دارڤيو حول سلوك العربي وأقول إن البدو ليسوا قساة متزمتين كما يصفهم، لكنه مصيب عن رهبتهم إذ أن رجلاً أهين أمام جماعة لا يحق له بعد ذلك إبداء الشهادة أمام القاضي.

في أمورهم الخاصة، يغشُّ البدويُّ البدويَّ ما وسعه ذلك، كما أن الربا تمارس لكن سراً.

في الربيع، عند وصول القبائل البدوية إلى تخوم سوريا، يحضر عشرون تقريباً من الباعة المتجولين من دمشق، يحملون معهم ما يناسب البدو من الأثواب والبارود والرصاص والحديد ونضوات الجياد والسيوف والقهوة والتبغ والحلويات والتوابل وغير ذلك. كل واحد من هؤلاء الباعة يدفع أتاوة سنوية لشيخ القبيلة التي يأتي إليها فيحصل فيها على الحماية ويعامل كالعربي الحرّ. لا تزيد هذه التجارة بكاملها على خمسة أو ستة آلاف جنيه استرليني لكل بائع خيمته وجمله، وعندما يزور باعة متعدّدون القبيلة نفسها، ينصبون خيامهم الواحدة بجانب الأخرى فتشكّل هكذا سوقاً. يلحق الباعة الحي حيث انتقل ولهذا يتعرضون لكل أنواع الخطر كما العرب تماماً، كما يتعرضون للسرقة برغم أن اللصوص لا يأخذون سوى الجمل إذ تكون البضائع داخل الخيمة. أعرف واحداً من هؤلاء الباعة خسر كل ما كان يملكه أربع مرّات متتالية، واستطاع استعادة ماله مرّة إذ عرف من سرقه وكان من قبيلة الشيخ الذي دفع له المال مقابل الحماية، وهكذا اضطر الحرامي إلى إعادة المسروقات. يسمح الباعة بتأجيل دفع المبالغ المتوجبة سنة كاملة، وفي السنة التالية يتقاضون الزبدة والماعز والخراف ويبيعونها في دمشق في الشتاء(*). حين ينوي رحالة أوروبي عبور الصحراء من دمشق إلى الخليج الفارسي، فالطريقة الفضلى هي طلب المساعدة من هؤلاء الباعة المتجولين. فهم أهلٌ للثقة وحاصلون على تقدير العرب واحترامهم. كما أنّ نصفهم من المسيحيين

(*) يحمل البدو النازلون على الحدود الجنوبية الشرقية لحوران، يحملون إلى دمشق أحمال الملح الذي يستخرجونه من بحيرة مالحةٍ صغيرةٍ تدعى بحيرة الأزرق على بعد ٦ أيام من دمشق ناحية جنوب ـ جنوب شرق. ثمة قصر خرب بجانب البحيرة وينابيع المياه العذبة وأشجار النخيل الكثيرة.

ويتمتعون بالحماية نفسها من جانب مشايخ القبائل المرتبطة بالأتراك، إذ هذه القبائل ليست أصولية ولا تفرّق بين المذاهب.

تفرض القبائل الرئيسية في عنزة الأتاوات والضرائب على سكان قرى شرق سوريا التي يضربون بجانبها مضاربهم، وذلك بدل الحماية من لصوص هذه القبائل إلا اللصّ الليليّ الذي لا يجد نفسه معنياً بهذه الحماية.

تدفع الضريبة لشيخ القبيلة فيصبح أخاً للقرويين، وتصبح القرية كلها أخته. في هذه الحال، تسمى هذه الضريبة خوّة وأصلها أخوّة. وما إن تنعقد الخوة حتى يصبحُ واجباً دفعُ جزءٍ من المالِ فوراً فيُستخدم في شراء المأكولات وتوزيعها على الأصدقاء الذين يصبحون شهوداً إذ أكلوا من الخوّة. فإن طلب العرب خلال العام إضافةً إلى الخوة، استحقوا هذه الإضافة في السنة التالية أيضاً لتصبح من أساس الخوة. وهكذا، وينطبق هذا الأمر أيضاً على الصرّة، أي الضريبة المفروضة على قوافل الحج. وقد وصلت في العام الماضي إلى حدود ٦ آلاف جنيه استرليني.

قطيع البدوي، وحيوانات صحراوية أخرى

جمل الصحراء الشامية أصغر من الجمل الأناضولي أو التركي أو الكردي؛ وهو يحتمل الحرّ والعطش أكثر لكنه يتأثر بالبرد الذي يقتل منه أعداداً كبيرة كل شتاء. للجمل الأناضولي عنق صوفي سميك؛ وهو أكبر من الصحراوي، يحمل أثقالاً أكثر يخدم فعلاً في جبال الأناضول لكنه لا ينجح في الصحراء. النسل الأناضولي هو نتيجة زواج الناقة العربية والجمل ذا السنامين المستورد من كريميا. الجمل ولد الناقة العربية والجمل التركي يسمى كُفُرد، وهو حيوان ضعيف لا يحتمل التعب. الجمل والناقة التركيان يولّدان الدالي، والعربي والناقة التركمانية يولدان الطاووس، جمل جميلٌ صغيرٌ بسنامين صغيرين، ينزع الأتراك أحدهما عند ولادة الحيوان ليصبح أكثر قدرةً على حمل الأثقال. لهذا النسل شعر طويل ينمو في أسفل العنق يصل تقريباً إلى الأرض. الحمل والناقة العربيان ينتجان المايا والبشرك. لا تستقدم النوق العربية إلى الأناضول والجمال العربية لا تستخدم في الأعمال المتعبة بل توفّرُ للتعشير. ليس للعرب جمال بسنامين ولم أسمع بواحدٍ في سوريا.

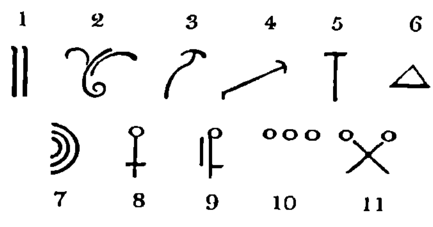
في بداية السنة الثانية، تفطم الجمال الفتيّة وتمنع من الرضاعة وذلك من خلال دس قطعةٍ من الخشب مسننةٍ في حلق الجمل تخرج من أنفه، فما إن يقترب من ضرع أمه ليرضع فيخزها فتبتعد عنه. أو يمكن تغطية الضرع بكيس من جلد الجمل يدعى شملة، وذلك إذ كان مسموحاً للجمل الصغير بالرضاعة قليلاً في أوقات معينة. أما الحبل الذي يمسك بالشملة يمر حول جسد

الناقة، فيبقى هناك حتى بعد التخلّص من الشملة. وهذا ما لاحظته في معظم النوق في الصحراء. وقد يستعاض عن الشملة بقطعٍ من الخشب مستديرةً.

يدعى الجمل في سنته الأولى بالهوار؛ وفي سنته الثانية بالمفرود أو المخلول أو المخلال؛ وفي سنته الثالثة بالحج. وتدعى الناقة ذات السنوات الأربع بالرباع بينما الجمل في هذا العمر يدعى جذا.

في سنته الرابعة، يبدأ الجمل بالتناسل، وبعد أول ولادة يدعى البكر وبعد الثانية يدعى الثنّة. يعتقد أن الجمال تصل إلى عمر الأربعين. يفضل العرب ركوب الجمال على ركوب النوق برغم سرعة الناقة. وعند اهتياج الجمل، يقوم العربي بثقب أحد منخريه ويمرر في الثقب حبلاً مجدولاً من شعر ذيله يُدعى الخُلب، وتربط برسنٍ يمسكه راكب الجمل فيقدر على التحكم بجمله. في هذه الحال، يدعى الجمل الذلول المخزوم. يفضل العرب الجمال الحمراء أو الرمادية على الجمال البنيّة. وحين يضطر البدوي إلى قتل جمل، يختار ناقة لا تَلِد. إن حصل وكسر جمل إحدى قوائمه يُقتل فوراً، إذ هذا الكسر لا يُعالج أبداً. الجمال العربية تتغذى من عشب الصحراء بينما القرويون كما الأتراك يُطعمون جمالهم التركية كل مساء الشعير الممزوج بالماء، أي المعبوك. لا يصنع العنيزيون وأهل الشمال الزبدة من حليب الناقة بل يشربونه ويقدمونه لجيادهم. يُجزُّ صوف الجمل بسهولة في نهاية الربيع يستخدمه التركمان لحياكة السجاد القاسي إذ هو أجود في صوف الجمل العربي.

يوشم البدو جمالهم بالحديد الساخن ليعرفوها متى ضاعت أو سُرِقت. لكل قبيلة وطائفة وشمها الخاص، يُطبع على الكتف الأيسر في الجمل أو على عنقه. هذه النماذج المعروضة هنا تعود لقبائل عديدة(*):



إن فرّ جملٌ اقتفى صاحبه أثره لساعات طويلة عن طريق مسك الأثر. والعرب يعرفون من وخم الجمل عدد الأيام التي مرّت بعد حصوله في ذلك المكان؛ وهذا الموضع الذي جلس فيه الجمل يدعى مبرّق.

(*) ١. ابن ضويحي - ٢. ابن اسمير - ٣، ٤. ابن الطيار - ٥. الحسنة - ٦، ٧. بشر - ٨، ٩. بنو صخر - ١٠، ١١. نعيم.

تصاب جمال الصحراء بأمراض عديدة لكن غير سارية، أخطرها ثلاثة: الأول تصلب يصيب العنق، ويسمى الجمل المريض بهذا المرض الجمل المطيور، يرفض الطعام ويموت خلال أيام قليلة. والثاني، المهمور، وهو إسهال شديد يصيب الجمل في سنته الثانية فيؤدي إلى موته. والثالث خطرٌ أيضاً يدعى المجعوم، سببه ابتلاع الجمل مع العشب وخماً من ماعز أو خرفان ما يزال في الأرض منذ السنة الماضية. وهذا مرض مؤلم في الأمعاء ومميت أيضاً، لا يصيب إلا الجمال البالغة. لا يعرف البدو علاجاً لهذه الأمراض الثلاثة لكنهم يعتقدون أن علاجاً ناجعاً موجود في كتب اليهود المقدسة، وأن اليهود يخفونه مكراً وحقداً. ومن الأمراض غير الخطرة أذكر الجدري الذي يصيب الجمال ذات السنتين ويظهر حول فمه، والإضبط أي التورم في إحدى قوائم الجمل، والأقوة أي تصلب نتوء في قوائم الجمل الذي خصل شعر. والجمل الأخردُ هو الذي تردف إحدى قائمتيه الأماميتين بعيداً عن الأخرى، وتدور دورات عديدة قبل استقرارها.

الخراف والماعز

عرب الشمال أغنياء بالماعز، أما العنيزيون فلهم الكثير من الخراف. وليست للخروف العربي الإلية الكبيرة كما في دول أخرى، وأذناه أكبر من أذني الخروف الانكليزي. الماعز أسود اللون في غالبيته وله أذنان طويلتان. في سنته الثانية، يسمى الخروف قرقوراً وفي الثالثة كبش، والمعزاة في سنتها الأولى تدعى سحلة، وفي الثانية معزة أو ثنية. الخراف الرضع تسمّى بَهَم. وعندما تفقد المعزة حليبها تسمى غرزة. خلال أشهر الربيع الثلاثة، تحلب الماعز صباحاً ومساءً، ثم ترسل لتأكل في المراعي أما الخراف الصغيرة فتبقى قرب الحي. يعود الراعي بالقطعان عند العاشرة مساءً تقريباً وتصف الماعز الواحدة إلى جانب الأخرى لتحلب. وعندما تكون المعزة ضعيفةً، يترك حليبها لصغيرها فلا تحلب، وصغيرها هذا يدعى المهجل.

وهذا ما يتكرر قبل الفجر. يتوقع العربي أن يحصل من حليب مئة معزة على قرابة ثمانية باوندات من الزبدة يومياً. فالعائلة العربية تحتاج إلى قنطارين من الزبدة سنوياً، ويباع الباقي إلى الفلاحين والحضر. الخراف الصغيرة تباع أو تذبح إلا اثنين أو ثلاث، يبقيها العرب لتتناسل. في سنوات الجفاف، يجف حليب الماعز، الذي يدعى أحياناً لبن أو حليب. أما أهل سوريا فيطلقون اسم اللبن على الحليب المحمّض المخثر الذي يسميه أهل عنيزة «خاقر». يجزّ العنيزيون صوف الخراف مرّة في السنة في أواخر الربيع ويبيعونه للحضر حتى قبل جزِّهِ.

أمراض الخراف قليلة وغير خطرة في قطعان عنيزة، بخلاف الخراف الكردية التي تأتي من أرض ما بين النهرين لتعم أسواق حلب وبعض دمشق وجبال الدروز، فهي عرضة للأمراض.

ففي ربيع ١٨١٠، نفق ثلاثون ألفاً من الخراف في أحد مراعي جبل لبنان. حين يعم السلام بين عنيزة والوهابيين، يذهب العنيزيون إلى نجد محملين بالمال والحاجيات لشراء الجمال والخراف.

تدعى هذه الخراف (رخيمي)، سوداء في معظمها إلا بقع بياض في رأسها، وذيلها طويل غير سمين. يبدأ العنيزيون مسيرهم، بما اشتروه، في الشتاء ليصلوا ديارهم على أبواب الربيع فيدخلون سوريا ويبيعون الخراف لجزاري دمشق وجبل الدروز فيتم ذبحها فوراً فلقد علمتهم التجربة أن الخراف التي تترك لتسمّن تموت فجأة بعد شهرٍ واحد من وصولها.

الجياد

أتكلم هنا فقط عن جياد الصحراء. فالجياد التركية تعامل معاملة مختلفة، والعثمانيون خيالةٌ أفضل من البدو. ثمة ثلاثة أنسال من الجياد في سوريا: النسلُ العربيُّ الأُصيلُ، والنسلُ التركمانيُّ، والكردي الذي هو نتاج تزاوج النسلين. الجياد العربية صغيرةٌ لكن جميلة وقوية ومتميزة عن أي نسل آخر بجمالها. يحصي البدو خمسة أنسال أصيلة من الخيل متنزلة من الأفراس المفضلة عند الرسول: طويسة ومعنقية وكحيلة وسقلاوية وجلفة. وكل نسل صادر عن إحدى هذه الأفراس يسمى باسمها. عند ولادة مهر من أصل نبيل، يجتمع الشهود فيسجلون العلامات الجمالية الفارقة فيه إضافة إلى اسمي الجواد والوالد والفرس الوالدة في حجّة. قد لا يحتاج أحدٌ لإبراز هذه الحجة إذ أن العرب يعرفون الفرس الأصيلة ما إن يروها.

عادة، تلف شجرة نسب الفرس وتُدَسُّ في قطعة من الجلد لتعلق في عنقها. وهذا مثال على ما قد يكون فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين، الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه حتى يوم الدين. والسلام على من يقرأ ويعتبر. المهر بني أرمد بقوائم بيضاء، ولطخة بيضاء على الجبين، من سلالة سقلاوية، ويدعى عُبيّان، جلده ناعم الملمس كالحليب، يشبه الجياد التي وصفها النبي في حديثه الشريف (الخيل معقود في نواصيها الخير) والتي أكدها الله في كتابه العزيز. هذا المهر السقلاوي اشتراه خشرون ابن محيت من قبيلة زبعا العنزية. والد المهر جواد أصيل اسمه مرجان من سلالة كهيلان، ووالدته الفرسة السقلاوية البيضاء المشهورة «جروة» ونحن شهود على هذا، وشهود على أن المهر أصيل يفوق أصالة والديه. هذا ما نقوله ونؤكده ونشهد عليه وفق معرفتنا في هذه الحجّة، والحمد لله رب العالمين».

حررت في السادس عشر من صفر عام ١٢٢٣

تواقيع الشهود.

السنة الهجرية ١٢٢٣ هي نفسها السنة الميلادية ١٨٠٨.

وما تقدم ليس إلا ترجمة حرفية عن العربية التي كتبها البدو بأقلامهم.

يمتطي العرب الأفراس فقط ويبيعون الجياد للفلاحين، ويتراوح سعر الجواد العربي في سوريا بين عشر ليرات و١٢٠ ليرة.. وهذا أعلى ثمن سمعت به. وسبب ارتفاع السعر هو إقبال الانكليز في بغداد والبصرة على شراء الجياد العربية لإرسالها إلى الهند. آخر قنصل دانماركي في حلب، السيد ماسيّيك، اشترى في العام ١٨٠٨ أكثر من ٢٠ جواداً أصيلاً لبونابرت، دافعاً في كل منها بين ثمانين وتسعين ليرة. لا تباع الفرس العربية بأقل من ٦٠ ليرة أبداً، وحتى بمثل هذا الثمن يصعب جداً الحصول على واحدة. فالعرب أنفسهم يعرضون أكثر من مئتي ليرة في الفرس الأصيلة حتى يصل ثمن المشهورة إلى أكثر من خمسماية ليرة. إن كان لعنيزي فرسٌ من نسلٍ أصيل يرفض بيعها بتاتاً، أما إذ اضطر إلى ذلك فيُبقي له جزءاً منها.. أي عندما يبيع نصفها، على الشاري أن يقدم للبائع أول أنثى تلدها. أما إذا باع البائع ثلثها، يصطحبها الشاري إلى بيته لكن عليه أن يعيد إلى البائع ابنتيها في السنتين التاليتين. أو ابنة واحدة والفرس الأم. هذا العقد يدعى بيع نصف أو ثلث بطن الفرس. وهكذا، قد نجد الأفراس مشتركة، كل واحدة بين مالكين أو أكثر، وقد يصل عدد المالكين إلى نصف دزينة.

تسمى المهرة حتى نهاية سنتها الأولى «طريح»؛ وخلال سنتها الثانية تدعى حولية؛ والثالثة جدع؛ والرابعة ربعية؛ ثم فرس عندما تكمل خامسة وسادسة وسابعة.. أما المهر الذكر فيدعى فلو.

بعد ولادة الفلو فوراً، يربط العربي أذنيه كي تبقيا منتصبتين، كما يرفع ذيله إلى أعلى ليبقى هكذا. أما الاهتمام بالوالدة فيقتصر على لف جسدها بثوب سميك يخلع عنها في اليوم التالي.

إن كان هذا العربي يملك جزءاً فقط من الفرس، يقوم في اليوم التاسع بعد مخاضها بجمع الشهود والقسم معلناً نيته إعادة الطريح إلى بائع الفرس أو إعادة الفرس نفسها إلى صاحبها الأصلي. ما إن يقسم العربي هذا القسم حتى يُصبح ملزماً بتنفيذه. يبقى المهر مع والدته ثلاثين يوماً ثم يفطم عن حليبها، ليُطعم حليب ناقة. لا يسمح بإطعام الطريح أو المهر طوال مئة يوم بعد ولادته غير حليب الناقة. ويمنع عنه حتى الماء. وبعد ذلك الوقت، يقدم للطريح القمح المبلول بالماء بكميات قليلة أولاً لتزاد تدريجاً إلى جانب الحليب. هذا هو غذاء الطريح لمئة يوم أخرى يسمح لها في أواخرها برعي العشب قرب الديار وشرب الماء. وبعد انقضاء الأيام المئة الأخرى، يقدم الشعير للطريح مساءاً مع القليل من حليب الناقة إن كان هذا متوفراً.

في عنيزة، هذه هي الطريقة الفضلى لدفع الطريح إلى أن تشبّ: يقسم العربي الذي يأتي بالمهر ذات السنتين إلى السوق في سوريا أنه لم يأكل شيئاً إلا حليب الناقة، لكن هذا كذب إذ

يقدم الأعرابي الشعير إضافة إلى حليب الناقة للمهر ما إن يبلغ الشهر الرابع. أما عرب نجد فلا يقدمون الشعير أو القمح للجياد بل يتركونها للرعي في المراعي ولشرب الكثير من الحليب، ويطعمونها أيضاً معجون التمر والماء. يترك النجدي، والعنيزي أحياناً، كل وجبة طعامه لحصانه المفضل.

معروفٌ أن العرب لا يحسنون اختيار الفحول كما المعشرين الأوروبيين إذ يوجهون اهتمامهم إلى ميزات المهر أكثر من ميزات الجواد، أبوه، والفرس، أمه. وسمعت عن عربٍ يرتحلون مع أفراسهم لأيام عديدة لتتناسل مع جيادٍ أصيلة، مقابل خروف يقدمونه لصاحب الجواد.

خلال العام، يترك العرب جيادهم في الهواء الطلق. وكم أر ولو مرّةً جواداً مربوطاً تحت خيمة صاحبه في الشتاء، كما يفعل الأتراك. الحصان العربي، كسيّده، يتحمّل صعاب الحياة ونادراً ما يصاب بالمرض. كما أن العربي لا ينظف جواده بل يكتفي بالمشي بجانبه في طريق العودة من رحلة ما.

ما إن يحين ميعاد ركوب المهر (أي بعد انقضاء سنته الثانية) لا يفارق السرج ظهره صيفاً شتاءً، حتى وهو واقف تحت أشعة الشمس الحارقة. أما العرب الذين لا يستخدمون الأسرجة فيكتفون بوضع جلد الماعز فوق ظهر الحصان، ولا يقدونه بالرسن بل بقضيب من الخشب الرفيع. هذا الجلد يدعى المضقع. هذا الأمر لا يدهش الفارس الأوروبي حين يعلم أن طبع الجواد العربي هادىء وهو صديق راكبه لا عبده. ويستطيع البدوي أن يوازن نفسه وهو جالس على ظهر الحصان دون سرج بفضل التمرين الذي يبدأه وهو بعدُ صغيرٌ، وخصوصاً المران على امتطاء صهوة الجمل، وهذا ما يميز البدوي عن العثماني الذي يعتبر خيالاً أرحم من الخيال العربي، ذلك أن هذا يرهق الحصان عندما يركبه دون سرج ويرمي من على ظهره الرماح الثقيلة وهو يعدو سريعاً.

يجهل العرب طرق الخداع التي يتوسلها الأوروبي ليخدع شارياً، ولهذا بإمكان الشاري الوثوق بكلامهم دون خوف الوقوع في فخ المخادعة. لكن قلة منهم تعرف كيف تدرك عمر الحصان من أسنانه. مرّة نظرت في فم فرسٍ أتعرف على عمرها بحضور صاحبها وعرب آخرين، فظنوا أني أقترف السحر أو التنجيم. وحين أكدت لهم أن معرفة عمر الفرس ممكنة من خلال أسنانها، أبدى صاحبها دهشته وتمنّى عليّ أن أنظر إلى أسنانه وأعرف عمره أيضاً.

يؤمن العرب بأنّ بعض الجياد والأفراس منحوس بسبب علامات في أجسادها. فإن كان ثمة نجمة على الجانب الأيمن من عنق فرس، يقول العرب إنها ستموت برمية رمح. أما إذا كانت النجمة على الساق، فسوف تخون زوجة صاحبها زوجها. هناك أكثر من عشرين علامة نحس

من هذا النوع تؤثر بالتأكيد في ثمن الجواد أو الفرس.

لا يضع العرب العلامات على جيادهم كما يخيّل للبعض، لكن الحديد الناري الذي يستخدمونه لعلاج الجروح والأمراض يترك أثراً وكأنّه علامة مقصودة.

يسمي العرب الحصان الأبيض «أشهب»، والرمادي «أزرق»، والرصاصي «أصفر»، والأسود «أدهم» والكميت «أخمر»، والكميت دون لطخة بياض واحدة «أخمر صحّة»، والأسمر «أشقر» والأسمر الداكن «أخمر محروق»، والملون بألوان عديدة «حيش»، والكميت بقوائم بيضاء «أخمر محجّل»، والحصان بثلاث قوائم بيضاء ورابعة من لون الجسم «محجل الثلاث ومطلوق اليمين».

هذه هي الأسماء البدوية للأمراض التي تصيب الجياد:

المغاص (الغريب)

سراجه ـ داء الخيل ـ لا علاج له.

حروق وتورمات حول هذه الحروق.

عقر السرا ـ لا يعرف العرب علاج هذا المرض.

عقر الصفا ـ أو الانتفاخ النبري. يفتح العربي الورم ويغسله بالماء والصابون ثم يضع عليه الملح حتى يجف الدم النازف ثم يغسله ثانية ويضع عليه قشر الرمان وورق الحنّة.

محمور ـ أو التخمة. وهذا يحصل بسبب الافراط في شرب الماء بعد التمارين الحادة.

مقطوع القلب.

مصفور ـ الريقان.

سقاوة ـ أو الخناق. يحرق العربي صوفاً أزرق ويضعه تحت أنف الحصان يتنشقه فيخرج السائل من أنفه. ثم يدهن التورمات بخليط الشعير والزبدة.

الجرب والأكال.

خنزير.

نعورة ـ صداع شديد.

حتوت ـ أكال تحت ذيل الحصان.

بلش ـ أورام في بطن الحصان.

الكي هو الدواء الأكثر شيوعاً لأمراض الجياد التي يعاملها العرب كآدميين مرضى. لا يركب

العرب جواداً دون «حدو».. طقم الأربع حدوات يدعى «طباقه حدو»، واثنان منهما «صدر»، وحدوة واحدة هي «وطيّة». اللجام هو «الصروغ» وإن كان فيه كابح يدعى «العنان». الحبل الذي يربط به رأس الحصان هو «العذار»، وقماش السرج هو «الطرحة». كل هذه الكلمات مصطلحات بدوية، ويسمي السوريون هذه الأشياء بأسماء مختلفة.

عندما تتقدم الفرس في السن وتعجز عن القيام إلى الحرب، يبيعها صاحبها إلى شيخ قريةٍ ما محتفظاً بنصف أو بثلاثي نسلها المستقبلي.

النعامة

تعيش النعام في الصحراء السورية خصوصاً في السهوب الممتدة من حوران حتى جبل شمّر في نجد بعض النعام موجود في حوران وعلى بعد يومين من دمشق. يسمي البدو ذكر النعامة «إضليم» وأنثاها «رَبَدَة». للإضليم ريش أسود، أبيض في نهايته، إلا في الذيل إذ يكون كل الريش أبيض. لكن ريش الأنثى أو الربدة ملطخ بالرمادي. يتناسل هذا الطير في منتصف الشتاء وتبيض الربدة بين ١٢ و١٢٠ بيضة. العش أو المدحة يُبنى في أسفل تلّة في غالبية الأحيان. توضع البيوض متقاربة تحت الرمل لحمايتها من الأمطار، وتحاط بدائرة من الرمال لينحرف عنها الماء. وقريباً من هذه الدائرة، تضع الربدة بيوضاً قليلةً لا تدفنها بل تتركها لتكون غذاءً فورياً يتلقاه صغارها حين ولادتها. يتداور الإضليم والربدة على الجلوس فوق بيوضهما. فحين يكون أحدهما راقداً عليها، يتولى الآخر مهمّة الحماية من على التلة المجاورة. عندما يرى العرب نعامةً على رأس التلة يدركون أن بيضاً موجودٌ في أسفلها. ما إن يشعر النعام باقتراب الإنسان حتى يفر مسرعاً. حينذاك، يحفر الاعرابي حفرة بقرب البيض يضع فيها بندقيته بعد أن يصلها بحبلٍ طويلٍ، ثم يغطيها بالرمل والحجارة بعد توجيه فوهتها ناحية البيض. عند المساء، يعود الإضليم والربدة إلى المدحة، وما إن يجلسا على البيض حتى يشد العربي الحبل فيقتل على الأقل واحداً منهما. هذه هي الطريقة التقليدية لصيد النعام.

يسود اعتقاد يقول إن الشمس وحدها كافية لتفقيس البيض لكن تبيّن أن هذا الاعتقاد خاطىء. فالنعام يجلس على بيضه في الشتاء ويفقس هذا البيض في الربيع قبل أن تحتدّ أشعة الشمس.

يأكل سكان الجوف لحم النعام بعد شرائه من عرب شرارات، ويقال إن طعمه لذيذ جداً، كما طعم بيض النعام؛ ويبلغُ ثمن البيضة شلناً واحداً. يعلّق العرب قشر البيض زينةً في بيوتهم، أما ريش النعام فيباع في حلب ودمشق ويأتي الحلبيون بالنعامات بعد قتلها على بعد ٣ أيام

شرقاً. وبلغ ثمن رطل هذا الريش ما بين ٢٥٠ و٦٠٠ قرشاً. أما الرّيش الجيّد فيباع بالريشة مقابل شلنين للواحدة.

الغزلان

الغزلان موجودةٌ بكثرة في كلِّ أنحاءِ الباديةِ السُّوريةِ. وعند الحدود الشرقية لسوريا، ثمة مواضع عديدة مخصصة لصيد الغزلان تدعى مصيدة. هذا المكان يكون سهلاً واسعاً محدداً بثلاثة جدران وفي الجدران هذه فجوات متروكة عمداً وخلفها خندق محفور من الجهات الثلاث من الحجارة المكدسة على علوٍ تعجز الغزلان عن القفز فوقه. تنصب هذه المصيدة في مكان قريبٍ من نبعٍ أو جدولٍ تقربه الغزلان للورد في الصيف. وما إن تصل الغزلان حتى تقودها أصوات الطلقات النارية التي يطلقها الناس الذين يتولون المراقبة إلى المصيدة. وحين تحاول الغزلان القفز فوق الجدار لا تستطيع فتحاول الخروج من الفجوات لتقع في الخندق بالمئات لأجلها. ينقض قائد عملية الصيد أولاً ليتبعه الآخرون. وهكذا، تُذبح الغزلان فوراً ويباع لحمها للعرب والفلاحين تتشارك قرى عديدة في حصاد مصيدة واحدة. أهم المصيدات واقعة بقرب قرى قريتين حصيّة وحمص. يفيد السوريون من جلد الغزال إذ يصنعون منه طبولاً ترافق المغنين في الغناء والراقصين في الرقص.

الحمير الوحشية

في البلاد المجاورة للجوف، بين طبيق وصوان وحدروش ثمة أعداد كبيرة من الحمير الوحشية، فيصطادها عرب شرارات ويأكلون لحمها لكن في ما بينهم، ويبيعون الجلود والحوافر للباعة المتجولين في دمشق ولسكان حوران. تستخدم هذه الحوافر كتمائم ضد الروماتيزم تثبت تحت الإبط، وخواتم للتزيّن.

الكلب البري

وفق الأوصاف التي يقدمها بعض العرب، ثمة أنواع من الكلاب البريّة تدعى دربون، سوداء اللون، موجودة قرب الجوف، يأكل الفلاحون هناك لحمها.

السحالي

هناك نوع من السحالي يدعى الضبُّ موجودٌ في المناطق المجاورة للجوف طوله ١٨ إنشاً بذيلٍ طوله ٦ إنشات، يأكله العرب ويتركون الزبدة على جلده الحرشفي.

بالإضافة إلى الحيوانات التي ذكرت، ثمة ضباع ونمور بيضاء وذئاب وبنات آوى وقطط

وحشية تسكن الصحراء، كما هناك بعض الثعالب. الخنازير البريّة عديدةٌ جداً، لكن خارج قلب الصحراء. ويشتهر عرب أمور النازلون قرب تدمر بأنهم يقتلون هذه الخنازير برماحهم.

أما الطيور الموجودة في فضاء الصحراء فهي الرخم (نوع من النسور) واللقلق والبط البري والحجل والقطا والقبّرة. وطيور القطا كثيرة تتكاثر في المناطق الصخرية في جبل حوران والصفا واللجا وجبل البلقاء. كل قطا تبيض ثلاث بيضات كبيرة كبيض الحمام. يجمع العرب الكثير من هذا البيض فيأكلونه مقلياً بالزبدة.

نبات الصحراء

تتكون الصحراء، على مساحة مسير أربعة أو خمسة أيام من الحدود الشرقية لسوريا، من أراضٍ صالحةٍ للزراعة كانت مزروعة في ما مضى. وعند التوغل أكثر إلى داخل الصحراء، تتحوّل الأرض إلى رملية، لكن حتى هناك يجد العرب شتاءً أنواعاً عديدةً من النبات يصلح طعاماً للمواشي.

يندر وجود هذا التنويع النباتي في الصحراء، ولكل منطقةٍ نباتها الذي تعرف به، فينبت فيها ولا ينبت في غيرها. يسمي العرب النبات عامة «عشب»، والنباتات اليافعة «ربيع»، والعشب الذابل بفعل أشعة الشمس «هُمري»، وهو طعام مفضل عند الجمال.

الأعشاب والنباتات التالية هي منتوجات الصحراء، بحسب المعلومات التي وصلتني.

روتة، بارتفاع ثلاثة أقدام، وهي طعام جيد للجمال.

فِرس وشيح، يأكلها الجمل عندما تذبل وتيبس في الصيف، وبذورها تنفع دواءً طارداً للديدان.

سوس ودأرك وعقول، تنبت في الصحراء قرب دمشق. لكن عقول موجود أيضاً في العراق.

سرّ، نبات يشبه الشيح يأكله العرب في الربيع.

غضي وهربك وقتف، وتنمو في الأرض المنخفضة.

شومر وإتل ومرار.

وسبه، فيه ذنيبة صفراء تُسَوِّد فم الجمل.

ناسي، تنبت في المناطق الرملية.

شورد.

وأخيراً الكما التي تنبت في الربيع، في مناطق العشب الشتوي.

الرياح

الرياح الشمالية في الصحراء، باردة أو حارة، تؤذي صحة الإنسان والحيوان. أما الرياح الغربية فهي التقليدية في الصيف. تعتبر الرياح الجنوبية مفيدة للأرض والنبات. أما الرياح الشرقية فهي الأكثر حرارة على الاطلاق، يسميه العرب «قاسي». كل ريح حار جداً يدعى السموم، فحين يصل من ناحية الشرق، يجفف الماء في القِرَب، فيؤدي أحياناً إلى موت العرب من العطش. لا يستطيع العرب بأي وسيلة تنبؤ وصول السموم ولهذا تفاجئهم. أحياناً، يجثم جمل بفعل هذه الرياح ويخفض رأسه ليتجنب جروحاً تسبّبها الرمال التي تحملها السموم. أما إذا كان واقفاً فيبقى ماشياً دون تراجع. يتّقي الأعرابي شر هذه السموم بارتداء معطف أو عباءة إضافية.

٦

ملاحظات إضافية

طريقة رفع الخيام

في البلاد حيث الأمن مستتب، يخيّم العرب طوال العام في مخيّمات تتألف من ثلاث خيام أو أربع، ويبعد كل مخيم عن آخر مسير ساعات قليلة. وهكذا رأيت أفراد قبيلة هديل في الجبال شرق مكة، وبعض قبيلتي صويلحة ومزيّنة في جبال سيناء.

تجدر الاشارة هنا إلى أن البدويين الأثرياء يملكون غطائين للخيمة، واحد جديد وقوي للشتاء وآخر رقيق وقديم للصيف.

في البوادي العربية والسورية، يخيّم البدو في الصيف (حين لا وجود لماءٍ في الأحواض) قرب الينابيع حيث يبقون طوال شهر كامل، بينما القطعان ترعى في مراعٍ على مبعدة ساعات برعاية العبيد والرعيان الذين يسوقون القطعان كل يومين إلى البئر لترد. في هذه الأثناء ينتهز العرب الفرص لمهاجمة بعضهم بعضاً إذ تؤخذ القبيلة التي ترد الماء على حين غرّة. وإن شاع خبر هذه الهجمات، يكون رجال القبيلة مستعدّين للتصدّي ولحماية القطعان الآتية إلى النبع للشرب، والتي تسعى القبيلة الأخرى إلى سرقتها. ويقوم عرب شرارات المخيمين قرب الطريق السورية المؤدية إلى الحج بإسراج جملٍ بشكلٍ دائم إستعداداً لنجدة الرعيان فوراً إذ هم أكثر تعرضاً للغزو من القبائل الأخرى. غالبية آبار قلب الصحراء وخصوصاً في نجد مملوكة من بعض القبائل أو من أولاد وأحفاد من قاموا بالتنقيب عن هذه الآبار. خلال الحكم الوهابي، تمّ حفر المزيد من الآبار. وحين يكون البئر ملكاً لإحدى القبائل تنصب مضاربها حوله كلما نضب ماء الأمطار في الصحراء. وعندها يمسي ممنوعاً على العرب الآخرين بلوغ البئر والشرب منه. لكن حين يكون هذا البئر ملكاً لفرد واحد، يقوم بإصلاح شأنه صيفاً ويتلقى هدايا القبائل الأخرى التي تمرّ بالبئر أو تنزل قربه لترد جمالها. لا تناقش أبداً ملكية هذه الآبار، ويقول العرب إن مالك

البئر محظوظ فعلاً إذ كل من يشرب من مائه يدعو له بطول العمر. خلال الربيع والشتاء، يصعب التنقل مع القطيع إذ يجد ما يكفيه من العشب قرب الخيام، ولهذا يكون القطيع محمياً أكثر وبطريقة أسهل. ثمة قبائل تبقى بعيدة من أي بئر أو ينبوع ماء أو أرض خصبة، تقصر شرابها على الحليب فقط، كما أن قطعانها لا تحتاج إلى الماء بفضل العشب الأخضر النضر. لكن هذا لا ينطبق على الخيل. ومثالٌ على ذلك هو مثال قبيلة بني شمّر التي تنزل لشهر كامل خلال الربيع في السهوب الجافة بين الجوف وجبل شمّر.

خلال الترحال، وحدها القبائل القوية تنزل ليلاً قرب الآبار حيث تستقبل الغرباء، أما القبائل الضعيفة فتروي جمالها وتملأ أكياسها ثم تضرب الخيام بعيداً عن أي طريق يؤدي إلى هذه الآبار.

الملبس

يختلف ملبس البدو بين قبيلة وأخرى وبين منطقة وأخرى. تشتركُ قبائل شرق مكة بالعباءة والكفيّة المخططة بالأصفر والأخضر للرجال وبالثوب الأزرق للنساء. يطيّب الوهابيون في نجد كفياتهم بطيب من عدن يسمى أرس. قرب مكة والطائف وإلى الجنوب منهما باتجاه اليمن، يرتدي الرجال والنساء الجلد، ويتغطون ليلاً وفي الشتاء بالعبا، لكنهم يكادون يتعرون في فصل الصيف. للنساء جلابيب أيضاً تصل إلى الكاحلين وسترات من الجلد مصبوغة ومخيطة بعناية وإتقان ومزيّنة بالشرابات، تقوم النساء بدهنها دائماً بالزبدة لتبقى ناعمة الملمس. فوق الجلباب، يتمنطق الرجال كما النساء بأحزمة جلديّة مكونة من أسيار طويلةٍ ملفوفة. وترتدي النساء أسياراً مماثلة تحت الجلباب أيضاً يربطنها على جلودهن العارية.. هذه عادة سائدة في كل الصحراء. يؤكد البدو أن محمداً ارتدى أثوابه بالطريقة نفسها. والشائع أيضاً أنه من العار أن يرتدي البدوي سراويل داخليّة فهذه للنساء فقط. على الرأس، فوق الكفيّة، يعتمر بدو مكّة واليمن عقالاً من الشمع والقطران والزبدة بدلاً من العقال الصوفي، يكون بسماكة إصبع، وغالباً ما يخلعونه قليلاً لضبط شكله بأناملهم قبل إعادته. نسيت اسم هذا «الشي» بالعربية لكنه يشبه الدائرة المنيرة فوق رؤوس القديسين عند النصارى. بدو الجنوب يضعون حول المرفق الأيمن حلقةً من المعدن الأصفر لا تنزع بسهولة أبداً. وسبق لي أن رأيت واحدةً غطاها لحم اليد الذي نما فوقها.

تحب البدويات التزين بالأقراط في الأنوف والآذان وبالخلاخيل والخواتم والأساور. حلي البدويات الفقيرات مصنوعة من الزجاج بخلاف حلي الثريات التي تكون مصنوعة من الفضة والكهرمان والمرجان واللؤلؤ.

لا يهتم رجال البدو كثيراً بلباسهم لكنهم يحبون تزيين زوجاتهم وإلباسهن الأثواب الجميلة الزاهية فهم يرون ذلك مدعاة فخر بين أفراد القبيلة الآخرين. والنساء لا يخبئن أثوابهن أو حليهن ليلبسنها في الأعياد أو حين حلول المناسبات أبداً بل يرتدينها كل يوم، فترى بدويات وضعن خمس أو ست أساور في اليد الواحدة وقرطين أو ثلاثة في كل أذن. ويلاحظ أن البدو النازلين قرب مكة يرتدون القمصان الزرقاء ذات الأكمام القصيرة والضيقة.

يختلف أسلوب تصفيف الشعر بين القبائل. ففي الحجاز واليمن، يصفَّفّ شعر النساء كما شعر النوبيات وفق جديلات عديدة. أما نساء عرب سيناء فيجمعن الشعر في غديرة واحدةٍ ويرمينها على الجبين. في الجزيرة العربية، تطيب النساء الشعر كما يفعل الرجال بالكفية. وفي قبائل عرب سيناء، ما إن تصل الفتاة غير المتزوجة سن البلوغ حتى يُسمح لها أن ترتدي حلية تدعى شبيكة، مكونة من قطع عديدة من اللؤلؤ، كل واحدة بطول ٣ أو ٤ إنشات وعرض ربع إنش، مربوطة إلى خيط يشدّ حول الرأس فيتدلى اللؤلؤ فوق الوجنتين والجبين المزيّن أصلاً بقطعة دائرية من المادة نفسها. تخلع العروس الشبيكة بالقوة ليلة عرسها، ولا يجوز أن تلبسها ثانيةً بعد زواجها. ونساء طور سيناء أنفسهن يزيّن الأحزمة بالأصداف البحرية. في داخل الصحراء، كما في الحجاز واليمن، لا تتحجّب البدويات إلا أن كل البدو المتصلين بمصر يلزمون زوجاتهم بارتداء النقاب أمام الغرباء.

لقد ذكرت آنفاً أن العنزيين يتركون الشعر لينمو ويطول ويجدلونه في ظفائر تنزل قرب الخدين كما يفعل بدو الحجاز. رجال قبيلتي صبح وعوف (من قبائل حرب) يتركون غدائرهم الكبيرة تنزل إلى صدورهم. منع الشيخ الوهابي أتباعه من العرب من تصفيف شعرهم على هذا النحو قائلاً إن هذا الشكل لا يناسب الرجل المسلم ويؤدي إلى إضفاء الأنوثة إليه. أما عرب المعازي الضاربين في الجبال بين نهر النيل والبحر الأحمر، التقليد السائد يقضي بالسماح بحلق الشعر للشبان اليافعين الذين حصّلوا الغنائم في الغزوات فقط دون غيرهم. عندئذٍ تحتفل كل العائلة بالحدث هذا، وخصوصاً حين يحلق أحد الأولاد رأسه للمرّة الأولى. وبرغم هذا تجد بعض الشبان الذين يغطي الشعر رؤوسهم.

الأسلحة

بنادق الفتيل نادرة بين بدو سوريا، أو بين بدو شمال العقبة كلهم. أما في نجد والحجاز واليمن، فلكل بدوي بندقيته. قوة الوهابيين الأساسية متركّزة في المشاة المسلّحين بالبنادق المستوردة من بلدات الجوار. في الحجاز، رأيت بنادق فارسية رائعة. يقيّمون قيمة البندقية بحسب طول سبطانتها ووزنها، فتكون الأثمن هي الأثقل والأطول. البندقيات الثمينة تتوارث

من الآباء إلى الأبناء، فيستحيل بيعها إلا عند الضرورة القصوى. البدو رماة مهرة وخصوصاً بدو نجد وجبال الحجاز. بندقيات الفتيل كثيرة في الجبال لكن يستعاض عنها في السهول بالرماح التي يرميها الخيالة. قد يعتقد الأوروبي أن إصابة الهدف ببندقية الفتيل مستحيل لرداءتها، لكني شهدت صيد الغربان والحجال بهذه البندقية. وخلال صراع هذه القبائل مع أتراك محمد علي باشا، تكون الغلبة للبدو متى تكون ساحة القتال صخرية وجبلية بفضل نيران هذه البندقيات، وللأتراك متى تكون المعركة في السهول حيث يجد الفرسان الأتراك أنفسهم أحراراً في الحركة يصنع البدو البارود بأنفسهم بعد أن يشتروا الأعواد اللازمة لذلك من القرى. ويبدو أن بندقية الفتيل آمنة أكثر من مسدساتنا إذ لا يمكن أن تتعطل أبداً. البدو يفضلون بندقية الفتيل على غيرها ولذلك أراهم يسارعون إلى استبدال بنادقهم المسكيت، متى يحصلون عليها، بأخرى من هذا النوع.

في البوادي الشرقية وجبال الحجاز يُستخدم المزراق أي الرمح القصير، الذي يلف عليه شريط أصفر كرماح النوبيين. يعتمد العرب على المزراق في القتال من قريب كما يرمونها إلى البعيد.

الدروع شائعة الاستعمال في الجزيرة العربية لكن عددها قليل إذ ثمنها مرتفع جداً. كان القائد الوهابي (ابن سعود) يرتدي درعاً بشكلٍ دائم تحت قميصه، ودرعه كان ملكاً لعرار الديغمي المعروف، صاحب الجواد مشهور، وهو بطلٌ صنديد ذائع الصيت في البادية. الدرع الداوودي الأفضل ثمين يصل سعره حتى ألف دولار. هذه الدروع قديمة الطراز يعود عهدها إلى فرسان الحملات الصليبية على الأرجح.

الطعام

ثمة تشابه كبير في الأطباق البدوية في كل البادية، إذ تتألف أساساً من الطحين والزبدة، لكن قد تختلف أسماء هذه الأطباق من منطقة إلى أخرى، دون أن يتغير الطبق؛ فما يدعوه العنيزيون فتيتاً يسميه عرب سيناء مجلّة، وإن أضيف إليها الحليب أمست مرقدة. الجريشة طبق شائع في الصحراء ويتألف من قمح مغلي وتضاف إليه الزبدة. فإن أضيف الحليب على الجريشة أمست نقع. عادة سؤال مالك المنزل إرسال اللحم للنساء (لحم القرس) سائدة بين عرب سيناء لكن مجهولة في الحجاز. في هذه المناطق الصحراوية البعيدة من الأراضي المزروعة، يقل استهلاك الذرة عن المناطق الأخرى. وهكذا يقل استهلاك عرب ضفاف بحر الأحمر الشرقية بين ينبع والعقبة لغير الخبز. إن الحاجة إلى الذرة هي الدافع وراء علاقات البدو بالحضر المزارعين، ومن الخطأ الاعتقاد أن البدو قادرون على الاستقلال عن هؤلاء المزارعين، ولذلك نراهم ـ البدو

- يقطعُون المسافات الشاسعة لزيارة القرى الحدودية في سوريا والعراق والقرى النجدية وينبع وقلّة وجدّة وسهول الحجاز واليمن للحصول على المؤن اللازمة، ولبيع القطعان من أجل القمح والشعير والثياب. وعندما تكون الظروف قاهرة لا تمكّن البدو من «التسوق»، يقصرون نظامهم الغذائي على الحليب واللحم وحدهما.

لا زبدة أو جبنة تُشتقّان من حليب الناقة، ولهذا يكثر هذا الحليب في قبائل عنيزة. تقوم النساء بحلب الماعز قبل الفجر كل يوم، فيخضّ هذا الحليب في أكياس من الجلد حوالى ساعتين حتى يُصبح زبدة، أما رواسب هذا الحليب فتصبح مخيضاً وهو المادة الأساسية في مشروبات العرب. ويستعمل بكثرة في مأكولاتهم، يطلقون عليه أحياناً اسم لبن لتمييزه عن الحليب.

يشوى الحمل أحياناً في الأرض، فبعد حفر حفرةٍ تشعل فيها نار ثم تغطّى بالحجارة. أحياناً، يغلي البدوي عشباً في الزبدة، فتمسي هذه الزبدة بطعم ورائحة هذه العشبة، التي غالباً ما تكون عشبة الشيح أو البيثران (نوع من الصعتر) وهو رائج الاستعمال في نجد.

خلال الرحلات، يعيش البدو على الخبز المخبوز في الرماد والممزوج بالزبدة، ويطلق على هذه الخبز أسماء عديدة مثل القرص والعيش والكعكة.

لقد لاحظت سابقاً أن عرب الكرك يعتبرون بيع الزبدة عاراً على البائع. كما أن بيع الحليب بين بدو مكّة، مشينٌ لدرجةٍ يرفض معها الفقير أن يبيع لبناً ليعتاش خوفاً من أن يطلق عليه الآخرون لقب لبّان، برغم أن اللبن عزيزٌ جداً وثمين خلال الحج. يشذ على هذه القاعدة بنو قريش الذين يعدون أنفسم القبيلة الأنبل بين القبائل العربية، فيبيعون الحليب لسكان مكة بعد عرضها للبيع في خيامهم المنصوبة في جبل عرفات ووادي منى.

طبق العرب التقليدي في الحجاز هو طبق الأرز الهندي المخلوط بالعدس والذي يؤكل دون حاجة للخبز. يجد العرب هذا الطبق مغذياً وأرخصَ سعراً من خبز الذرة. أما حيث ينبت التمر، فيكون هو الطبق العربي الرئيسي. في نجد والحجاز واليمن، يستهلك العرب الزبدة بإفراط شديد. فقبل الفطور، يتناول البدوي مقداراً من الزبدة ويستنشق مقداراً مماثلاً بواسطة منخريه (هذه ممارسة شائعة في أهل مكّة)، كما أن كل طعام البدوي يسبح في الزبدة اللّينة. إن الحركة والرياضة المستمرين يقويان جهاز الهضم عند الأعرابي ولهذا السبب يستطيع أن يعيش أياماً عديدةً على طعام قليلٍ جداً كما يمكنه أن يلتهم نصف حملٍ في وجبةٍ واحدةٍ دون أن تتأذّى صحته أبداً.

في قلب الصحراء، لا يصنع البدو الجبنة، بل الزبدة من حليب الماعز. لم أر أبداً زبدةً

مصنوعةً من حليب الناقة كما أن العرب الذين حادثتهم لم يتذوقوا أبداً هذه الزبدة.

حين تذبح معزة أو شاة، يأكل الموجودون كبدها وكليتيها دون طهي، بالإضافة إليها بعض الملح. يقال إن بعض عرب اليمن يأكلون بعض اللحم نيئاً وهم بهذا يشابهون الأحباش والدروز في لبنان؛ وقد رأيت هؤلاء الدروز بأم العين يأكلون اللحم النيء. يأكل عرب عسير وغيرهم من قبائل اليمن لحم الخيل، لكن هذا اللحم يمتنع عنه بدو الشمال.

الصناعة

تقتصر الصناعة البدوية على دباغة الجلود وتحضير القِرب وخياطة الخيام والأكياس والجلابيب والعباءات. يدبغ الجلد بواسطة عصير الرمان أو عصير الفرض (ثمار السنط) أو لحاح السيّالة. يخيط النساء القرب التي دبغ الرجال جلودها، ويصنعن في الحجاز غطاء لعنق الجمل يرصعنه بالأصداف، ويدعى دويره. ويستخدم الرجل ما صنعته زوجته بكل فخر، فيحمله دون أن يشعر بأنّ هذا يَنْتَقِصُ من رجولته.

ثروة العرب

الأغنياء بين البدو هم الذين يقدرون على سوق قطعانهم لترعى في السهول المفتوحة التي خصّبتها مياه الأمطار. فهؤلاء يملكون الجمال التي لا تعد ولا تحصى. أغنى البدو في السهوب الجنوبية هم عرب قبيلة قحطان على حدود اليمن. ففقير قحطان يملك أربعين جملاً فقط، فالثروة التقليدية في هذه القبيلة تقدر بما يقارب مئة أو مئتي جمل. قبائل البدو الفقراء تسكن الجبال حيث الجمل يجد الطعام الأقلّ ولهذا يكونُ قليلَ النسلِ. وهكذا يمكن القول إن البدو الضاربين في سلسلة الجبال الممتدة من دمشق عبر الصحراءالعربية وبمحاذاة البحر الأحمر حتى اليمن بدوٌ فقراء لا يملكون الكثير من الماشية، بينما قبائل السهول الشرقية أغنياء لهم كثير من المواشي والجمال. إن النص الذي ذكرت قبلُ عن ثروة العربي ومصروفه السنوي يتناول البدوي الذي طبقته أعلى من طبقة الخاصة. فبعض العائلات المحترمة تصرف نصف المبلغ الذي ذكرت. يمكن للقارىء أن يعود إلى يومياتي في جبال سيناء إن كان يود معرفة الطرق التي يتوسلها العربي الفقير ليعتاشَ ويُعيلَ عائلته. يَحْضُرُ البدو الفقراء من جبالهم إلى القاهرة يسوقون جمالهم المحملة بالفحم. هذه الحمولة التي تسدعي عمل حطابٍ لمدّة ١٠ أو ١٥ يوماً لجمعها، تباع بحوالي ٣ دولارات، وذلك بعد رحلةٍ تستغرق عشرة أيام.

بهذا المبلغ يشتري البدوي نصف حمولةٍ من القمح وقليلاً من التبغ لنفسه، وزوجاً من الأحذية ومنديلاً لزوجته ويعود على أعقابه إلى البيت، أي بعد عمل خمسة أسابيع أجهده

وأجهد جمله. وهكذا، يفضل البدوي أن يضحي بمتعته الخاصة كتدخين التبغ وتناول الزبدة بدلاً من العودة إلى عائلته دون هديةٍ صغيرةٍ ولو رمزيةٍ.

بعض عائلات العرب تفخر بأن لها فقط قطعان الجمال دون خراف وماعز؛ لكنني ما سمعت أبداً عن قبائل تخلو من الخراف والماعز. عائلات المشايخ هي مالكة الجمال ومتى يصل ضيف إلى خيمة الشيخ ويضطر لذبح شاة على شرفه، فَيُحْضِرُ العرب الشاة ويقدمونها لشيخهم. في بعض الإحياء، يرفض الرجال أن يذبح الشيخ خروفاً من خرفانه بل يمدونه بما شاء من اللحم. العائلات التي لا تملك سوى الجمال تدعى «أهل الإبل» بخلاف «أهل الغنم».

متى تعرّض إعرابي للسرقة لا يطلب العون إلا فيما ندر بل يجاهد وحيداً لاستعادة ماله المسلوب، يعينه إيمانه بالله وتسليمه لمشيئة العزيز الكريم. لكن هذا التسليم لا يُقعِدُهُ عن السعي وراء حلاله، بخلاف الأتراك الذين يصل تسليمهم بقدر الله إلى حدود السذاجة. سمعت مراراً عرباً يتندرون ويتفكهون حول الأتراك وسذاجتهم ويسوقون الأمثال الشعبية مثل «يدير ظهره عارياً للبعوض ويقول قدري أن أُلدغ». إن القوة التي تدفع البدو على مجالدة المشقات والشرور نموذجية فعلاً. وفي هذه الحال يتفوّقون علينا فيما نحن نتفوق عليهم في حقلٍ آخر مختلف، حقل البحث عن ملذات الدنيا. فالبدوي كالفيلسوف الذي يضحك للشرور برغم أنه يعرف طعم المتعة الدنيوية. فالرجل الحكيم هو الذي يؤمن بأن الشرّ يغلب على الخير في هذا العالم، ولذلك يبدو البدوي أكثر حكمة عندما يواجه الشر ولم يعرف الكثير من مباهج الحياة على عكس الآخرين الذين يمضون أسعد أوقاتهم في السعي وراء متع خيالية.

الآمال السرية التي تخالج البدوي محدودة أكثر من آمال العربي ساكن القرى (أي الحضري). فإن كان فقيراً تمنى وأمل أن يمسي قادراً على نحر شاة أو خروف عند نزول كل ضيف على الحي، وذلك ليتساوى مع كل أفراد قبيلته. فإن ضحك له الحظ وحقق مناه، يسعى إلى اقتناء جواد أصيل أو جمل قوي، وثياب جيدة لزوجته وبناته. ما إن يحصل على ما يريد، يقصر آماله على التحول إلى بطل صنديد مشهور بسيفه وحُسن ضيافته. ولهذا السبب، يمكنني أن أقول واثقاً إنّ بين العرب من هو سعيد بحاله أكثر من الآسيويين الآخرين الذين ترتبط سعادتهم بشيء من البخل والتعالي فوق الآخرين.

يتعس البدوي عندما يفتقر ويشعر بنفسه عاجزاً عن إكرام ضيف دق بابه بحسب ما يبغي. عندئذٍ ينظر بعين الحسد إلى جيرانه الأغنياء، ويخاف همسات أصدقائه وغمزات أعدائه الذين يعتبرونه عاجزاً عن إكرام ضيفه. لكن ما إن يتسنّى له عرض كرمه، يحس بنفسه مساوياً لأغنى المشايخ الذين لايجديهم غناهم قيمة ولا لذة.

العلوم والموسيقى والشعر

يتساوى كل بدو الصحراء العربية بالأميّة. لقد تكبد القادة الوهابيون مشقة تعليمهم لمحو أميّتهم، فأرسلوا الأئمة إلى القبائل ليعلموا أولادها، لكن جهودهم لم تأتِ بنتيجةٍ، فبقي البدو الشعب الأميّ بإمتياز. وجدت بين سكان جبال الحجاز واليمن، الذين امتهنوا الزراعة، من يقرأ ويعرف القوانين ويلمّ باللغات أكثر مما وجدت بين سكان السهول. وهذه هي حال نجد حيث أقام الوهابيون المدارس في كل القرى وأجبروا الأهالي على تعليم أولادهم. في الدرعية، جمع متعلمون المعلومات القيمة حول حياة الصحراء كما ألّف العلماء المؤلفات المهمة التي تتناول المواضيع الدينية والقضائية والتاريخية وأي مخطوط تاريخي كان في مكة أو المدينة وقرى اليمن نُقِل إلى الدرعية. لا شك في أن مكتبة ابن سعود هي الأغنى اليوم بالمخطوطات العربية حول القضايا التاريخية.

أكثر ما لاحظت كان الفصاحة التي يقدّرها البدو. فالشيخ البارع في فنون القتال، الفارس الهمّام والكريم لا يؤثر أبداً في أفراد قبيلته إن لم يكن فصيحاً وخطيباً مفوهاً. فالبدوي لا يؤتمر بل يُلبّي النداء إن إقتنع به.

للشعر مكانة عالية في نفوس أهل البادية، ولهذا تجد كثيرين متمكنين من نظم الشعر العامودي وهم أميّون لا يقرأون ولا يكتبون. فتنتقل قصائدهم من لسان إلى لسان حتى تصل إلى من يدوّنها ويدقق في قواعد صرفها ونحوها فتكون صحيحة لا لبس فيها ولا خطأ. قام ابن سعود بتجميع كل الشعراء في الدرعية حيث كافأ المفوّهين منهم. والعرف في العرب يقول إن الشاعر إن مدح شيخاً أو محارباً صنديداً تلقى جملاً أو بعض الخرفان مكافأة له ويبقى العرب يتذكرون الهدايا التي كان الشعراء يحصلون عليها من الّذين يمدحونهم، لكنهم الآن لا يميلون إلى تقليد هذا الكرم الجامح.

أهل الإحساء، على الخليج الفارسي، هم أمهر من قال شعراً ولهذا تلقوا الهدايا والمكافآت أكثر من عرب نجد والحجاز.

الربابة آلة موسيقية وترية يُعزف عليها في كل أنحاء الجزيرة العربية وبادية الشام، رغم أن شكلها يختلف من منطقة إلى أخرى. في عرب نجد وسيناء، عار العزف على الربابة أمام جمعٍ من الناس، إذ العبيد وحدهم يقومون بهذا العزف الاستعراضي. وإن أراد العربي الحرّ المران علىَ الربابة، عليه فعل ذلك في بيته وسط عائلته فقط، لكني رأيت في الحجاز بدواً يعزفون على هذه الآلة أمام صحبهم.

الأسامر، أي الأغنيات الصحراوية البدوية، تسمع في كل نواحي البادية، لكن كل قبيلة

تختصّ بنوع معيّن من هذه الأسامر. خلال مكوثي في سيناء، سمعت الكثير من هذه الأغنيات ورأيت المغنين الذين أدوها في الليل.

بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من غروب الشمس، يتجمع الشبان والصبايا والنساء في الهواء الطلق خلف الخيام ويبدأون الغناء، فينضم إليهم آخرون. عندئذٍ، ينقسم الجمع فيأخذ الذكور صفاً يقابله صف الإناث على بعد ثلاثين خطوة. يقف أحد الشباب ويبدأ غناء بيت واحد من قصيدة، يردده مراراً وفق النغم نفسه. فيردد الجميع البيت نفسه على وقع تصفيق الكفوف وتمايل الأجساد، مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار وتتمايل الصفوف في رقصتها لتنحني من جانب إلى آخر، ويقوم الراقصون بالهبوط أرضاً على ركبةٍ واحدةٍ. كل ذلك وفق النغم المعروف. في هذه الأثناء، تقف فتاتين أو ثلاث وتتقدم من صف الذكور وعلى رؤوسهن الملاءة، بخطوات خفيفة راقصة. وبعد قليل، تصبح حركاتهن حيوية أكثر لكن دون خرق قواعد الآداب والتهذيب. فيستخدم الرجال كلمات وعبارات، تقاطع الأغنية، هي نفسها التي تستخدم لحث الجمل على القيام والمشي والأكل والشرب والتوقف. لا يوجه الرجال الكلام مباشرةً إلى الفتيات بل يطلقون عليهن أسماء الجمال ويدعوهن للاقتراب من أجل الشرب: «قوم يا حمل» و«سوق» و«الجمل تعبان وعطشان» و«قرب حتى نعلّق لك». وتدب الحماسة في صدور الشبان فيخلعون الكوفيات ويرمونها أمام الصبايا على أنها طعام الجمل. حين تقترب الفتاة الراقصة وتتمكن من التقاط إحدى الكوفيات ترميها إلى صاحباتها. وعند انتهاء الرقصة على صاحب الكوفية تلك أن يدفع المال للفتاة مقابل ماله عندها. مرّة استرجعت منديلي بعد أن قدمت للفتاة سبحة من اللؤلؤ وقلت لها إنها مصنوعة لتوضع في عنق الجمل من أجل حمله على الوقوف، فراق لها ووضعته فوراً حول عنقها. وبعد قليل، تأخذ فتيات أخريات مكان الراقصات وتستمر هذه السهرة حتى ما بعد منتصف الليل. الرقصة المستمرة ساعات خمسة أو ستّةَ والأغنية التي ترافقها تؤجّجات المشاعر في نفس العاشق خصوصاً عندما يرى محبوبته المحجّبة ترقص بتثاقل، فيجود هو شعراً وغناءً دون أن يعرّض نفسه لأي ملامة(*).

إن غضبت الفتيات من الشبان لأي أمرٍ رفضن الخروج والرقص أثناء احتفالات الغناء، كما أني رأيت فتيات يغنين وحيداتٍ دون شبان.

هذه الأغنيات أو المسامر عامة بين القبائل برغم الاختلافات في صياغتها وفي غنائها. الأغنية عادة تكون حاملةً دلالات عديدة على جمال وميزات الفتاة الراقصة. حين يكون الشبان في

(*) هذه الرقصة الرصينة تتعارض تماماً مع التمايلات المشينة التي تقوم بها الفتيات المصريات أثناء الرقص، ومفضّلة كثيراً على الرقصات المصرية والسورية.

الحي، تستمر المسامر لليالٍ عديدةٍ طوال أشهر. أحياناً، ينضم المتزوجون والمتزوجات إلى الحفل. وقد يقطع الشبان ساعات سيراً على الأقدام للاشتراك في حفلات تقوم بها قبائل مجاورة. وهنا تجدر الاشارة إلى ضرورة عدم الوقوع في فخ الالتباس بين المسامر والمزامير(*).

أغنية سائق الجمل

في الحجاز ومصر، سمعت الكلمات التالية وكانت أفضل ما في الأغنية:

«ما يرحل الرحلات الطويلة إلا الشجاع والجمل البالغ».

الاحتفالات والأعياد

في العادة، يتوافق أفراد العائلات جميعاً على إجراء عملية ختان جماعية لكل الذكور الصغار. وبعد ذلك، يذبح كل رجل خروفاً أو شاةً على شرف ولده، وتحتفل القبيلة كلها إلى جانب الغرباء الذين حضروا للمشاركة في هذه المناسبة الاحتفالية. في عيد رمضان وحين التضحية على عرفات، يتسابق الجمّالون وتغني النساء بصوت عالٍ. وفي هذا العيد، يسمح عرب سيناء لبناتهم بالكشف عن وجوههن لشباب القبيلة الذين يمرون على جمالهم. فما يكون على الفتيات إلا رفع الحجاب قليلاً ليسرق الشبان نظرة من عيونهن. وبعد هذا الاحتفال، تُطلب الفتيات من الآباء للزواج. أما الفتيات اللواتي يغلب عليهن الحياء فلا يشاركن في هذا الاحتفال بل يبقين في الخيام.

تقلّ أحياء القبائل البدوية التي ليس بجانبها قبر شيخ فاضل صالح أو إمام تقي، ليرفع إليه أهل الحي والأحياء المجاورة النذور. تزار هذه القبور مرّة في السنة ويضحّى بجانبها بالأضاحي الكثيرة جداً لوفاء نذور السنة المنصرمة، التي رُفِعَت ابتغاءً لمولود ذكر أو لذرية أصيلة من الجياد أو الجمال(**).

يتحول يوم زيارة قبور هؤلاء الشيوخ يوماً احتفالياً يعم القبيلة كلها، كما الجيران. فترتدي

(*) تغني نساء قبيلة عليجات في جبال سيناء.
«يا نساء عليجات، ما يساويكن حد
أنتن الجنة والرجال الأرض التي عليها ندب».
وسمعت بدوياً مغربياً يغني غناءً غريباً، معناه:
يا غالية، لو كان أبي حماراً لبعته كي أشتري غالية».

(**) يعتقد البدو أن هؤلاء المشايخ يتوسطون لهم عند السماء في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى. لكن الوهابيين رفضوا هذه الاعتقادات ويحاولون أن يحضوا الناس على عدم الإيمان بها. وتكون قبور هؤلاء المشايخ في قمم الجبال.

النساء أبهى الحلل ويجلسن فوق جمالهن المزينة. في كل مناسبة، ينتهز البدوي الفرصة لكي يتباهى بزوجته وحلّتها الرائعة، ويحرص على أن تكون أجمل من كل نساء القبيلة في الثياب والحلي، بينما يرتدي هو الأسمال أو الثياب الكافية لحمايته من البرد والشتاء أو الحرّ، لا أكثر.

الأمراض

كُثُرهم بدو الحجاز وخصوصاً، قرب مكة والمدينة، الذين يعانون من أمراضٍ يلتقطونها عند معاشرتهم بنات الهوى. لكن هذا لا يحصل في حلب أو دمشق. حتى في الحجاز، تطرد بنات الهوى من الأحياء. كما أن البدو الذين يزورون القاهرة يعاشرون نساء تلك المدينة ويصابون بعدوى أمراض عديدة.

التلقيح

بعد جهود كثيفة لإدخال التلقيح إلى مصر، لم يدخل هذا التلقيح ولم يعم في سوريا إلا عام ١٨١٦ حين نجح طبيب سوري في تعميمه بين المسيحيين. لا بلاد في الشرق تحتاج إلى التلقيح أكثر مما تحتاجه مصر وخصوصاً مصر العليا حيث يعتبر الجدري مرضاً أخطر من الطاعون لأنه أكثر حدوثاً.

عُرِضَ الأمر على محمّد علي باشا كي يأمر شعبه في البادية ليتلقوا اللقاح، لكنه كان كما الحكام الأتراك الآخرون لا يستمع إلا إلى صوت مصالحه الخاصة. العلاجات الأغرب هي تلك التي يميل إليها الآسيويون ويؤمنون إيماناً كلياً بفاعليتها. رأيت بأم العين أعرابياً يتناول كوباً كبيراً من بول الجمل لأن حكيماً (أو حلاقاً) في مكة أخبره أن هذا علاجه من ضيق التنفّس الصدري. وآخر نُصِحَ أن يَقْصُرَ غذاءه على كَبِدِ الجمل النيء، ففعل ذلك حتى وافته المنيّة بعد يومين إذ الحرّ الشديد يؤثر في اللحوم النيئة فلا تعود صالحة للأكل.

عادات تتصل بالزواج

ما سوف أُضيفه في هذا الباب متعلق أساساً ببدو طور سيناء إذ عشت بينهم طوال شهرين في ربيع عام ١٨١٦، في وقت كان الطاعون يضرب القاهرة.

بعد تسوية كل الأمور بين والد الفتاة وطالب يدها، يقدم الأب للعريس غصناً أخضر صغيراً يعلقه على سترته أو قميصه ثلاثة أيام، وهذا إعلان للجميع أنه نوى اتخاذ إحدى العذارى زوجة له.

فإن كان ينوي الزواج من أرملة، فلا غصن أخضر.. لا تعرف الفتاة ما سيصيبها في انتقالها من بيت والدها إلى بيتٍ آخر هو بيت زوجها إذ أن أحداً لا يتكلف عناء سؤالها رأيها أبداً. فحتى لو كانت لا تميل إلى العريس، عليها الانصياع له، على الأقل في الليلة الأولى لكنها حرّة في اليوم الثاني أن تعود إلى خيمة أبيها ـ لكن بين العرب الأغنياء كبني عنيزة، والمطيّر في نجد والعتيبة في الحجاز، لا يتلقى الوالد حق البنت ولهذا تستطيع هذه أن ترفض طالبها.

عادةُ عرب سيناء أن تصل العروس إلى الخيمة مع القطيع، فيلتقيها العريس وقلّة من أصدقائه، فيحملونها بالقوة إلى داخل خيمة أبيها. أحياناً، تصدهم الفتاة وترميهم بالحجارة فتصيبهم بالجروح إن خالجها شك ما، حتى ولو كانت لا تكره العريس: لكن العادة تقول إنها كلما ضربت وركلت وعضت تلقت الهتاف والتصفيق لاحقاً. أخيراً، يحملها الشبان ويدخلونها خيمة والدها لتجلس في الحريم، ويسارع أحد أصدقاء العريس ويغطيها بعبا أو منديل كبير ويقول «ما يغطيك إلا فلان»، وفلان هذا هو العريس. وتكون تلك هي المرّة الأولى التي تسمع فيها العروس اسم عريسها أو تعرف هويته. بعد ذلك، تلبس الوالدة ابنتها الحلّة البهية التي قدمها العريس، وتخرج إلى حيث ينتظرها جمل مزّين بأجمل الزينات يدلّ على مكانة العريس وثروته، فتعتليه ويمسك بها أصدقاء العريس من الجانبين، يدورون بها دورات ثلاث حول الخيمة ثم يقودونها إلى حيث العريس ينتظر بفارغ الصبر في محرّم خيمته.

إن كان حي العروس بعيداً من حي العريس، تركب الجمل فوراً بعد تغطيتها بالعبي وتقاد إلى حي الزوج.. في هذه الأثناء، تكون هي باكيةً حزناً على فراق والديها وأخوتها. تبقى في خيمة العريس أنثى واحدة بينما النساء الأخريات يجتمعن خلف الخيمة ويغنين الأغنيات الصاخبة. في هذه المناسبة، تُذْبَحُ الخراف الكثيرة(*) ويتناول الضيوف الحاضرون الخبزَ واللحم. وفي آخر الليل، يتمكن العريس من الافلات بكل لباقة من أصدقائه ليدخل غرفة الحريم فيتم الزواج فعلاً، ولكن تكون العروس ما تزال باكية بصوتٍ عالٍ(**). ويترك العريس حذاءه خارج الخيمة إعلاناً عن وجوده فيها.

(*) يجب أن يسيل دم الخراف على الأرض إذ يعتقد بنو حرب في الحجاز أن هذا الدم يتمم الزواج. لكن يختلف البدو الآخرون حول هذا الأمر. في مصر، ما يزال الأقباط يذبحون خروفاً عند دخول العروس إلى بيت عريسها وعليها أن تخطو فوق الدم المراق أمام العتبة.

(**) قيل لي في مناطق عديدة إن العريس يضطر أحياناً إلى ربط العروس وتكبيلها وضربها بالحزام لكي تنساق له ولشهواته. الحاجة إلى التمدن متركزة في هذا الحقل، أي في حقل العلاقة بين الرجل والمرأة. في عرب مصر العليا عادة خاصة: ليلة العرس، يتقدم العريس من عروسه ومعه امرأتان، تخرجان لاحقاً ومعهما إثبات عذرية العروس. فلا يعود العريس إلى عروسه قبل الليلة الثالثة.

في اليوم التالي، يصل رب كل عائلة يسوق نعجة أو خروفاً هديةً للعروس فيذبح منها خروف أو خروفان من أجل الاحتفال والطعام. ويرفض المشايخ الأغنياء تزويج بناتهم إلا من القادرين على إعالتهن ومن القادرين على دفع مهرهن قبل الزواج.

إن تم هذا الزواج بخلاف إرادة الفتاة كلياً، تستطيع في اليوم التالي أن تعود إلى خيمة والدها. فهذا حقها ولا يستطيع أحدٌ أن ينتزعه منها.

أما زواج الأرملة والمطلقة فلا يشهد احتفالاً مماثلاً. فالمرأة حينها لا تُلَفُّ بالعبا ولا تقاوم أصدقاء العريس. وإن كان هذا العريس متزوجاً، لا يقام أي احتفال أبداً.

أما إذا كان عازباً، فتقاد العروس في موكبٍ من خيمتها إلى خيمته، لكن دون ضيوف، ولا يوزع خبزاً لأن هذا التوزيع أحد ميزات عرس العذراء. فالعرب يستخسرون الاحتفال في عرس الأرملة ويعتقدون أن حضور المحترمين يجلب لهم العار. طوال شهر بعد الزواج، لا يأكل الزوج من زاد زوجته ولا من أوانيها التي جلبتها معها، وتدعى، كما كل ما يخصها، قران. ويميل العرب إلى الاعتقاد بأنّ الإخلال بهذه القاعدة يجلب النحس، وحين يُعِدُّ زوج الأرملة القهوة، يأتي كل أعرابي بكوبه الخاص خوف أن يكون بين أكواب العريس واحد يخصّ زوجته الجديدة.

على العروس العذراء أن تحبس نفسها داخل الخيمة لأسبوعين لا تخرج إلا ليلاً. أما إذا تغيّب زوجها خلال هذه الفترة اضطراراً، فتستطيع أن تختصر من الأسبوعين قدر ما تشاء، يحصل العرس عادة مساء يوم الجمعة.

يختلف مهر البنت بحسب الظروف. فبين عرب سيناء يتراوح بين خمسة وعشرة دولارات، لكن قد يرتفع حتى ثلاثين دولاراً إن كانت الفتاة جميلة ومن نسب مشرّف. يدفع قسم من المال فقط ويبقى القسم الآخر ديناً. يتلقى والد الفتاة المال أو أخوها حين يكون والدها متوفى. ومن يحقّ له تلقي هذا المال يصبح سيد العروس والمتصرف بأمرها. حق العزباء (أو الأرملة) يبلغ نصف ما يحق للعذراء لا أكثر، وفي منحى عام لا يزيد على ثلثه، يتقاضاه سيّدها.

عادة لم أعرفها بغير قبيلة مزينة النازلة على حدود سيناء هي التالية: مسموح للفتاة التي تلف بالعباءة ليلاً أن تفر من خيمتها إلى الجبال القريبة. فيذهب العريس في إثرها في اليوم التالي فيغيب أياماً قبل أن يعثر عليها. في هذه الأثناء تكون صديقاتها على علم بمخبئها فيزودنها بالطعام. وحين يجدها الزوج يفترض به إتمام الزواج ـ جنسياً ـ في الهواء الطلق أي أن يبقى معها خلال الليل في الجبال. في الصباح التالي، تعود العروس إلى خيمتها لتأكل، ثم تهرب ثانية في الليل.. تتكرر هذه المسألة مراراً حتى تعود العروس نهائياً إلى خيمتها، ولا تدخل خيمة

زوجها إلا بعد أن تحمل، عندئذٍ تستقر معه. إن لم يحصل الحمل، عليها أن تبقى في خيمة والدها عاماً كاملاً قبل أن تتمكن من الانضمام لزوجها. سمعت أن هذه العادة تسود في المزينة النازلة في الحجاز قرب نجد. في عرف قبيلة الجبليّة، وهي حديثة الأصول في سيناء، تمضي العروس مع عريسها ثلاثة أيام قبل أن تهرب في الجبال وينطلق زوجها يبحث عنها.

الطلاق

ذكرت قبل الآن شيوع الطلاق وسهولة حصوله بين البدو، كما بين قبائل سيناء. إن أراد بدوي من سيناء أن يطلق امرأته دون سبب وجيه ودون أي دليلٍ على سوء سلوكها، عليه أن يقدم لها بين ٦ و٨ دولارات وشاةً ودستاً من النحاس ومجرشةً وغير ذلك من عدّة الطهي، كما يتخلى عن مهرها الذي دفعه عندما تزوج منها. أما إذا غادرت المرأة زوجها من نفسها، فلا تتلقى شيئاً، ويتخلى ذووها عن مؤخر المهر الذي لم يدفع بعد، لكنهم يحتفظون بمقدم المهر.. ويقول العرب إن هذا المال هو تعويض للعائلة على حصول مطلقة بينهم لا عذراء.

عرب سيناء يرفض تطليق الزوجة الهاربة، هذا الطلاق هو الوحيد الذي يحررها ويسمح لها بالزواج ثانية. لكنه أحياناً يفرض على أصدقاء زوجته الهاربة أن يجدوا له امرأةً أخرى ويتزوجها ويدفع مهرها قبل أن يتلفظ بكلمتين سحريتين «أنتِ طالق» لزوجته الهاربة. وتسري عادةٌ بين عرب مصر العليا تقول إن المرأة التي تطلب الطلاق من زوجها تتخلى عن متاعها وثيابها كلها، كما يقوم هذا الزوج بحلق شعر رأسها قبل أن يصرفها من بيته.

يُجمع البدو كلهم على أحقيّة ابن العم بابنة عمه فلا يقدر والدها على ردّ ابن أخيه خائباً، ويتقاضى منه مالاً أقل مما يتقاضى من الغريب. لكن عرب سيناء قد يزوجون بناتهم من أغراب في غياب أبناء أعمامهن. وهذا حصل لدليل كنت اعتمدت عليه في سفري من السويس. وما إن وصلنا إلى حيّه، كان تواقاً للزواج من ابنة أحد أعمامه. وكان طوال الرحلة يروي لي كيف سيكون الاحتفال بالزواج وأراني كل الثياب والحلي التي اشتراها لعروسه المحبوبة. لكنّ دليلي أصيب بالخيبة والحزن حين علم أن الفتاة زوّجت من آخر قبل ثلاثة أيام. وتبين فيما بعد أن والدة الفتاة كانت تكره الشاب وهي من حمل الفتاة على اختيار غيره بعد أن أساءت إلى سمعته. تقبّل الشاب الوضع بشجاعة ورجولة، وبدأ يحضر لردّ الصاع صاعين للصهر وحماته. وليؤمن الشاب على عروسه من ظروف مشابهة، يقوم بدفع حقّها مسبقاً لرجلٍ محترم في القبيلة ويضع عليها أربعة حراس من أبناء قبيلته. وهكذا، لا تستطيع الفتاة الزواج من رجلٍ آخر بغير إذنه، أكان حاضراً أم غائباً، ويقدر أن يتزوجها متى أصبح مستعداً للزواج. ممكن أن يتم هذا الاتفاق قبل أن تبلغ الفتاة سن البلوغ بسنوات عديدة.

البدو هم الشعب الوحيد في الشرق الذي يمكن أن يقال إنه عاشق حقيقي. فهم يتكلمون عن الحب دوماً دون غيره لكني أشك إن كانوا يعنون بالحب غير الحب الغريزي الحيواني. لم أشهد بينهم أية حادثةٍ فيها مثابرةٌ عاطفية وسط المحن والشدائد؛ بل على العكس من ذلك، يظهر معظم الرجال لامبالاتهم بعد المتعة. إن عزلة النساء لا تسمح لهن بالتعرف عن قرب إلى طباع العاشقين، ومتى لا تتقارب العقول صعب جداً أن يحل شعور الحب بين الشخصين. وهذا هو الفارق برأيي بين الحب العذري والحب الغريزي. ففي القصائد الغزلية التي ينظمها العاشق القرويّ لمحبوبته، نستطيع فوراً التمييز بين أبيات الحب العذري وتلك التي تحاكي الغريزة. فبدلاً من تبيان صفات المحبوبة الأخلاقية يكتفي الشاعر بوصف الجسد وبالاعتراف بالرغبة الجامحة في امتلاكها. قليلة هي القصائد التي يمكن أن يتقبلها الأوروبي المثقف بسبب الإفراط في توصيف مفاتن المرأة المكشوفة والمحجوبة.

تأبى الفتاة البدوية أن تظهر لأي شاب ما تكنه في نفسه تجاهه، مهما غلا حبّه في قلبها بل تعلن له عكس ما في صدرها وذلك محافظةً على عفافها وشرفها. فهذه المحافظة هي التي تمكنها من قلبه إذ لها تأثير السحر على رجال الشرق عامة.

يجدر الذكر أن عادة الطلاق لا تدعّم التوافق التام والطويل، لكني أرى من واجبي أن أعزوه إلى طباع البدو، أكثر من أي حاجة إلى الاحساس تعوزهم شخصية البدوي[١].

كما في كل عائلات الدنيا، تحدث المشكلات بين الرجل وزوجته. وبما أن أمراً لا يبقى ضمن الخيمة التي لا تقفل أبداً، ينتقل خبر النزاع إلى الجيران فينقسمون بين الرجل وامرأته. تغلب فصاحة وثرثرة النساء منطق الرجال، لكن الرجل لا يحتمل أن يرى نفسه مهاناً أمام الجميع بسبب لسان زوجته، فيغضب ويثور ويتلفظ بالكلمات القاسية: «أنت طالق»، فيتم الطلاق الذي لا رِجعة فيه. عندئذٍ يصيح من اتخذوا صَفَّهُ في النزاع: «حسناً فعلت.. أنت رجل فعلاً». وبدلاً من تهدئة الخواطر واستنكار هذا القرار المتسرع، يعترف البدو به ويقولون إن على الرجل نسيان عواطفه الخاصة حين يجدر به الانتقام لخطأ ارتُكِبَ بحقه علانية. غالباً ما تؤدي نوبات الغضب هذه إلى حصول الطلاق.. أحياناً يتزوج البدوي وكل همه تمضية بعض أسابيع المتعة مع زوجته الجديدة ثم ردّها إلى أبيها حين ترتوي شهواته التي لا تحسب حساباً

---

(١) في السنة الماضية ١٨١٥، قتل بدوي في سيناء نفسه خلال عرس مطلقته من رجلٍ آخر. ما إن اقترب العريس من خيمة عروسه حتى رفع هذا البدوي مسدسه وأنهى حياته. ويحكى قبل عشرين سنة أن فتاتين من بدو وادي فاران في صحراء سيناء، رمتا نفسيهما من قمة الجبل وانتحرتا لأن في تلك الليلة كان سيتم قرانهما من رجلين لا يحبانهما. سمّيت تلك القمة «حجر البنات».

للحب الحقيقي. لكنّ ثمّة حالات يستمر فيها الرجل والمرأة في إخلاص ومحبّة طوال حياتيهما.

طبيعي في البوادي والقرى الشرقية أن تسمع عبارة «عليّ الطّلاق» من فم البدوي ينطقها ليؤكد على صحة كلامه وعلى صدقه. فإن تبين خطأ وزيف مستخدم هذه العبارة أمام الشهود، ممكن أن يفرض عليه القانون طلاق زوجته. سعى القائد الوهابي جاهداً من أجل تخفيف حدّة حالات الطلاق وتقليل عددها بين البدو، ولهذا أمر بمعاقبة كل رجل يتفوه بجملة «عليّ الطلاق».

أحياناً، لكن بشكل نادر، يُعيد البدوي مطلقته إليه بعد أعوام قليلة تكون قضتها متزوجة من رجال آخرين. أما تعدد الزوجات فقليل بين البدو، إلا المشايخ الأثرياء لإمكانياتهم التي تسمح لهم بنصب بيتين إذ أن زوجتين لرجلٍ واحدٍ لا توافقان على البقاء طويلاً في خيمةٍ واحدةٍ معاً.

في مصر، تُزَوَّجُ الفتاةُ ـ أو نقول تُباعُ ـ للرجل الذي يدفع المهر الأعلى، وهذا ما يؤدي إلى قيام الصفقات الأكثر دناءة وقسوة على الاطلاق.

في الحجاز كما بين عرب البحر الأحمر يَنْدُرُ هروب زوجةِ رجلٍ مع رجلٍ آخر، وإن حصل استحقّت العقاب القاسي. وفي قبائل عرب البحر الأحمر، حين تهرب العذراء مع عشيقها، يتعرض هذا العشيق لخطر الذبح ـ أو الذبح فعلاً ـ بيد أقربائها في يوم الهروب نفسه، بدون أن يعرضوا أنفسهم للثأر. لكن إن قتلوه في اليوم التالي، يصبح دمه في ذمتهم وعليهم أن يتقوا طالبي الثأر.

هرب أعرابي من قبيلة طياحة مع متزوجة من القبيلة نفسها، فلحق به أخو زوج المرأة وجرحه جرحاً بليغاً، لكنه أبلّ من الاصابة وسوّيت المسألة. فقرر المحكمون أن يدفع الرجل الذي أغوى المرأة ستين جملاً للزوج ويقدم له عبداً وعبدةً وفتاةً حرّةً عوضاً من زوجته التي فرّت، فيتزوجها دون مهر، وجملاً هو نفسه الجمل الذي ركبه الخاطئان عند هروبهما، مجموع هذه الأشياء يسمّى غرّة، ولا يدخله مال أبداً. وهكذا، يفتقر الغاوي وأهله وأقرباؤه بسبب فعلته الدنيئة. وإذا قتل الرجل غاوي زوجته لا يطبق عليه البدو قانون الثأر.

الدفن

يدفن عرب الحجاز وضفاف البحر الأحمر ونواحي جنوب سوريا ومصر أفراد العائلات والأصدقاء في مدافن خاصة بهم، ولذلك ينقلون جثمان الميت أينما توفي إلى مدفنه، ويدفنون الأصدقاء فيها إن ماتوا ضمن حدود مناطقهم. يبدو لي ذلك تقليداً قديماً هنا. تقع هذه المدافن عادةً فوق قمم الجبال أو بقربها. وهذا الأمر أجده أيضاً في البدو النوبيين.

رأيت بعينيّ بعض أفراد القبائل في مصر العليا الإناث. قريبات أحد المتوفين يرقصن أمام بيته

وفي أيديهن العصي والرماح ويتصرّفن كما لو كن محاربات غاضبات. كما رأيت بين عرب مصر العليا وعرب الرواجح والجعافرة، نساء قريبات للمتوفى يحنّين اليدين والقدمين وينقطعن عن تناول الحليب وإدخاله البيوت ثمانية أيام إذ يعتقدن أن بياض هذا الحليب يؤثر على سواد حدادهنّ.

بعض بدو المنطقة الشرقية يدفنون مع الميت حسامه وقفطانه وحزامه، وذلك بعد أن يلفّوه بالعباءة. عرفت شيخاً من عرب عمران على الخليج الشرقي للبحر الأحمر يحمل كفنه حيث يذهب مخافة أن يموت فلا يدفن بالطريقة الصحيحة.

المذاهب الدينية

يؤمن البدو بالله لكنهم لا يعيرون الممارسات الدينية الاهتمام. صرف الوهابيون الجهود المكثفة لإعادة البدو إلى الإسلام. خوف العقاب دفع بالقبائل الواقعة مباشرة تحت نظر الوهابيين إلى الاهتمام بطقوس دينهم، لكن على طريقة «مكره أخوك لا بطل». وما إن تراجعت قوة الوهابيين تحت ضربات محمد علي باشا حتى عاد البدو إلى ما كانوا عليه من الاهمال. بعض بدو نجد واليمن دخل في المذهب الوهابي الجديد وتحمّس له، لكن الغالبية لم تناصره برغم التزامهم بنظام الحكم الذي أقامه هذا المذهب وتصنّعهم الحماسة والأصولية. حين توقف التأثير الوهابي في الحجاز على الأقل، انقطع البدو عن الصلاة نهائياً.

برغم كون البدو أمةً متسامحةً فعلاً ومعتدلة حقاً يعاملون المسيحيين، كما الأتراك، بفظاظة وجلافة إذ يكرهونهم بسبب نعومة ملمس بشرتهم وطول لحاهم. كما تمكنت من ملاحظة المسيحيين الذين تأقلموا مع حياة المسلمين وتحولوا إلى دينهم كما عرب السلط والكرك ووادي موسى. والباعة المسيحيون المتجولون الذين يزورون قبائل عنيزة، كل هؤلاء يتمتعون بحماية البدو واحترامهم، بخلاف ما يحصل لهم في مناطق العثمانيين.

مشايخ البدو المتصلون بالسلطات في البلدات التي بجوارها يضربون مضاربهم ويدخلون هذه البلدات ويقيمون فيها الصلوات ليكسبوا تقدير واحترام الآخرين.. أما العرب العامة فنادراً ما يصلّون داخل البلدات أو خارجها.

الحكم

كل الملاحظات السابقة حول الحكم البدوي تنطبق بكاملها على كل قبيلةٍ وأتيحت لي فرصة التعرف إليها. ليس للشيخ في القبيلة سلطة فعلية بل يحافظ على تأثيره فيها من خلال ثروته وفصاحته وشجاعته ونسبه النبيل. المجموعات العائلية التي تؤلف القبيلة مستقلةٌ، الواحدة

عن الأخرى، ويؤلف قُوّادُها مجلس القبيلة. وبينما يأخذ المشايخ على عاتقهم حلّ المشاكل الصغيرة واتخاذ القرارات الثانوية، يجب استمزاج آراء جميع أفراد القبيلة حين يتناول الموضوع أمراً مهماً. المؤكد أن علاقة مشايخ القبائل بحكام دمشق أو مصر أو الحجاز تسمح لهم بأن يكونوا مسموعي الرأي والكلمة داخل قبيلتهم فلا يخالفهم العرب خوفاً من وقوع محظور تضارب المصالح مع الحكام في المدن ومن تأثر حركة التجارة. لكن حتى في ظلّ هذه العلاقة مع مراكز القوى، لا يقوى الشيخ على تنفيذ آرائه وكلامه بالقوّة، ولذلك يجد أن لا مفرّ أبداً من احترام حرّية رأي العرب الآخرين. أعرف أن هناك قبائل مستقرّة في مصر لا تزال تعيش في خيامٍ، يستطيع شيخها أن يفرض العقوبات على أبناء القبيلة. لكن هذه القبائل لا تجمل مع بقية القبائل البدوية الأخرى موضوع هذا الكتاب. بالإضافة إلى ذلك، فما إن يقوم شيخ إحدى القبائل بزيارة مع وفدٍ من قبيلته إلى حي قبيلةٍ أخرى، ينصاع أفراد الوفد لتعليمات الشيخ من أجل تقوية مكانته، وخصوصاً عندما يكون هدف الزيارة التفاوض بشأن مسألةٍ ما فيحصلون على شروط أفضل. غالباً ما يصدق الحكام الأتراك هذه الخديعة إذ لا يقتنعون بقائدٍ ما لا يتمتع بشعبية وتأثير على أتباعه. لكن ما إن يعود الشيخ والبدو إلى الديار حتى يرمون القناع ويعود الشيخ إلى موقعه الطبيعي كفردٍ مثل بقية أفراد القبيلة، لا يتورع الآخرون عن صدّه والردّ عليه دون احترام.

أدرك محمد علي باشا حقيقة هذا الوضع من خلال تجربته الخاصة. فعندما أسس لسلطته في الطائف، انشغل في الحصول على الجمال من أجل حمل المؤن من جدة، وفي نيل نصرة مشايخ قبائل الجوار له. فوزع الأموال والسلاح على المشايخ ليندهش في ما بعد حين علم أن ليس لهؤلاء سلطة كاملة في ديارهم. وجد أن الأعرابي سيد نفسه، لا يؤخذ منه جمل دون موافقته أولاً، ولا يُجبر أبداً على اتخاذ صف الباشا الغريب برغم إرادته. ولهذا، ذهبت جهوده التي بذلها وأمواله التي وزعها على المشايخ أدراج الرياح. ولكن عرباً كهؤلاء، يمكن جمعهم مع جمالهم وحيث يعرّضهم قربهم من مكة والطائف لهجمات خيالة الباشا.

منصبُ الشيخ عند البدو ينتقل في العائلة برغم أنه ليس وراثياً أبداً. وقد وجد الوهابيون أن تغيير مشايخ القبائل التي لا تخضع لهم ضروري جداً إذ عرفوا أن بقاء المشيخة في عائلة هذا الشيخ الذي لا يناصرهم لن يقرب القبيلة من المذهب الجديد. فبادروا إلى نقل المشيخة من عائلاتها إلى عائلات محترمة أخرى، تطوعت لتساند الوهابيين بغية نيل ثقتهم ودعمهم في هذا الانتقال. نجحت هذه السياسة عامةً وتبناها القواد الوهابيون. وحين أعاد محمد علي باشا الحجاز إلى عهدته، أرجع كل المشايخ السابقين إلى مراكزهم وبذلك أوجد جبهةً واسعةً مناهضة الوهابيين.

كان للبدو قضاة في كل أنحاء الصحراء. أدرك القائد الوهابي سعود أن هؤلاء القضاة لا يحكمون بالعدل ويتقاضون الرشاوي فعزلهم في مناطق نفوذه وأرسل مكانهم قضاةً من الدرعية يتقاضون رواتب من السلطة، ويشتهرون حتى بين أعدائهم بعدلهم الذي لا شك فيه. أما القبائل التي لم تدخل في حزب الوهابيين فما تزال تحتفظ بقضاتها، وهكذا نرى لقبائل سيناء قاضيين أو ثلاثة. حين حصول نزاع فردي حول أمر ما، يعرض الخلاف على ثلاثة قضاة على التوالي، ويكون حكم القاضي الثالث هو النهائي الذي يجب على طرفي النزاع تنفيذه دون مناقشة أو رفض، هذا إن كانا لا يبغيان نقل الخلاف إلى الأرض ليصبح حرباً بين القبائل. ولكن السيف في النهاية يسوّي كل نزاع.

إن وقف مختلفان أمام قاضٍ، ينزعان كل سلاح بحوزتهما كدليل على تخليهما موقتاً عن حقهما في حل الخلاف بقوة السلاح والعراك الشخصي.

مركز القاضي متوارث في العائلة في بعض القبائل. وإن حصل وكان القاضي إنساناً سقيماً أو غبياً، يصبح الرجل الأكثر ذكاءً وفصاحةً القاضي الحقيقي.

ثمة عرف في عنيزة هو عرض الخلاف أمام المبشع، وهو نوع من المحاكمة بالتعذيب أو وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئاً أم مذنباً ولا أعرف إن كان هذا المبشع موجوداً في قبائل أخرى. لكن قيل إن عرب مطيّر، الضاربين بين المدينة ونجد، يتبعون العرف نفسه، لكن اضطروا إلى إلغاء هذا التقليد بسبب أوامر القائد الوهابي. أما في الحجاز فلا مبشع على الاطلاق.

أَلقَسَمُ أمرٌ في غاية الأهمية عند البدو، إذ يلصقون بهذا القسم قوة خارقة للطبيعة، برغم اعتقادهم أن الله عزّ وجل يرفض استخدام اسمه في القسم الأرضي ولو كان هذا القسم صحيحاً جداً. فالبدوي المدافع عن حقٍ يقبل نادراً جداً أن يُقسِمَ أمام القاضي أو أمام قبر إمام تقي، عندما يطلب منه ذلك، ويفضل التضحية بالقليل من حقّه على تحمل النتائج المخيفة لهذا القسم. في معاملاتهم اليومية، يلفظ البدو اسم الجلالة مئات المرات للتأكيد على معلومات خاطئة لكنهم يعتقدون أن لاخطر من ذلك طالما أن قسماً عظيماً لم يُقطع.

تقليد الوصي لا يعم في كلِ الصحراء، لكن كل عرب نجد يعرفونه ويفيدون منه.

الحرب

لبدو الجبال القليل من الجمال والجياد بالمقارنة مع بدو السهول ولهذا يعجزون عن القيام بالغزوات الكبيرة، ويفضلون عدم الدخول في الحروب. في الحروب الجبلية أخطار عديدة لا

تعرفها حروب السهول المفتوحة، فالسلب والسبي صعب جداً، والمسالك الجبلية لا يعرفها سوى ساكنيها. وبرغم ذلك، يندر حصول قبيلة في سلام دائم مع كل جيرانها ولا أستطيع فعلاً أن أتذكر أن قبيلةً واحدةً غير متخاصمة الآن مع قبائل أخرى. في العام ١٨١٦، كان عرب سيناء في صلح وسلام مع كل جيرانهم إلا الصوارقة النازلين بين غزة والخليل.

وهنا، أكرر ما قلته عن الروح القتالية في البدوي، فهو جبان، رعديد حين يكون مقاتلاً في الغزو من أجل السلب، لكنه مقاتل شديد الساعد شجاع حين يصدّ عدواً كالأتراك الذين دحروهم في مناسبات صدامية عديدة في الحجاز. إلا في معركة بيسل في ١٨١٥ مع محمد علي باشا الذي استخدم دهاءه بدلاً من قواه العسكرية. وبعد المعركة، وُجِدَ البدو موثوقي الأيدي والأقدام ومذبوحين، وهم الذين خرجوا من منازلهم بعد أن تعهدوا أمام نسائهم أنهم لن يفروا من وجه الأتراك أبداً. من يعرف البدو يدرك قدرتهم على إظهار الشجاعة المفرطة في الحروب، يُواكبها هدوء النفس والصلابة، بخلاف أعدائهم الأتراك.

المحارب البدوي ذائع الصيت في الصحراء الجنوبية، خلال مكوثي في الحجاز كان شاهر من قبيلة قحطان. فهو تمكن وحيداً من صدّ وقتل وجرح ثلاثين فارساً من فرسان الشريف غالب الذي قام بغزو الأراضي البدوية. وغالب نفسه المعروف بشجاعته وقوته قال: «لم يُعرف ساعدٌ أقوى من ساعد شاهر في بلاد العرب منذ زمان سيف الله (أي علي)». وفي مناسبة أخرى صدّ شاهر هذا وحده ثمانين فارساً بقيادة الشريف حمود حاكم اليمن.

كذلك اشتهر شيخ بني شمّر بالشجاعة والقوة ويدعى الجربا أو بنيّ. فعندما هزم عرب الرولا جيش محمد علي باشا عام ١٨٠٩، غطّى هذا الشيخ انسحاب فلول الأتراك بمساندة ابن عمه فارس الذي شاركه الكثير من المعارك في الصحراء، الشجاعة وقوة تأثير الشيخ هما ما يميزان الشيخ في القبيلة وخارجها.

ثمة أمرٌ واحدٌ يدعم القواد الغرباء في حربهم ضد العرب(*) فهؤلاء ليسوا معتادين على الحروب الدمويّة. فمتى يُقتل ١٠ أو ١٥ رجلاً في نزاع مسلح، يعتبر هذا الأمر حدثاً مهماً لا يُنسى. لكن حين تكون الحرب في سبيل استقلال الرأي والحرية بوجه غريب، لا ينثني البدو عن القتال حتى لو سقط منهم مئات القتلى والجرحى، إذ يتأقلمون مع مبدأ الخسارة في هذه الحال أكثر مما يتقبلون الأمر في حروبهم الصغيرة حول الآبار والمراعي. ومثالاً على ذلك نسوق

(*) لكن هذا القائد الغريب يجب ألا يُصاب بالغرور أبداً آملاً أن يضم البدو تحت سيطرته. أما إذا سألت لماذا يحاول القائد الغريب أن يسلك هذا المسلك، يكون الجواب مقتطفاً من لسان ابن سعود الذي قال: «الحسد والغيرة لا توفّران الذين يسكنون الخيام المهلهلة في الجبال».

مثال عرب عسير الذين تصدوا في المعركة التي ذكرنا، معركة بيسل، لمحمد علي باشا. فبعد أن خسرت القبيلة خمسماية من رجالها، تمكن شيخها تامي من الهرب مع خمسة آخرين، وتحضّر خلال أربعين يوماً للقاء الأتراك في أرضه في معركة أقل دموية لكن أكثر تخطيطاً من الأولى. فأتت النتائج لسوء حظ العرب بوقوع تامي أسيراً بقبضة أعدائه.

ما إن تقرر القبيلة القيام في حملةٍ ما، يتولى أمرها عقيدٌ لا أعرف الكثير عن مركزه وعن قوته. في هذه الأثناء، يصبح شيخ القبيلة رجلاً عادياً لا رأي له ويسلم الجميع القيادة لهذا العقيد. لكل قبيلة عقيد إلى جانب الشيخ، ويندر اجتماع المركزين في رجلٍ واحدٍ. أو على الأقل لم أعرف عن حالة اجتمع فيها المركزان في شخص واحد مع أن بعض العرب أشاروا إلي بأنهم عرفوا شيخاً هو العقيد بين عرب البصرة. مركز العقيد متوارث داخل العائلة من الأب إلى الابن. ويقول العرب إن الحملات التي يقودها المشايخ لا تنجح ولهذا يولون أمرهم إلى العقيد الذي تتوفر فيه كل صفات الشجاعة والدهاء الحربي.

حين ينضم الشيخ إلى الحملة، يصبح مرؤوساً أي ينفذ أوامر العقيد الذي يفقد كل قوته ما إن تعود القبيلة إلى ديارها. عندئذٍ، يستعيد الشيخ موقعه. قد يكون رجلٌ واحدٌ عقيداً لقبيلتين اثنتين إن كانتا صغيرتين ومتجاورتين متحالفتين. وهكذا نجد في عرب سيناء عائلةً من عائلات ولد سيّد يخرج منها عقداء جميع القبائل الموجودة هناك.

ينظر العرب إلى العقيد على أنه قديس. فهو يحدد تفاصيل الحروب وخططها من خلال الرؤى والوحي والحلم، وهو الذي يعلن اليوم الصالح للهجوم. وحين يعجز العقيد عن اتخاذ القرار المناسب، يطلب مشورة قوّاد جيشه حين يرى ذلك مناسباً. لكن العرب لا يخالفون رأي عقيدهم ولو سيّرهم بحسب تقديراته وآرائه الخاصة.

يؤمن العرب أن طفلاً من عائلة العقيد يصلح، يوماً ما، لقيادة القبيلة، على افتراض أن فيه إلهاماً إلهياً. ويحكى عن قبيلة بني لام في نجد أنه لم يبق في عائلة عقيدها ذكر واحد إلا يتيم صغير يعيش في كنف أخته الكبرى. وكانت كل حملات هذه القبيلة بقيادة شيخها تعود مقهورة. عندئذٍ، اجتمع الأعيان وقرروا أن استمرار هذا الحال سيؤدي إلى افتقارهم وضعف القبيلة ولهذا يجب أن يقودهم عقيدٌ حقيقي. طلب المجتمعون من الأخت تحضير جملٍ تركبه ويركب أخوها خلفها، فينضمان إلى القوات التي تستعد للقيام بإحدى الغزوات. لكن هذا الولد رفض ركوب الجمل خلف شقيقته رفضاً قاطعاً وضربها وصاح: «أأنا عبد لأركب خلف امرأة؟ أنتِ اركبي خلفي». رحب العرب بهذا الأمر واعتبروه فألاً حسناً، وتبعوا عقيدهم الصغير الذي قادت أخته الجمل من خلف، فكانت الغزوة موفقة جداً.

تختلف حصة العقيد في الغنائم بين قبيلة وأخرى. ففي بعضها يكون له حصتان وفي أخرى ثلاث حصص. أما الشيخ، فمتى انضم إلى الحملة كانت حصته مساوية لحصص الآخرين. وكما سبق وذكرت، العقيد موجود في كل قبيلة، حتى في بدو العبابدة والجعالين في النوبة. في فضخان كبيرة قبائل عنيزة، ضويحي ابن غبين هو الشيخ وهجرس ابن غاسل هو العقيد. وفي قبيلة ولد علي الشيخ هو إسمير والعقيد طيّار.

إن كان العقيد رجلاً مرموقاً عالي الجانب، يؤثر جداً في أحوال قبيلته حتى في أيام السلم. برغم أن صوته ورأيه ليسا بقوة صوت ورأي الشيخ لكن يُسأل عن رأيه في المسائل المصيرية والمعقدة. لكن هذا لا يميزه عن نظرائه الشجعان الأقوياء في القبيلة.

قد ينجح عربيّ بقيادة بعض أفراد عائلته في غزوات عديدة فينضم إليه أصدقاؤه. إذا استمر نجاحه اكتسب سمعةً جيدةً واعتبر محظوظاً وأصبح قائداً في المرتبة الثانية، يقود بعض الغزوات المتفرقة. أما حين اجتماع كل القبيلة في حملةٍ ما، لا قائد لها سوى عقيدها الأصلي.

لا يملك هذا العقيد سلطاناً على العرب أكثر من الشيخ فلكل أعرابي حرّيته في الانضمام إلى العقيد أو الرفض. لكن ما إن ينضم العربي إلى عقيده، وجب عليه تنفيذ الأوامر الصادرة منه، وإلا استغنى العقيد عنه. وفي هذه الحال، يخسر الأعرابي حقه في الغنيمة التي تكسبها الحملة.

تعود جذور عرف العقيد دون شك إلى حكمة المشرّع الذي استنّ القوانين في الجزيرة العربية. فهذا كان يود معرفة أي تصاعد في القوى في شخص قائد القبيلة. فعن طريق منعه من قيادة القبيلة ساعة الحرب، يمنعه من التأثير في اقتسام المغانم واقتطاع القسم الأكبر منها لنفسه بحجّة كونه القائد حتى لا يغنى على حساب الآخرين. فهذه الثروة التي يجمعها تقوّي مركزه داخل القبيلة، فيصبح حاكماً مطلقاً عليها.

من يقرأ تاريخ الشرق يرى الأمم التي يقودها حكامها في الحرب، يلومه هؤلاء القواد عند خسارةٍ ما. لكن هذا ليس حال البدو. فالبدوي لم يفكر يوماً بأن مركز العقيد هو الذي يقابل فعلاً ويوازن مركز الشيخ في القبيلة. إذ يعرف أنه ما دام قادراً على ركوب فرسه وعلى حمل سيفه، منيع جداً من محاولات استعباده والانتقاص من حقوقه المشروعة. ففي الحرب ينفذ الأعرابي أوامر عقيده الذي ينظر إليه على أنه متلقي الإلهام من الرب، وفي السلم يعود إلى كنف شيخه دون التخلي عن الحرية الخاصة أبداً.

عزز القائد الوهابي موقع العقيد في القبائل الموجودة في أراضيه. حتى أنه سخّره لمصالحه الخاصة. فجمع عقداء القبائل التي لا توافقه في الدرعية لمنعهم من العمل ضده إذ كان متأكداً أن تحالف العقداء يؤدي دوماً إلى انتصارٍ للبدو لا مفرّ منه.

إلى جانب العقيد، تختار القبيلة الخارجة من الحرب أكثر رجالها احتراماً ليكون الكفيل الذي يتولى فض النزاعات القائمة بسبب اقتسام المغانم. ويراقب أن لا أحداً يتلاعب أو يحاول إخفاء شيء من الغنائم.

ويحصل الكفيل على حصةٍ تساوي حصة العقيد، لكن هذا المركز ليس موجوداً في كل القبائل. وجدته دوماً في قبيلة جهينة في الحجاز.

الهجمات الليلية على الأحياء شائعة جداً في الحجاز، برغم أن العنيزيين يعتبرونها مُشينة. فمن أجل مفاجأة إحدى القبائل، يحصل الهجوم في الساعات الأخيرة قبل بزوغ الفجر إذ يكون الجميع نياماً في هذا الوقت. لا يعرف البدو الحراسة الليلية برغم أهميتها في نظام حياتهم هذا. لكن حين يعرف أهل الحي بغزوة متوجهةٍ إليهم، يسهر جميع الذكور مسلحين بجانب النار طوال الليل. القائد الوهابي، الذي تُظهر كل تشريعاته الحكمة والدهاء اللذين يتميز بهما، كان يرسل الخفراء للحراسة متى علم بتحرك إحدى القبائل. وأخبرني رسول طوسون باشا عام ١٨١٥، إلى عبد الله بن سعود للتفاوض أنه التقى حراساً وخفراء وخلفهم دوريات مسلحة على بعد ميلين من مضارب عبد الله؛ وأن الحرس الوهابي كان يعرف أصدقاءه من أعدائه بواسطة كلمة سرّ كانت في تلك الليلة «نصر». أما الأتراك، ومحمد علي، فلم يتعلموا من تجارب حروبهم مع الأوروبيين أهمية الحراسة كاحتياط مسبق ضد الهجمات المفاجئة والفاعلة. ولهذا بقيت خيامهم الواقعة على مبعدة ٦ ساعات مفتوحة لكل هجوم مفاجيء.

تعامل النساء بكل احترام في الغزوات الليلية أو النهارية، فلا يتعرضن لأي أذى أو اعتداء أبداً. فلم أسمع بحادثة واحدة من هذا القبيل. أحياناً، يسرق منهم المهاجمون الحلي، لكن هؤلاء اللصوص يجبرونهن على خلعها بأنفسهن ولا يقربونهن. وقد أكد الوهابيون على ضرورة عدم الاقتراب من النساء بل على ضرورة البقاء على مبعدة منهن خلال سلبهن وعدم النظر إليهن بل غض الأنظار. في نزاع بين عرب معزي وعرب سيناء عام ١٨١٣، جرح عربي من معزي امرأة من سيناء، لكنها تعافت من الجرح. وفي السنة التالية، فاجأ عرب سيناء حياً لمعزي قرب قصير وقتلوا منهم عشرة رجال. وفي طريق عودتهم، تذكر أحدهم الجرح الذي أصاب المرأة في السنة الماضية، فعاد وهاجم النساء اللواتي كن ينتحبن أمام الخيام وجرح إحداهن انتقاماً لإبنة قبيلته. صفق له رفاقه لفعلته هذه ثم أكدوا أنهم لن يقتدوا به أبداً لما فعله. هذه هي الحادثة الوحيدة من هذا النوع التي بلغتني.

لبدو سيناء عادة خاصة بهم يفتتحون بها الغزوات. فما إن يصل رجال القبيلة إلى مكان اللقاء الأول حتى يكدسوا الحجارة لتتخذ شكل جمل ساجد ثم يتحلقون حوله ويقرأون

الفاتحة. وعندما يأمرهم العقيد، يسرعون إلى جمالهم ويبدأون المسير دون أن ينظروا خلفهم حتى يقتربوا من مكان الغزو. ما عرفتُ أبداً معنى هذا التقليد الذي ينظر إليه البدو على أنه نوع من التعزيم الباطني.

حين يتواجه فرسان قبيلتين متعاديتين، يقفون بعيدين من متناول البنادق. وتبدأ المعركة بإشتباك فارسين، يترك فارس صفوفه ويتقدم من أعدائه صارخاً: «يا فرسان أريد فلان يواجهني». إن كان هذا الفلان حاضراً ولا يخاف القتال، تقدم. وإن كان غائباً يصيح أصدقاؤه أنه ليس موجوداً. عندئذ يصيح الفارس المتحدي: «وأنت يا راعي السودا من تكون؟» فيجيبه الآخر «أنا فلان ابن فلان» فيتعارفان ثم يبدآن القتال، ولا يتدخل الآخرون وإلا كان هذا غشاً. لكن حين يفرّ أحد الفارسين ناحية صحبه يطلب مساعدتهم، يخفون إلى عونه ويلاحقون الفارس المعادي الذي يحميه عندئذٍ صحبه. وبعد اشتباكات عديدة من هذا النوع، يشتبك أفضل الفرسان جماعياً. إن رأى فارس في أعدائه صديقاً، حوّل وجه الجواد إلى ناحية أخرى صارخاً «إبعد ولا تحملني دمك».

إن كان الفارس الذي نودي عليه في البداية حاضراً وما تجرأ على التقدم ضحك منه الفارس الآخر ولقبه بألقابٍ وضيعة، فيُعرفُ طوال حياته بأنه خاف من ملاقاة فلان في الحرب.

إن حصلت المعارك في اراضٍ مستوية يلاحق الغانمون الخاسرين مسير ساعتين أو ثلاث أو أربع ساعات كما هناك أمثلة على مطاردات دامت يوماً كاملاً. وهذا مستحيل إلا بواسطة الجياد العربية الأصيلة. ولهذا يفتخر البدوي بفرسه لقوتها التي لا تهون، وباحتمالها الجهد والعدو.

قانون الحرب في الصحراء يقول إن التقت قبيلتان دون أن تعرفا إن كانتا صديقتين أو عدوتين، على القبيلة التي تعتقد أنها الأقوى مهاجمة القبيلة الأخرى. فأحياناً يراق الدم قبل أن يعرف الفريقان أنهما صديقان لا تفرق بينهما عداوة. لكن هذا لا يحصل في مناطق سيطرة الوهابية حيث يجب ألا يهاجم قوي ضعيفاً أبداً.

طريقة البدوي في القتال قديمة جداً. فالحروب التي توصف في سيرة عنترة وسيرة قبيلة بني هلال تتألف من وصف للاشتباكات الفردية. فالبدو يفضلون هذا النوع من القتال لأنهم يتحرقون دوماً لمعرفة من قاتل من، وهذا ما لا يعرف أبداً في القتال الجماعي.

إن تقاتلت قبيلتان متجاورتان، وحصل قدوم ثالثة لتسيطر على الآبار في منطقتيهما، تتوصلان إلى اتفاق مفاجىء، وتتصالحان وتتوحدان ضد الغازي الغريب. فما يكون أمام القبيلة تلك إلا طلب معونة يومٍ واحدٍ من قبيلة مجاورة كدين ترده لها متى احتاجته. حصل هذا الأمر

في ربيع وصيف عام ١٨١٢ حين حصل نزاع حاد في البادية السوريّة، إلى الشمال من حمص، بين قبائل أحسنة من ناحية وفيدان وسبأ من ناحية أخرى. كانت هاتان القبيلتان، فيدان وسبأ، تتقاتلان دوماً على الآبار والمراعي والضريبة التي يدفعها سكان قرى الحدود السورية للبدو. أرسل ملهانا الملقب قائد **أحسنة** يطلب عون قبيلة **الجلاء** القوية (قبيلة نجدية لم تكن معروفة في بادية سوريا) وعرض عليها جزءاً من الغنيمة إن ساندته ضد فيدان. استمرت الاشتباكات عشرين يوماً متتالياً بين الأحلاف. كان صحّان ابن الدرعية، أحد مشايخ جلاعة في الحجاز يقاتل مع عبد الله بن سعود ضد محمد علي باشا لكنه وصل مع فرسانه الأربعين في الوقت المناسب ليشارك في المعارك التي ذكرت.

أدرك الفيدان قوة أعدائهم فأرسلوا إلى جربا شيخ بني شمّر في أرض ما بين النهرين وكانوا في حربٍ معه، وعرضوا الصلح والسلام ورجوه الوقوف معهم في الحرب ضد الجلاء، أي القبيلة الغريبة، التي لا حق لها في مراعي الحدود السورية. وافق جربا فوراً وهب إلى نجدة الفيدان بألف وخمسمئة فارس. لكن الجلاء صدوه وكسبوا الحرب فاضطرت قبيلة الفيدان إلى الرحيل عن سوريا باتجاه نجد، والآن، يقول بنو شمر للفيدان «تدينون لنا بيوم».

رايات الحرب التي تدعى «مركب عطف» غير معروفة في الحجاز، وأعتقد أن العنزيين وحدهم دون سواهم يستخدمونها.

في المفاوضات من أجل السلام، لا سلطة للعقيد بل يصبح فرداً كما كل أفراد القبيلة. مسألة الحفر والدفن شائعة في كل أنحاء البادية، وهي أساسية للتوصل إلى الصلح. لكن من يرفض شروط الصلح يترك القبيلة ويلجأ إلى أخرى موقتاً حيث يجد حرية في الثأر الذي منعته منه قبيلته بسبب الصلح. القبائل التي يسكت أفرادها عن طلب الثأر بعد الصلح قليلة جداً. إلا حين يتم التفاوض شعبياً على كل النواحي المتعلقة بهذا الصلح، وقد وجدت، بشكل عام عدداً قليلاً جداً من القبائل دون بعض هؤلاء الأعداء اللدودين الذين يتعطشون للثأر حتى بعد الصفح.

الثأر

القوانين الأساسية التي تتحكّم بالثأر واحدة في كل أنحاء الصحراء العربية. وحق الأخذ بالثأر موجود في كل مكان بين الخمسة، فالقبائل العربية التي تنزل في المناطق الغربية حملت هذا التقليد معها وحافظت عليه. فنجده في بدو ليبيا، وبدو ضفاف النيل حتى سنّار. أينما نزل العرب ساد قانون الثأر للدم بالدم أو بالغرامة الهائلة، وهذا إن كانت عائلة المقتول أو المجروح توافق على ابتدال الثأر بالغرامة. لقد جعل العرب هذا الأمر مستقلاً عن الإدارة العدلية العامة،

ووضعوا مسألة الثأر في يد أقرباء المقتول وأصدقائه، ذلك لقناعتهم أن القضاء لن ينصف هذا المقتول أو المجروح، ولن يرد إليه اعتباره، وخصوصاً لأن قانون الطبيعة منحه حق الانتقام.

النظام السياسي البدوي يمنع قيام الفوضى العامة من الانتقام السائد بين الأفراد. فكل مجموعة تقوم بحماية أفرادها المضطهدين ويبدو أن كل فرد يجد أنه محق في الانتقام من جاره ما دام الأمن العام لم يتأثر. ينظر العربي إلى الثأر على أنه حق مقدس وواجب. فلا قوة في الأرض تقنعه بالعدول عنه. وحتى في مصر حيث الناس ترتجف من أحكام محمد علي باشا، لا يتورع فلاح عن غرز خنجره في صدر قاتل أخيه، برغم إدراكه أن هذا خَطِر على حياته! فالباشا وضع قوته كلها للخلاص من هذا التقليد المستحكم في الناس.

القبيلة القوية والمستقلة تبتعد عن المناطق المزروعة، كما أن الثأر يبقى حاداً بين القبائل الثرية ولا يقابل بالفدية. فالمشايخ الأجلاء في كل البادية يعتبرون الثأر فعلاً مشيناً للانتقام لدمّ قريبٍ مسفوك. لكن متى كانت القبيلة فقيرة ومتأثرة بالنفوس الضعيفة في المناطق المزروعة، تُقبل الفِدية أو الديّة بدلاً من الدم. أما التخلي عن الثأر وعن الديّة فهذا مستحيل إذ يقول العرب: «النار ولا نترك الثار».

يختلف تقدير حق الدم من قبيلة إلى أخرى. ففي بني حرب بالحجاز، يصل حق الدم إلى ثمانماية دولار. وهذا المبلغ نفسه قرره القائد الوهابي إتباعاً للقانون الذي سرى أيام الرسول محمد حين أعلن أبو بكر أن حق دم عربي حرّ مائة ناقة. قدر ابن سعود ثمن الناقة بثمانية دولارات، فأمسى الحق ٨٠٠ دولار، وسعى ابن سعود جاهداً في مناطق سيطرته من أجل إقناع العرب بالتخلي عن الثأر وقبول مبدأ الديّة، لكنه نادراً ما نجح بسبب تمسك البدوي بهذا القانون الذي يعتبره مقدساً.

ما إن يصل الأعرابي إلى تسوية مع عائلة المقتول، يطلب من أصدقائه وعائلته مساعدته في جمع المال المطلوب. في بعض القبائل، المساعدة هذه واجبة من جميع أفراد الخمسة بحصص متساوية. لكن هذا ليس قانوناً عاماً، ففي قبائل ينبغي على الدموي أن يجمع المال بنفسه إذ هو مسؤول عما فعله، لا يساعده سوى أخوته ووالده.

لكن في تلك القبائل حيث المساعدة واجبة، يُظهر العرب سخاءً عظيماً حين يكون طالب المساعدة محبوباً من الجميع، فتكون مساهماتهم كافية لتغطية الديّة، ولإغناء القاتل أيضاً. فما يزيد على الدية يبقى له حلالاً. نادراً ما يتعرض سائل للرفض. فالعرب يتحلون بالكرم والسخاء ومتى يُطلب منهم شيئاً يهبون وكأنهم شركاء في الربح وفي الخسارة.

المساعدة نفسها توهب متى سرق اللصوص قطيع أعرابي، فلا يتردد أصدقاؤه في التعويض

عليه وفي البحث عمن سرق قطيعه من أجل إعادته. وحين يتعرض شيخ القبيلة للسرقة، يأخذ العرب على عاتقهم التعويض عليه خصوصاً حين يكون شيخاً يحترمه الجميع. ويكون التعويض بالكامل عن ثمن الماشية التي سرقت.

وفي قبائل عرب سيناء، حين تطرأ مسألة ثأر، يحدد أقارب الدموي مكاناً وزماناً للقاء عائلة المقتول من أجل التوصل إلى اتفاق ما إن وافق أصدقاء المقتول على انعقاد اللقاء. وفي الوقت المحدد، يصل الفريقان إلى المكان ذاك برفقة النساء والأولاد والأقارب جميعاً. وهناك، يمضون أياماً عديدةً في صيام يكرمون أي ضيف يصل إليهم. عندئذٍ يقدم أصحاب الدم مطالبهم. وبما أن لا قانون يحدد الديّة هناك، يطلب أهل المقتول المال الكثير، لكن الأقارب جميعاً يوافقون على تخفيضه. فعلى سبيل المثال، تمثل امرأة أمام أقرب أقارب المقتول وتسأله متوسلة أن يقتطع بعض المال القليل من الديّة. ثم يعلن شيخ جليل أنه لن يذوق طعاماً حتى يُخَفَّضَ من الديّة جملٌ إكراماً له. وهكذا، يُضطرُ طالِبُ الديّةِ الكريمُ أن يتنازل شيئاً فشيئاً حتى تصبح الدية مقبولة من الجميع، تدفع وفق أقساط شهرية في حينها تماماً دون تأخير. بين العرب، يكفي عشرون أو ثلاثون جملاً من أجل إنهاء المسألة، بالإضافة إلى بعض شجيرات النخيل الفتية الموجودة بكثرة في سيناء. وقد يتم التوافق أحياناً على ديّةٍ قليلةٍ، وفي هذه الحالة يعلن القاتل أنه وعائلته «حسنة» للفريق الآخر الذي يدين له. وهذا الإعلان يعلي من شأن عائلة المغدور ويقلل من احترام عائلة القاتل.. هذا الدين شكلي ومعنوي فقط لا يتداخل فيه المال، لكن البدو يفضلون دية المال بدلاً من هذا الصيت السيىء. ومتى تم الاعلان، يبقى الدين أبدياً بين العائلتين. هذا التقليد سائدٌ بين عرب عمران وحيوات.

أما قبيلة ولد علي أقوى قبائل البدو الليبية الضاربة بين الفيوم والاسكندرية، فلا تقبل الديّة إلا بعد أن يتقدم القاتل أو أحد أقربائه من خيمة المغدور ويقول لأقربائه: «ها أناذا، أقتلوني أو اقبلوا الديّة». فيستطيع قريب المقتول أن يفعل ما يشاء دون أن يلام. فالغريب رفض حق الدخيل طواعيةً، هذا الحق الذي يقدسه البدو الليبيون كما العرب. والرجل الذي يقدم نفسه لعائلة المقتول بهذه الطريقة يسمى المستذنب. وإن التقى بأعدائه قبل وصوله الخيمة، هاجموه وقتلوه، لكن ما إن يدخل الخيمة، حتّى تُقْبَلُ الديّة. لكنّ أمثلةً بخلاف هذه القاعدة حصلت وتحصل.

يتوافق عرب العمران وعرب حيوات على قانون يشذ على قاعدة الثأر والخمسة الشائعة عند أهالي البادية. فمتى يُقتَلُ عربيٌ من إحدى هاتين القبيلتين بيدِ مجهولٍ من قبيلةٍ معروفةٍ، يجد عرب هاتين القبيلتين أن حقهما قتل أي فرد من أفراد تلك القبيلة أكان مذنباً أو بريئاً. وإلا على القبيلة كلها أن تجتمع وتتبرع بالدية لأهل المغدور تحدد قيمتها بحسب غنى كلّ خيمة. ولهذا

السبب يقال إن «عرب عمران وحيوات يضربون في كل اتجاه»، ولهذا يخاف منهم الجيران.

أما إذا حصل الأمر نفسه في قبائل أخرى غير عمران وحيوات، فيُطلب حق الدم من شيخ هذه القبيلة، ويقوم أفراد القبيلة بالمشاركة في جمع المال. لكن هذا ليس مبدأً عاماً لأن المقتول بيدٍ مجهولةٍ أو خلال الحرب من قبائل شرق البادية، لا يجوز أن يثأر له أبداً بطريقة شرعية، برغم أن البدو يصرون على أن لا صلح كاملاً بين قبيلتين طالما ثمة دم لم يُنْتَقَمْ له بينهما.

أحياناً، يطلب من رافض الاعتراف بالجريمة التي يتهم باقترافها أن يقسم قسماً مغلظاً، فتجد عرباً يفضلون دفع الدية مهما كانت كبيرة على أن يقسموا. فأياً كانت نتائج القسم، يبقى فعل القسم وصمة عار في جبين الأعرابي.. وهذا فيما يلي قسمٌ يستخدم لإنكار اقتراف الجريمة:

والله إني ما شقيت جلده

وما يتمت ولده

إن جرح رجلٌ رجلاً آخر، وقام هذا المجروح بقتل جارحه، لا يتلقى شيئاً مقابل الجرح لكنه يضطر لدفع فدية أو ديّة لقتله ذلك الرجل ولو كان المقتول هو البادىء بالاعتداء. فلو لم يقتل الرجل، لكان المجروح تلقى تعويضاً كبيراً مقابل الألم الذي أصابه.

في قبائل سيناء، متى تحصل الجريمة، يفر المعتدي أو يبقى عارضاً تسويةً وديّة، فيضع نفسه في حماية رجلٍ محترمٍ في القبيلة. على أقارب المقتول احترام حق الحماية هذا خلال شهر كامل. فمتى عجز القاتل عن تسوية المسألة قبل انقضاء هذا الشهر، عليه الفرار سريعاً قبل أن يثأر منه أعداؤه.

ما رويت عن الذبح صالحٌ في كل القبائل البدوية. ففي الحرب، يفرق البدو بين الذبح والدم. فقد يحدث في الجبال ـ أكثر من السهول ـ قيام إحدى القبائل بقتل كل ذكور أعدائهم بغض النظر عن قتلاهم الذين ذبحهم هؤلاء الأعداء. وهذا القتل يُثأر له متى حانت الفرصة.

المذابح العامة ما تزال تمارس في عرب البحر الأحمر وسوريا الجنوبية وسيناء، لكن الصلح يُعقَدُ سريعاً ويتوقف سفك الدماء. إن شذ أعرابي عن قرار قبيلته وانساق لإهوائه في الثأر أو لأهواء دافعيه، نفته القبيلة عنها. أساس هذه المذابح يعود في الجذور إلى مذابح الإسرائيليين ضد أمراء القبائل قديماً، فاستمرت هذه القبائل على هذا النحو إذ وجدت في الذبح سلطاناً وقوة تؤدي إلى خوف الآخرين منها. حتى الآن، قد يتعرض بعض البدو للتأنيب الشديد لأنهم أبقوا على أرواح أفراد من قبائل لم ترحم غيرها من قبل.

اللصوصية والسرقة

سهل الادراك أن البدو يتمتعون بروح المغامرة الجريئة؛ فهم عرضة لهجمات الآخرين ويتورطون كثيراً في الحروب. هذه هي حال البدو الساكنين في السهول الخصبة والمراعي الخضراء؛ أما ساكنو الجبال والمحميون من خطر الهجمات المتعددة والبعيدون من القبائل الميّالة إلى العنف، فيجدون أنفسهم في طمأنينة وأمن. ونجد صنعة الحرامي صنعةً محترمةً جداً بين القبائل الشرقية، بينما تخف السرقات في المناطق المجاورة لمصر ومكة. فمن يحاول السرقة من خيمة أحد أفراد قبيلته يتعرض للتشهير طوال حياته.

تنعدم السرقة في قبائل عرب سيناء، ولذلك يمكن ترك أي شيء خارج الخيمة دون خوف أن يُسرق. قبل سنوات، اقتاد عربي من قبيلة صويلحة ابنه إلى قمة الجبل ورماه من فوق لأنه سرق الذرة من أصدقائه. شهدت، في كل أنحاء البادية، أمناً كاملاً من السرقة، كما في الجبال السويسرية، لم أجده في النواحي الشمالية الخطرة.

الربيط يؤخذ أسيراً في كل قبائل البادية الشرقية، وحتى أهل نجد والقصيم يأسرون الحرامي متى يقبضون عليه. هذا الأمر لا يحصل في قبائل الحجاز. قبيلة بني حرب التي تسكن بين المدينة ونجد تأسر الربيط، لكن هذه المسألة ترفضها قبائل أخرى تابعة لحرب ابن الجنوب من المدينة. القائد الوهابي أبقى على هذا التقليد بين أفراد قبيلته ودعمه لكي يخفف من السرقات في مناطق سيطرته.

الفكاهة التالية تتكلم عن كيفية هرب ربيط. لقد تعرّض الربيط للضرب بقسوةٍ أمام سيد عربي أشفق عليه وقرر تحريره. تناول العربي حبة تمرٍ أكل نصفها وأعطى النصف الآخر لامرأة مستخدمة في طحن الذرة أمام الخيمة ورجاها أن توصلها إلى يد السجين. بدأت المرأة تغني إحدى الأغنيات التي تغنّى عادة لتسلية النساء أثناء العمل، وأدخلت بعض التعابير الدالة على هذا الموضوع. وحين أدركت أن الأسير فهم ما تعنيه، رمت بنصف حبة التمر إلى داخل الخيمة حيث الحضرة التي يُربط فيها الربيط، وكان هو في هذا الوقت فاتحاً كفيه غير المربوطين. أكل الربيط قليلاً من حبّة التمر ثم أخذ ينادي على من هم في خارج الخيمة قائلاً إنه أكل تمرة» مع فلان ابن فلان ويجب تحريره. أسرع سيده إلى الخيمة رافضاً تصديقه وضربه. لكن العربي الذي قام بهذه اللعبة تقدم وأكد الرواية. طالب السيّد بالدليل فكانت حبة التمر دليلاً.. فاضطر الرباط إلى إخلاء سبيل الربيط.

الخائن

على الخائن إعادة ما يسرقه أو ما يحصل عليه بالغش إلى أصحابه، فإن رفض ذلك ولم تجبره

قبيلته ولم تطرده من الحي، تتعرّض القبيلة كلها لتسميةٍ مشينة إذ تسمى «بايقة» أي خائنة، فلا يعود العرب الآخرون يحترمون حق الدخيل حين يتقدم به أحد أفراد هذه القبيلة. وذلك حتى إعادة المسروقات إلى أصحابها.

الدخيل

يسمّي العرب الدخيل باسم آخر هو «الزبن»، فيقولون «تزبّنت» بدلاً من «دخلت»، والقبيلة التي حمت الرجل تسمّى المزبنة». والملحة هي تناول الدخيل قطعة من خبز حامِيهِ. إن تمكن الربيط أن يفر من خيمة الرباط ويمتطي جواده أو جمله ليحمله إلى خيمة رجلٍ آخر، تُمسي المطيّة ملكه، كما السلسلة التي تكون حول عنقه.

متى تأثرت مصالح العربي بحق الدخيل الّذي يرميه رجل طالب حمايةٍ، لا يعود هذا الحق مقدساً كما يجب أن يكون دوماً، لكنّ حوادث عدم معاملة دخيل بالحسنى قليلة إن لم تكن معدومة، برغم أن بعض العرب يتأخر قليلاً في وهب حق الدخيل وذلك بحسب الظروف.

حين اضطر والي دمشق يوسف باشا عام ١٨١٠ إلى الفرار مع دزينة من أتباعه، فزع إلى حوران حيث ضربت قبيلة ولد علي الكبيرة مضاربها، فاستقبله شيخها ابن إسمير الذي كان دوماً صديقاً له. لكن الشيخ استقبله بفتور وقدّم له الطعام، ثم نصحه ألاّ يبقى في حيّه إذ هو قريب من دمشق، وبذلك لا يستطيع حمايته، فهم الباشا تلميحات الشيخ فذهب شمالاً في اتجاه الصحراء، شرق حمص، حيث نزل خيمة مهنّا الملحم شيخ أحسنة، قبيلة عنيزية أخرى كان على خلاف وحرب معها بسبب تفضيله ابن إسمير، فلقي هناك الترحيب حيث قال له الشيخ: «أنت في خيمتي آمناً، هذه الخيمة التي ما تشرفت قبلُ بإيواء رجلٍ من العظام.. أما سليمان باشا، فعليه أن يذبح كل رجال الملحم قبل أن يصل إليك هنا». استضاف الشيخ الباشا سبعة أيام ثم رافقه بجيش من المسلحين إلى ريحا قرب حلب، ومن هناك، غادر الباشا إلى إنطاكيا.

قبل سنوات من هذه الحادثة، حين قاد يوسف باشا نفسه جنوداً لخدمة إبراهيم باشا في دمشق، بعد هزيمته بيد عرب الصحراء، التجأ في خيمة شيخ الموالي النازلة قرب حلب. أكرمه الشيخ غنجة لكنه أجبره قبل رحيله على ترك شاله الكشمير وحافظة نقوده وسيفه. هذا المثال نادر الحصول بين العرب وخصوصاً في القبائل الكبرى. لكن حتى البدو الشجعان أحياناً يعارضون قيمهم الأخلاقية.

مشاعر العربي تجاه الدخيل مثبتة بشكل جيد في رسالة من عبد الله بن سعود القائد الوهابي إلى طوسون باشا. ففي هذه الرسالة يقول: «إسأل البدو فيخبروك أنهم لو قتلوا واحداً من آل

سعود وأعطيتهم الأمان يثقون بكلمتي». وفي رسالة أخرى، يقول عبد الله ابن سعود للباشا نفسه: «إن كان واحد من صحبك يحمل رأس أخ من أخوتي، فليس له أن يخاف مني أبداً». تأكيدات مشابهة صادرة من الأتراك لا تصدق أبداً إذ هؤلاء ماكرون جداً وليس ثمة ما يثنيهم عن النكث بالوعود.

فقد الدخيل حقه في كثير من القبائل العربية القريبة من مراكز القوى العثمانية ومن القرى، فلا يكون هذا الدخيل دخيلاً إلا بعد دخوله خيمة العربي، بينما في المناطق الأخرى يعلن الإنسان نفسه دخيل فلان إن تناول معه حبة تمر أو رشفة حليب أو لامسه.

وحين يُرى الغرباء يقتربون من إحدى الخيام عازمين على طلب الحماية، وحين يرى صاحب الخيمة هذا الغريب ويعرف أنه ينتمي للقبيلة المعادية، يصرخ به من بعيد، «إن كنت من قبيلة معادية تُقتل»، وهكذا يفقد الغريب حق الدخيل من هذا الرجل بعد هذا التحذير وعليه البحث عن خيمة أخرى.

ثمة أمثلة متناقلة تفيد أن دخول الرجل في خيمة رجلٍ آخر لم يمنع مقتله. ومتى عرفنا أن حق الدخيل مهدور في إحدى القبائل، أدركنا أن هذه القبيلة فقدت مكانتها وجزءاً من استقلالها.

إن غش الأتراك والمماليك دفع بالقبائل الضعيفة المجاورة للحدود المصرية إلى تناسي عاداتها وتقاليدها أمثلة كتلك سجلها اللورد فالنسيا عن زوجة شديد، نادرة الحصول في هذه المناطق حيث عزم العرب على عدم مساعدة هاربٍ يلاحقه رجلٌ عظيمٌ أو قويّ. في جهة أخرى، البدو الليبيون أو المغربيون، كما يطلق عليهم المصريون، يحافظون على قوانينهم ولا يخرقونها أبداً، ويحترمون حق الدخيل احتراماً كلياً. إن احتلال العثمانيين للحجاز أثر سلباً على البدو. فهؤلاء يستطيعون تحمّل الاحتلال بحجّة أنه مؤقت لا يدوم، لكنهم لا يتحملون خسارة سمعتهم ومصداقيتهم اللتين كانوا يدفعون ثمنهما ذهباً لمحمد علي باشا واللتين لا تعيدهما أية قوة وأي سلطان. فازدادت أخبار اللاجئين الذين سلمهم البدو إلى جلاّديهم برغم ابتعاد هؤلاء البدو عن منال الباشا وقواته. فالبدو أخذوا يتصرفون على هذا الشكل طمعاً بالمال لا خوفاً، لكنهم يعرفون أن هذا يَصِم جبينهم بالعار إلى الأبد، ويؤثر على مكانة القبيلة كلها، وخصوصاً بعد شيوع تخلي أفرادها عن قيمهم الوطنية البدوية.

قائدان من القواد الوهابيين، هما عثمان المضايفة، والمضيّان، اشتهرا بأنهما سُلّما إلى العثمانيين بيد أصحاب الخيام حيث التجآ. الأول سلّمه رجل من قبيلة عتيبة قرب الطائف والآخر سلمه رجل من حرب قرب بدر، لكن القبيلتين بررتا هذه الفعلة بالقول إن الرجلين

الذين سلّما ملحدان وبذلك لا يحق لهما حق الدخيل. لكن العنيزي لا يحمي من هم من دينه فقط بل يحمي المسيحي واليهودي بالنبل نفسه الذي يدفعه إلى حماية أخٍ له عنيزي. الخيانة أو الغش هما التهمة الأكثر جلباً للعار عند البدو. قد يغفر لبدوي يقتل غريباً على الطريق لكن العار يلتصق باسمه إلى الأبد إن قيل إنّه سرق من طلب حمايته. ومن يتجول بين القبائل العربية يدرك أن أعتى اللصوص وقطاع الطرق هم الأكثر محافظة على حق الدخيل والأقل غشاً، وكأنهم يدلون الآخرين على طريقة حماية أنفسهم من جورهم.

في بدو سيناء، لا يعطى حق الدخيل إلا بعد أن يتمكن اللاجىء من تناول الطعام أو النوم في الخيمة؛ عندئذٍ تخيّم عليه الحماية وعلى متاعه وقطيعه، وتستمر هذه الحماية ثلاثة أيام وثماني ساعات بعد مغادرته الخيمة. فإن تعرّض للسلب خلال هذه المدّة من قبل عرب آخرين، يكون على صاحب الخيمة التي نزل فيها اللاجىء ودخل عليها أن يعوّض عليه ما خسره أو أن يستعيدها له. أما الضيافة خلال ثلاثة أيام وثلث اليوم فهي مكرسة في كل أنحاء الصحراء.

قد تكون قبائل متصالحة، لكن هذا لا يكفي ليقال بوجوب حماية أحدهم رجلاً من القبيلة الأخرى أثناء مروره في منطقته. وهكذا، في العام ١٨١١، كنت منتقلاً من الدير على نهر الفرات إلى سخنة الواقعة تحت حماية عرب سبأ، فوقعت في فخ لعرب الرولا وتعرضت للسلب، لكن مرشدي لم يقتل. كان الرولا وسبأ في سلام وصلح، لكن هذا لم يمنع ما حصل. بالإضافة إلى أني مدني وبذلك أكون عدواً قومياً لكل البدو.

أحياناً، تشن القبائل العربية على بعضها حروباً سريةً كخرق حق الدخيل وسرقة اللاجئين المحمين وذلك لشهور عديدة، حتى يتم إعلان الحرب المفتوحة. ولذلك لا يمكن القول إن القبائل تبقى متصالحة طويلاً بينما كل الناس تعرف أن أفراد هذه القبائل تسرق بعضها بعضاً على الطرقات.

كرم الضيافة

كرم الضيافة من الميزات الأساسية التي يتميّز بها البدوي. فالمرء لا يمكن أن يكون بدوياً إن لم يكن مضيافاً كريماً. فهذا البدوي لا يجد أبداً ما يحول بينه وتلك الفضيلة الاجتماعية المميزة. لا مفر أحياناً من الاعتراف بأن كرم ضيافة البدوي تنبع فعلاً من غروره ومن إرادته أن يكون متميزاً عن أترابه في القبيلة لكن إن أنعمنا النظر في الدوافع الحقيقية الكامنة خلف الضيافة هذه نجد أن الفضيلة وحدها نادراً ما تؤثر دون ارتباطها بعوامل شخصية أخرى. برغم كل ذلك، لامناص من الاعتراف بضيافة البدوي مهما كان الدافع من ورائها، حتى ولو كانت إجبارية تفرضها السياسة البدوية العامة. البدو يكرهون الأجانب الغرباء، لكن كرم البدوي

وضيافته لا يقتصران على البدو أبداً؛ وأكون أنا ناكراً للجميل إن قلت إنهم لم يستضيفوني بكل محبة واحترام وتقدير، فضيافتهم هذه هي التي تجعلهم مختلفين تماماً عن جيرانهم الأتراك. وهي أفضل ما يتلاءم مع أخلاقيات دين عرفوه جيداً.

للأتراك محاسن قليلة، لكن يستحيل الانكار أنهم يتحلون ببعض الرحمة وهذا ما يجعلهم أحياناً يقدمون الطعام للجياع. لكن حتى هذه الصفة لا تصل إلى مقدار عطف البدو على الجياع والفقراء. فبعد أن تتعرف بتركي ليومين أو ثلاثة، يخبرك بكل أولئك الذين أطعمهم وكساهم وبالخراف التي ذبحها في عيد رمضان حين يجبره القانون والعرف على الصدقة مثله مثل الفريسي في معبد أورشليم. إن التصدق على الفقراء شائع في الشرق أكثر منه في الغرب. أما صاحب الكبرياء الذي لا يطلب منّةً من أحد، فإنه يجد في الغرب من يرعاه أسرع مما يجده في الشرق. يبدو لي هنا أن الأثرياء يفتخرون بأن لهم جيشاً من الناس بالكاد يعيشون يتصدق عليهم بالقليل من ثيابه القديمة.

تدفقت العادات السيئة إلى الحياة البدوية فأثرت فيها سلباً ذلك أن احتكاك البدو بالغرباء أفقدهم الكثير من الميزات التي اشتهروا بها. ولهذا أمست خطوط قوافل الحجيج السورية والمصرية صعبة محفوفة بالمخاطر الكثيرة، وأصبحت ضيافة البدو تشرى بالمال، ولهذا ساءت صورة البدو العامة وسمعتهم وكان الحال مماثلاً في الحجاز وبالأخصّ بين مكة والمدينة، حيث يتعذر على قوافل المسافرين الحصول على الحد الأدنى من كرم الضيافة البدوي، وكأنهم بين سكان البادية النوبية الماكرين.

لكن حتى في هذه المواضع، يجد المسافر المستوحد ملجأً بكل تأكيد. فالمسافات الشاسعة بين مكة ودمشق يقطعها المسافر السوري المسكين الذي يعتمد على ضيافة البدو كي يستمر ويعيش خلال رحلته هذه. وفي الصحراء حيث البدو الفقراء، يعرف المارّ أن هذا البدوي الفقير سيشاركه طعامه القليل كبرهان على ضيافته دون أن يُشعر الضيف قدر الامكان بضعف حاله.

إن الأمثلة التي يسوقها المؤلفون القدماء عن الضيافة العربية مبالغٌ فيها في غالبية الأوقات، إذ تصف التبذير الأحمق الذي لا يكرم عقل أو قلب الواهب أبداً. فأن يتخلى العربي عن حصانه ويهبه لغيره من المتسولين أو تقديم الثياب إنما هو إسراف نزوي غرضه التفاخر والتباهي لا أكثر، وهذا ما يقال أيضاً عن مراد بك المصري الذي لم يجد معه مالاً لإعطاء سائلٍ فقدم له سيفه المرصع بالجواهر والذي يقدر ثمنه بثلاثة آلاف ليرة. هذه الأفعال تؤتي ثمارها في الشرق إذ تسعى إلى إدهاش العقول لا إقناعها، وهي تنم عن الصدقة غير الموجهة توجيهاً صحيحاً، كما

لو أن أكياساً من المال تخزن في غرفٍ سريةٍ.

ولا يمكن أن ننكر أنه في الوقت الحاضر ثمة أمثلة عن بدو تتجاوز ضيافتهم وكرمهم الحدود الطبيعية التي يعترف بها الأوروبي، لكنها تبقى ضمن الحدود التي ترسمها قوانين البادية. ولهذا، أسوق مثالاً حول هذا الأمر حاتم الطائي، العربي الذي يُضرب به المثلِ لكرمهِ الذي يفوقُ كلَّ وصف.

كان جربا، شيخ قبيلة بني شمّر في العراق والمرتبط بواليها مستقراً وقبيلته لسنوات طويلة في منطقة جبل شمّر، في الصحراء الشرقية، في وقت كانت الجزيرة العربية تئن تحت ضربات الموت والمجاعة. أشرف قطيعه وقطيع أعرابه على الموت بسبب الجفاف إذ أن المطر أبى أن يهطل منذ زمن، وما بقي له إلا جملان لا غير. وفي هذه الظروف العصيبة، نزل عليه ضيفان محترمان واضطر إلى إكرامهما وإطعامهما. لم يكن قد تبقى في خيمته أية مؤن، ولا قدر بنو قبيلته على مدّه بأي طعام، كما تعذر إيجاد ماعزة أو خروف لذبحه. لم يقدر جربا على تحمّل فكرة نيام الضيفين من دون عشاء، فأمر بذبح أحد الجملين، عارضته زوجته قائلة إن أولادهما ضعاف ولا يقدرون على المشي في اليوم التالي حين ارتحال الحي وعليهم ركوب الجملين. فقال أحد الضيفين: «إننا جائعان فعلاً، وأنت تقولين الحق، وغداً نسعى إلى رحمة الله في مكانٍ آخر. لكن هل نكون سبب قول أعداء جربا أنه لم يكرم ضيفاً يوماً؟» اخترقت هذه الملاحظة صدر الشيخ النبيل كما السكين، فخرج وأمسك بفرسه التي هي ثروته إلى جانب الجملين ورماها أرضاً ليربط قدميها بغية ذبحها، لكنه توقف عندما سمع ضوضاء جمال تقترب.. فقد وصله جملان محملان بالأرز هدية من منطقة القصيم إني متأكد فعلاً من صحة هذه الرواية إذ سمعتها مراراً من عربٍ مختلفين.

من يسافر في البادية ويريد أن يُصادف البدو عليه أن يكون مضيافاً مثلهم أكان فقيراً أم غنياً، لكن دون مظاهر التبذير التي قد توحي للآخرين بأنه غني جداً فيطلبون منه الكثير من المال. وعليه أن يتعامل مع البدو على أنه متساوٍ معهم لا متعالٍ عليهم كما يفعل الأتراك. فهذا ما يفعله الرحالة دوماً. عندئذٍ، يكون البدوي اجتماعياً ورفيقاً ممتعاً دون أن يصبح وقحاً كالسوريين أو المصريين. فالأفضل أن تُبقي مسافةً واضحةً في التعامل مع هؤلاء إذ هذا ما اعتادوا عليه. وعندما تعيش مع البدوي، يجب إلا تجرح مشاعره أبداً بل عامله بطيبة وصداقة، وبالمقابل، يسعى إلى أن يُظهر لك مدى عظمته في هذه الصحراء. وعندما تكون في موقف اليائس، يتقدم منك بأفضل المشاعر ويعتبرك أخاً.

وأضيف هنا، تلميحاً للرحالة، أن كتاب توصية موجه إلى شيخ قبيلةٍ مستقلة لا يفيد أبداً.

فإن وعد هذا الشيخ بحماية رجلٍ وفى بوعده دون أن ينظر إلى التوصية التي جاءه بها، وحتى لو كان كاتبها الباشا نفسه، فحامل التوصية يضطر إلى دفع المال، وكلما علا مقام التوصية ازداد نهم الشيخ. ولهذا، أفضل للرحالة أن يسافروا بين البدو كفقراء وإلا اضطروا إلى عبور المناطق الصحراوية بفضل المال بدون مساعدة أحد.

ثمة قبائل ذائع صيتها لكرمها وأخرى لبخلها، وبين القبائل الشحيحة بنو حرب في صحراء الحجاز الذين يتقاضون الكثير من المال من قوافل الحجيج وهذا ما أراد من سعيهم خلف الجاه. ويُلصق البخل ببدو مكة، وخصوصاً قريش الكبيرة التي فيها ثلاثمائة بندقية. وفي جبال سيناء، قبيلة أولاد سعيد، من قبائل الصويلحة، مضرب مثل بالبخل، حتى أن القبائل المجاورة تقول:

«أبيت وحيداً
ولا عند أولاد سعيد».

إن الرجال الكرماء في هذه القبيلة البخيلة مميزون فعلاً عن الآخرين، ولهذا يقول العرب إن الكرم الحقيقي هو الذي تجده من كريمٍ مقيم في قبيلةٍ بخيلة.

إن الضيف النازل في حي من أحياء بدو نجد، يدخل عادةً أول خيمة إلى الجانب الأيمن من مدخل الدوار، فإن تجاوز هذه الخيمة وذهب إلى غيرها، اعتبر صاحب هذه الخيمة أنه مهان.

بين بدو سيناء عادةٌ أعتقد أنها تعم القبائل التي على الحدود الجنوبية لسوريا. حين يُرى ضيف غريب من بعيد متوجه صوب الحي يكون ضيفاً في تلك الليلة على من يراه أولاً، أي من يبادر إلى القول «هذا ضيفي قادم»، أكان القائل كبيراً أو ولداً. في هذه المناسبات تحدث خلافاتٌ عديدةٌ، ويبادر العربي سريعاً إلى قسمه المعتاد «علي الطلاق لازم يكون هذا ضيفي»، وهنا، تتوقف النقاشات ويسلم الجميع بالأمر خوف أن يطلق هذا الرجل زوجته فعلاً. كنت أنا نفسي مراراً سبب هذه الخلافات حيث تجلس النساء في محرّمها تساند زوجها بصوتٍ عالٍ. والعادة التي تعم كل بدو الصحراء تؤكد على أن المرأة تكرم الضيف النازل في خيمتها ولو غاب زوجها، فيحضر أقرب أقربائه لينوب عنه.

عرب السروجة في حوران يسمحون لزوجاتهم وبناتهم بتناول القهوة مع الضيف حين نزوله. فيبقين في مجلس الرجال إن كان الزوج موجوداً. لكن هذا الأمر غير حاصل بين قبائل شمال البادية حيث المرأة لا تشرب قهوةً ولا تأكل طعاماً أمام الضيف الغريب. في الجبال إلى الجنوب من مكّة، باتجاه اليمن، يقال إن المرأة ترحب بالضيف في غياب زوجها وتجالسه. لا يبقى الضيوف في خيمة مضيفهم إن كانت صغيرة وضيقة، بل يقوده المضيف إلى خيمة صديقٍ تكون أوسع. حيث يقوم هو على خدمته لا صاحب الخيمة.

العلاقات المنزلية

في القبائل التي يقوم رجالها بتحميل كل أثقال الأعمال المنزلية لنسائهم، لا يفترض أن نجد احتراماً موجهاً إلى هاتيك النسوة. فهن معتبرات أقل شأناً من الرجال، فيعاملهن أزواجهن بلا مبالاة، لكن عليهن الطبخ والعمل فهما وظيفتاهنّ دون غيرهما. العذراء الصبية تلاقي بعض الاحترام أكثر من المتزوجة، إذ يعتقد الآباء أن وجود عذراء في البيت شرف. وما إن تتزوج، حتى تتحول الزوجة البدوية إلى خادمةٍ مشغولةٍ طوال اليوم، بينما زوجها ممددٌ لا يعمل شيئاً سوى تدخين الغليون. ويقول الرجال عن ذلك إن النساء يتعبن في البيت مقابل تعب الرجال في الرحلات والغزوات. ليس هناك ما يتعب البدوية أكثر من تحصيل الماء، فنادراً ما تنصب المضارب قريباً من بئر، بل تكون على الأقل بعيدة عنه مسير نصف ساعة ويعتقد الرجال أن لا ضرورة لإتعاب الجمال في حمل الماء. وإذا كانت الحمير مشغولة في أمورٍ أخرى، تضطر النساء إلى حمل الماء في أكياس جلدية على ظهورهن كل مساء.. وأحياناً يضطررن إلى حملين من الماء في اليوم الواحد.

بين عرب سيناء والشرقية المصرية، قاعدة متبعة تقول أن رجلاً أو صبياً لا يسوق القطيع إلى المرعى[1]. فهذه هي وظيفة الفتيات غير المتزوجات يخرجن بالقطعان قبل المغيب ليعدن في ساعة متأخرة في المساء. وفي غير هؤلاء من العرب هذه وظيفة الخدم والعبيد.

النساء في سيناء يعتدن شظف العيش والتعب منذ الصغر ولهذا تراهن قويات صلبات العود كما الرجال. فقد رأيتهن يتراكضن حفاة الأقدام على الصخور التي وجدت صعوبة أنا المنتعل نعلاً قاسياً، في المشي عليها. خلال النهار، يقين معرضات للشمس الحارقة يحرسن القطعان إذ يعرفن أن آباءهن يضربونهنّ إن ضاعت شاة ما. إن مرّ بهن رجلٌ من قبيلتهن قدمن له القليل من حليب الماعز أو بعض الماء، كما كان سيفعل آباؤهن في الخيام. وفي مناسبات أخرى، تجلس البدويات ويدرن ظهورهن للرجل المارّ فلا يأخذن من يده شيء إلا في وجود أقرباء لهن. مررت بكثير من الفتيات والنساء على الطريق فطلبن مني طحيناً للخبز، فكنت أضعه قربهن حيث يجلسن، ولا يلتقطنه إلا بعد ابتعادي خطوات. وتبين لي أن القبيلة التي تكون على اتصال بأهل الحضر والقرى هي الأكثر محافظة على عزلة نسائها. في مكة أو جبال سيناء، لا ترد النساء السلام ولا تجيب عن سؤال إن أتى من غريب عن الدار، بينما في السهول البعيدة تحادثت ضاحكاً مع نساء من عنيزة وحرب والحويطات.

---

(١) في عرب سيناء، يشتم الصبي بالقول أنه ساق القطيع إلى مرعاه. وذلك معناه أنه ليس أفضل من فتاة.

إن احترام البدوي لوالدته مثالي وهو أكبر من احترامه لوالده. بين القبائل الفقيرة، فبقاء البيت يعتمد على سيادة سيّده لا على غناه وكذلك بين القبائل الشرقية الغنية، قد يجد رجلٌ مسنٌ نفسه عاجزاً عن تحصيل طعامه اليومي؛ أولاده متزوجون وعليهم القيام بأعباء بيوتهم وعائلاتهم، فيبقى المسن وحيداً. ليس ثمة قانون عند البدو يلزم الأولاد الاهتمام بآبائهم العجزة لكنهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم. لكني عرفت عن مسنين عديدين يعتاشون من صدقات بيوت الحي جميعاً بينما أولادهم موسرون قادرون على الاهتمام بهم دون أي صعوبة. ويبرّر الأولاد هذا الأمر بالقول إن آباءهم لم يساعدوهم حين زواجهم ولو بمبلغ صغير من المال، وإن ما لهم من الأموال ناتج من تعبهم في الصناعة وفي الغزو. إن النزاعات اليومية بين الآباء والأبناء تسيء فعلاً إلى الشخصية البدوية. فما إن يبلغ الابن ويصبح رجلاً، يأبى أن يسأل أباه أن يهبه قليلاً من القطيع إذ أن ساعده قادر على تحصيل ما يريد، لكنه يعتقد أن على أبيه أن يُهديه هذا القليل من القطيع. وفي الجانب الآخر، يغضب الوالد إذ يرى ولده يعامله بهذا التعالي، فتتصدع العلاقات بينهما وتبقى هكذا إلى الأبد.

ما إن يرى الولد نفسه قادراً، يخرج من رعاية والده وسلطته، لكن يعيره بعض الاهتمام ما دام ساكناً بعد في خيمته. وما إن يقدر على نصب خيمته الخاصة، يقفل أذنيه دون النصيحة، ولا يسمع سوى صوت إرادته. الصبي الذي لم يبلغ بعد يحترم والده فلا يأكل من طبقه ولا يأكل قبله أبداً. وعار أن يقال عن صبي، «انظروا هذا يأكل بحضور والده». أما الأطفال والأولاد حتى سن الخامسة فيتركهم آباؤهم بجانبهم يأكلون من الطبق نفسه.

البدوي في خيمته هو المخلوق الأكثر كسلاً إذ هو يصرف وقته في تدخين الغليون يلعب الشيجة أو السيرجة، بينما زوجته تقوم بكل أعمال البيت. هذه اللعبة شائعة في أنحاء الصحراء العربية وجدت طريقها إلى مصر ومنها إلى سكان نوبيا حيث رأيتهم يلعبونها كما في الصحراء العربية.

في الحياة البدوية جاذب يجذب حتى المتحضرين، فالسلوك الصحيح غير الفاسد الذي يسلكه البدوي يشد انتباه كل غريب. لكن بعد إقامةٍ لأيام في خيمة البدوي، تنمحي أول الأفكار وتصبح حياة البدوي لا تطاق في نظر كل رجلٍ فاعلٍ يحب العمل. أمضيت بين البدو أياماً سعيدةً جداً، كما أمضيت أياماً أخرى مملّةً تحت الشمس الحارقة لكني كنت عالماً أن المساء سيأتي بالأغنيات والرقصات التي سوف تريحني من رفاقي البدو لاعبي السيرجة.

العبيد، ذكور وإناث، كُثُرٌ في الصحراء. فمشايخ قليلون جداً لا يمتلكون عبدين أو أكثر. وبعد مرور زمنٍ محدد، يُعتق العبد ويزوج من فتاةٍ من جنسه تُعتق هي أيضاً. لا أعتقد أن هناك

مكاناً يشهد إخلاص العبد لسيّده غير الصحراء. الأسلوب البدوي في الحياة مناسب لذلك الذي اعتاده العبيد الزنوج في بلادهم، ولهذا يعتادونه سريعاً. الوهابيون منعوا النساء العبدات من ارتداء الحجاب بخلاف العربيات الحرّات في نجد اللواتي يتحجّبن طوال اليوم.

في الحجاز، يكثر عدد العبيد السود لكني لم أرَ حبشياً هناك فالبدو يعتبرون الأحباش أقلَّ قدرةٍ على تحَمُّلِ الصّعاب من سودِ أفريقيا.

الشخصية العامة

تمّ أول لقاء لي مع البدو في أحيائهم ومضاربهم بعد وصولي من أوروبا، وكان رأيي فيهم الذي حملته معي قوياً بعد ومؤثراً. بغض النظر عن أي تفضيل للشخصية الأوروبية أعلنه، اضطررت بعد حين إلى الاعتراف، بعد سكني بين البدو، أنهم برغم أخطائهم، من أنبل الأمم الذين تسنى لي أن أقابلهم وأعرف عنهم. ومنذ ذلك الحين، وخلال وجود بين البدو في الشرق استمر ٧ سنوات، تلاشت آرائي الأوروبية فيهم. وبدلاً من التمييز بين البدو والأوروبيين كنت أعتمده، فإني أميزهم الآن عن جيرانهم الأتراك، وأراهم أفضل من هؤلاء بمراحل عديدة. مستحيل تقدير تأثير العبودية والحرية على السلوك في أي مكان كما يمكن فعله في شخصيتيّ هاتين الأمّتين. يُتهم البدوي بتهمتي الجشع والبخل، لكن محاسنه كفيلة بالتغطية على مساوئه. أما الأتراك، ومساوئهم هي نفسها مساوئ البدو، فلا حسنةٌ واحدةٌ في شخصياتهم أو طباعهم. فمن يفضل الحرية البدوية التي قد تصل حدود الفوضى على الاستبداد التركي يقول بفمه الملآن إنه لمن الأفضل أن يكون المرء عربياً بدوياً غير متحضرٍ فيه فضائل طبيعية، من أن يكون عبداً ملمّعاً كالأتراك بمساوىء أقل ودون أي محاسن. إن الاستقلال البدوي الناجز مكّنهم من الحفاظ على شخصية وطنية خاصة بهم. ومتى انتُقِصَ من هذا الاستقلال، أو تعرض للخطر بفعل علاقات البدوي مع الحضر وسكان الأراضي المزروعة، انخفضت الطاقة الكامنة خلف الشخصية البدوية، وتراجع تطبيق القوانين الوطنية حتى الحدود الدنيا.

قد يخطر لنا أن نفترض شيوع الروح الجماعية الوطنية في أمة حربية كالبدو. أول ما يدافع عنه البدو هو الشعور بالحرّية الذي قادهم إلى البادية وأبقاهم فيها، والذي يمكنهم من النظر من أعلى إلى العبيد الساكنين بينهم. وبماأن البدوي مدرك لحاله هذه، ويعرف أنه في موقع أفضل من مواقع غيره، يتمتع بالسلطة التي أتيحت له، ويمكن أن يقال دون أي مبالغة إن أفقر بدوي في قبيلةٍ حرة يضحك من أُبّهة الباشوات الأتراك، ويفضل بدون خلفية فلسفية خيمته المتواضعة البائسة على قصر الحاكم. أما الشعور الوطني بين الأتراك والمستوطنين العرب فهو منقرض تماماً. فالامبراطورية التركية مؤلفة من أمم كثيرة إذ هي شاسعة الأرجاء تضم مقاطعات غير متجانسة،

وهذا ما يجعل الشعور بالقومية الوطنية صعباً للغاية. ثمة مناطق تسكنها أعراق محددة، تتميز بمشاعرها الوطنية الجياشة فلا الأرناؤوط ولا الألبان يهتمون للسلطنة بل جل اهتمامهم منصبّ على مناطقهم فقط في مصر وفي سوريا (مع شذوذ عن هذه القاعدة في جبل لبنان) أستطيع التأكيد أن الوطنية منقرضة. في بعض المناطق تلعب الأصولية دور المحرّك وخصوصاً في وجود النصارى، لكنّ دليلاً واحداً على الشعور الجماعي غير موجود إلا في حالات شاذة جداً هي حالات قرى تسودها هذه الروح بفضل أهلها.

لا يقلق البدوي على شرف قبيلته وحدها بل يعتبر مصالح كل القبائل الأخرى معلقة بمصالح قبيلته، ولهذا تراه يتصرف بطريقة تعكس شرفه العظيم الذي يميّز شخصيته الوطنية. ساد الحزن في كل أرجاء الصحراء بسبب انتصارات جيش محمد علي باشا، ولو كانت هذه الانتصارات توافق مصالح البدو الذين تخلصوا من نير الوهابيين، وأسفت القبائل لهذا الأمر حتى تلك المناصرة لمحمد علي، إذ رأى الجميع في دخول محمد علي باشا وجيشه إلى الصحراء إساءةً لشرف البدوي ولاستقلاله. وللسبب نفسه، يأسف البدوي للخسارة التي تلحق حتى بقبيلة معادية له على يد الحضر والعرب المستوطنين والغرباء. كما أن تعلق البدوي بقبيلته، واستعداده للتضحية بكل غالٍ من أجل عزتها وكرامتها، لا تراه في أي أمة أخرى على الاطلاق بهذه القوة. فالعنيزي إن هوجم يلتقط رمحه ويرفعه فوق رأسه مستعداً للحرب صارخاً: «أني عنيزي!» وفي رحلتي من تدمر إلى دمشق، رافقني مرافق واحد من قبيلة سبأ بعد أن رفض ابن غبيين، شيخ عرب فيدان، الوصول إلى تدمر بعد أن رافقني من حلب. وفي فجر اليوم التالي لانطلاقنا من تدمر، قفز مرافقي فجأةً عن جمله وطلب مني، أنا الممتطي جواداً، أن أتحضر للدفاع عن نفسي. لم أر أي عدو بعد، لكن البدوي بنظره الخارق رأى أربعة فرسان يتوجهون صوبنا من بعيد. لم يكن لنا أي نصرٍ إن دافعنا عن أنفسنا، لكن برغم ذلك، اعتبر مرافقي الاستسلام عاراً يوصم به. وحين اقترب أحد الفرسان، رفع مرافقي رمحه وصاح «أنا سبأي! أنا سبأي!» بحسب قانون الأمم البدوية، يمكن لهؤلاء الفرسان اعتبار مرافقي عدواً لهم. فلو خفض رمحه لأَمَّنَ حياتَهُ على الأقل. لحسن الحظ، تبيّن أن هؤلاء الفرسان من أصدقائه. وبعد مغادرتهم، أنبأني أنه لو رمى رمحه على الأرض أمام هؤلاء الفرسان لكانوا شهدوا به فأصابه العار والتصق به طوال حياته.

أكرر ما سبق لي أن أشرت إليه، فالبدو تواقون دوماً إلى الربح. أما البخل فيختلف حدةً بين القبائل إذ يكون أعم في تلك الضاربة مضاربها قرب مدينةٍ. فكل ما يحصّله البدو من علاقاتهم مع المدن هو ارتفاع معدل ما يحتاجون إليه وانخفاض مستوى فضائلهم. فليس عند أهل المدن ما يمكن أن يحسّن البدوي أبداً. فعندما يكون البدوي ملاحقاً مصالحه، لا يُلَطِّف من طباعه إلا

إذا دُعي إلى احترام قانون حق الدخيل. فما إن يجد نفسه الأقوى حتى يقمع الفلاحين المساكين والمسافرين المسالمين من طريق طلباته التي لا تنتهي. كما أن وعداً قطعه لا يثنيه أبداً عما يريد فعله. ولهذه الأسباب نرى البدوي مكروهاً في مصر وسوريا إذ هو معروف هناك فقط بضرائبه التي يفرضها على المزارعين وقوافل التجارة، وبقسوته على من يرفض دفع الجزية. وبسبب الكراهية التي في صدر الفلاحين تجاه البدو، ينسون مقدار القسوة التي تلقونها من حكومتهم، برغم وجوب التمييز بين الأمرين لأن البدو أمة عربية تجد التسلط من حقوقها المكتسبة.

السلطات في العراق وسوريا ضعيفة ولا تستطيع صدّ هجمات البدو وغزواتهم، ولذلك تُترك القرى الحدودية المفتوحة على الصحراء لمصيرها. أما محمّد علي فبادر إلى حماية وإنقاذ قراه من أذى البدو على ضفتي النيل. ازداد خطر العرب الليبيين، فقاموا بمهاجمة القوافل بين أسيوط والاسكندرية وفرضوا الأتاوات على سكان القرى، بالإضافة إلى سرقة كل من هو غير محروس التقوه في الطريق. أسر الباشا الكثير من أولاد هذه القبائل في القاهرة، وكانت الفدية التي طلبها مقابل إطلاقهم كبيرة مؤلفة من خيول وجمال وماشية تضعف أقوى هذه القبائل. ولذلك، اضطرت إلى وقف جباية الضرائب لوقت من الزمان، لكنها عادت إلى ما كانت عليه، فلجأ الباشا إلى دفع جزء من تلك الضرائب من ماله الخاص، بينما هو يتلقى كل ما كان يأخذه البدو من قبل. ما تزال ٣٠ قرية في قبضته حتى اليوم، ويبقى أصدقاؤهم البدو صامتين.

قبل وصول محمد علي باشا إلى سدّة الحكم، كان عرب سيناء حماة السويس حيث كان لكل مسيحي أو تركي حام من هؤلاء البدو، يقدمون لهم الهدايا الموسمية والمال السنوي. الحامي البدوي يسمى غفيراً، والمحمي يدعى حسناي، لأنه يقدم الحسنة أو الهدايا. كان أهل السويس يخافون هؤلاء البدو كثيراً، لدرجة قدرة فتاة بدوية الوقوف على البئر التي لا تبعد عن البلدة سوى مسير ساعتين فقط، وتمنع كل من يود الشرب أو حمل الماء من التقدم إلا بعد أن يُهديها هديةً.

الشخصية الاجتماعية للبدوي حيث لا منافع وفوائد شخصية ودّية فعلاً، ورفيق ممتع ومسلٍ بفضل هدوئه وطيبة نفسه وملاحظاته المضحكة على المواضيع جميعاً. كما أن طبعه الهادىء لا يتأثر أبداً بالتعب أو المعاناة بخلاف الأتراك المتقلبي المزاج. الميزةُ الفضلى في شخصية البدوي إلى جانب إيمانه، هي طيبته إذ هو مسالم جداً إلا حينما يناديه واجب الدفاع عن شرف القبيلة. البدو وفيما بين أنفسهم أخوة، يتخاصمون لكنهم لا يترددون عن تقديم المساعدة لبعضهم بعض. والبدوي لم يعتد منظر الدم والقتل كما التركي، ولذلك تجد في قلبه الرحمة والمواساة. وينسون أحياناً أن الفقير الذي يطلب منهم عوناً قد يكون عدواً.

في خلافاتهم الخاصة، يتحفظ البدو لكنهم أكثر حقداً من سكان المدن. فسكان مدن سوريا ومصر من الطبقة الوسطى والفقراء يتقاذفون بالشتائم والهجاء، الأمر الذي يدهش فعلاً. ونادراً ما يتحول النزاع إلى خلاف بالأيدي إذ أن المبادر إلى الضرب يمثل أمام القاضي أما السلاح فلا يستخدم إلا في الحالات الطارئة جداً. أما في البدو فالشتائم أخفّ حدّةً لكن أكثر رجولةً، وأكثر خيالاً، كعبارات «العمى في عيونك يا كلب» و«رصاصة في قلبك!» و«انشلله تمرض»، و«يخرب بيتك»، وغيرها من العبارات الشائعة في البادية والتي تخرج من فم البدوي بفعل الغضب الشديد. لكن هذا الغضب لا يدفع البدوي إلى التلفظ بكلمات نابية لا تُغتفر. فإن يشتم بدوي آخر بقوله أنه كاذب أو خائن، أو غير مضياف، فهو يعرّض نفسه لطعنة خنجر. وفي غياب هذه الاتهامات، لا يستغرق الخلاف البدوي أكثر من نصف ساعة ويصطلح الفريقان بعدها. أما الشّرف المُهان فلا عذر أو اعتذار يصلح أمره.

السلام

الطريقة الشائعة لرمي السلام في كل أنحاء الصحراء تبدأ بـ «السلام عليك» وبعد ذلك السؤال التالي: «طيّب؟»، ثم التصافح والتقبيل إن كان الملتقيان لم يلتقيا منذ زمن طويل. يجهل البدو عبارات التأهيل والتحية الكثيرة المتبادلة في المدن. فالسؤال عن صحّة الآخر وعن سبب بعاده الطويل والتعبير عن فرحة لقائه ثانيةً، كلها عبارات لها إجابات وردود محددة لا محيد عنها. هناك أكثر من ٢٠ طريقة لقول صباح الخير في القاهرة، وإن قيل «نهارك أبيض»، الجواب مقتصر على «نهارك لبن». يجهل البدو كل هذه المجاملات والإطراءات، فهم يصبّحون بالخير ويودعون بالخير لا أكثر ولا أقل. وبين عرب مكّة، اعتاد البدو أن يردّوا السلام بجملةٍ من القرآن أو بحديث من أحاديث الرسول تلائم السلام. وهؤلاء البدو الأميون وخصوصاً في اليمن يحفظون عن ظهر قلب قسماً كبيراً من القرآن.

البدوي لا يكذب ولهذا يردّ بالردود الصحيحة على سائله عن قبيلته وعائلته، حتى لو كان غريباً. يُعَلَّم الأطفال ألا يجيبوا عن أسئلة مشابهة فقد يكون السائل عدوّاً سرياً يطلب ثأراً. والبدو يعتبرون السؤال عن قبيلة أحدهم إهانة توجّه إليه إذ يُفترض أن يُعرف أصل قبيلة البدوي من لكنته وكلامه ولباسه. لطالما تضايق مرافقي البدوي من سؤالي عن قبيلة كل فارس نلتقيه في الطريق، بل إنه نادراً ما أجابني إجابةً شافيةً واضحة، إلا في المناطق حيث كنت معروفاً من عرب القبائل. فأولئك الذين يلتقون غريباً في الصحراء ويسألونه عن بئر ماء أو طريق قريب، ينادونه «بالعمّ»، فيرد هو منادياً مكلّمه «بالأخ»، وهكذا سمعت: «يا عمنا اللي ماشي، معاك مويّه؟». «آه، والله يا خوي، مرحبا بك».

اللغة

كلام البدو يختلف تماماً عن اللغة العربية المحكيّة في المدن والقرى، حتى البدو الذين يعاشرون أهل هذه المدن. لغة البدو خام وبنيتها النحوية أصحّ من اللغة المعتمدة في سوريا ومصر. لكن هناك اختلاف كبير في اللهجات بين البدو أنفسهم، فلغة بدو نجد مختلفة عن لغة بدو سيناء وهكذا... القاسم المشترك بين كل البدو هو مخارج الحروف الصحيحة تماماً وخصوصاً الحروف التي تتطلب قوة في اللفظ مثل (ظ) و(ض) و(ذ) و(ث)، وهذا متعذر طبعاً في كلام سكان المدن. كما أن البدو يستخدمون ألفاظاً منتقاة يعتبرها أهل المدن من كلام النحو، ويرفضون إدخال الكلمات العاميّة التي يعتمدها أهل مدن وقرى سوريا ومصر، إذ هي بنظرهم كلمات فاسدة. أستطيع دون مغالاة أن أؤكد أن أفضل لغة عربية هي لغة البادية إذ هي خالصة من أي خلل. إن الحفظ عن ظهر قلب ونظم الشعر ساعدا على حفظ هذه اللغة صافية دون أن تكتب في كتب.

الشبان البدو معتادون على استخدام عبارات منتخبة ولبقة، وثمة من يكون في الحي دائماً يفسّر ما يصعب فهمه من الكلمات العربية الأصيلة التي قد ترد في القصائد والأغنيات.

اقتفاء الأثر

هنا كلامي يتناول موهبةً يتقاسمها البدو مع الهنود الأحرار في أميركا، موهبة تمييز آثار الناس والحيوانات. هذه الآثار في أميركا ترتسم على العشب أما في الصحراء فعلى الرمال. برغم ما يقال عن أن كل بدوي يكتسب معرفة في هذا الفن بفضل المران، لكن قلّة هم الرجال الذين يمتازون فيه. فالعربي الذي ثابر على دراسة فن اقتفاء الأثر قادر على معرفة صاحب هذا الأثر أكان فرداً من قبيلته أو من القبائل المجاورة، وهكذا يدرك أكان الذي مرّ في هذا المكان صديقاً أو غريباً، وإذا ما كان حاملاً شيئاً. ومن قوة الأثر أو ضعفه يحدد إن كان مرّ المار هنا اليوم أو في الأيام الماضية. من بُعدِ الأثر عن الآخر، يستشف قارىء الآثار إن كان الذي مرّ مرتاحاً أو تعباً، إذ عند التعب تصبح الخطوات عشوائية والفارق غير متساوٍ. وبالتالي يمكنه احتساب الفرصة التي يمكنه أن يسيطر فيها على الرجل أو يتغلب عليه.

بالإضافة إلى كل هذا، يعرف كل عربي رسم آثار جمله وجمال جيرانه، ويقدر أن يعرف أكان الجمل يرعى أو حاملاً راكباً واحداً أو محملاً حمولةً ثقيلةً. في الحقيقة، يستطيع البدوي أن يستشف من آثار خطى الجمل وصاحبه الكثير من المعلومات عن الدابّة وصاحبها من خلال فراسة تبدو خارقة للطبيعة. ويفيد البدوي من هذه الموهبة في بحثه عن الهارب من وجهه وعن

قطيعه المسروق..

التقيت رجلاً تبع آثار خطى جمله في أحد الوديان بين آلاف الآثار على الطريق نفسه، وكان قادراً على تحديد من مرّ بذلك الوادي منذ صباح ذلك اليوم. وحتى أنا وجدت مفيداً أن أعرف آثار خطى قوائم جمال مرافقيّ وأقدامهم، إذ قد يحصل ما يضطرنا إلى الانفصال عن بعضنا في الصحراء الشاسعة. خلال المرور عبر مناطق خطرة، يرفض المرشدون السماح لأهل المدن والغرباء بالسير إلى جانب الجمل. فإن كان هذا الغريب يلبس حذاءً، سيترك أثراً يُعرّف كل البدو أن غريباً مرّ في المكان، وإن كان حافياً، تكون آثار خطاه مميزة عن خطى البدو المعتادين على السير فوق الرمال. وبما أن البدو يعتبرون أهل المدن من الأثرياء، سيظنون هذا الراكب غنياً محملاً بالكنوز فيطاردونه وغايتهم سرقته. الدليل البدوي الجيّد يمشي وعيناه على الأرض يتفحّص الآثار الموجودة عليها، وينزل عن جمله ليتأكد من دقة طبيعتها. أعرف قصص جمال تبعها أصحابها مسافة تجاوزت مدتها ستة أيام حتى وصلوا إلى مضارب سارقيها.

إن قراءة الأثر على الرمال تفضح أمر الكثير من الحركات السريّة لأن مشي أي أعرابي على الرمال الصحراوية ينكشف لأي آخر نظر إلى الأرض وعرف أثره. وإن كل واحد من جيرانه يمكن أن يقرأه.

أفكار عامة

عند الغوص في القوانين البدوية، يبرز سؤال مهم وطبيعي وهو: كيف نشأت هذه القوانين التي تعمّ كل المناطق البدوية وتخضع لها كل القبائل العربية. بالكاد نستطيع الافتراض أنها نشأت من رغبة القبائل نفسها إذ هي تبنت تقاليد محددة تطورت لتتحول إلى قوانين عامة. إن الأعراف السياسية البدوية وطبيعة مراكز المشايخ والقواعد المتبعة في الحرب وفي الصلح، تردّ كلها إلى جذور مشابهة. هذه القوانين عامة فعلاً إذ يرضخ لها كل أفراد القبائل في الصحراء. لكن حال الأعراف المدنية مخالف لأنه يصعب الاقتناع أنها ولدت بالصدفة.

القانون العام الذي يحكم الثأر يبقى ضمن مفهوم الخمسة، ويحدد ضيافة اللاجىء بثلاثة أيام وثلث اليوم. أحكام الدخيل والربيط والطلاق وتقدير حق الجرح وحق الشتيمة وطبيعة مركز العقيد، برأيي، من عمل مشرّع. إن من يعرف القوانين البدوية وتلك العثمانية يدرك إلى أي حد يختلف القانون في البادية عن أي قانون عام في الامبراطورية العثمانية الإسلامية. المشرع الشرقي الأعظم، محمّد، لم ينجح تماماً في فرض قوانينه على أمّته، لكنه نجح في نشر هذه القوانين بمساعدة أتباعه البدو في البلاد المجاورة. فرض على البدو التخلي عن تعدد الآلهة وعبادة الله الواحد. وبرغم أنهم قبلوا الدين الجديد وطقوسه إلا أن القانون الذي أنزله الله على

محمد لم يترك في نفوسهم تأثيراً يُذكر، بل تابعوا عاداتهم وتقاليدهم التي لا تتعارض كثيراً مع الدين الحنيف. إن تداخلاً إضافياً مع قبائل نجد واليمن الكبيرة سيمكنني من تسليط الضوء أكثر على قوانين وأعراف أخرى تعود أصولها إلى أيام الجاهلية، أي العصور التي سبقت ظهور محمّد.

فإن كانت القوانين المدنية البدوية بدأت مع محمّد، وبما أن التاريخ لم يذكر وجود أي مُشَرِّع في البادية، يجب أن نوجه بحثنا عن مُشَرِّع نحو عصرٍ من العصور الغابرة. لكن في الجزيرة العربية، كل شيء غامض ومحكوم بالشكوك، وليس في يدنا سبب لنعتقد أن قائداً أو ملكاً عربياً حكم في ذلك الزمان القديم، ولا نعرف عنه غير اسمه، مدّ سلطانه على صحراء الجزيرة العربية وعلى البدو فيها.

لربما يتم يوماً اكتشاف مخطوطات عربية قديمة تقدم إجابات محددة عن كل هذه التساؤلات، إذ أن معظم مؤلفات المؤرخين العرب لم تصل إلى أوروبا. فاكتشاف مخطوطات في نجد أو اليمن يؤدي حتماً إلى إيضاح الحقائق التاريخية المجهولة بعد. إن قبائل البدو وكما هي الآن حقلٌ مفتوح للأبحاث والدراسات فهي تقدم لنا مثالاً نادراً على أمة حافظت، برغم مرور الأعوام والعصور، على قوانينها البدائية بكل مفاعيلها، وطبّقتها بفضل الروح القومية والشخصية الصافية اللتين يتمتع بهما أفراد هذه الأمّة القساة لكن الوطنيين.

٧

إضافات إلى تبويب القبائل البدوية وتصنيفها

القسم الأكبر من قبيلة ولد علي تنزل في خيبر في جنوب الجزيرة العربية.

قبيلة الحسنة ـ شيخها مهنّا المولود في الأراضي المنخفضة بين تدمر وأناه. هذه الأراضي المنخفضة المسماة وديان، وهي ثمانية أساسية في هذه المنطقة، هي مراعي قبائل عنيزة في الشتاء، وطولها مسير ثمانية أيام من الغرب إلى الشرق. وادي حوران جزءٌ من هذه الوديان، وأتيت على ذكره في الفصل السابق. خلال القرن الماضي، كانت هذه الأراضي موضع قتال بين العرب الموالي الأقوياء حينها ولكنهم اليوم يستوطنون البادية قرب حلب، وقبيلة بني خالد من البصرة. ففي الشتاء، تتواجه القبيلتان في قتال هدفه السيطرة على المراعي الخصبة.

الجلاس أو الرولة

هذا الفرع الثالث من عنيزة، ويدعى الرولى بينما الاسم الصحيح هو الجلاس، مقسوم إلى قبيلتين أساسيتين:

١ ـ الرولة، وقبائلها الفرعية قتعيسان والدغمة والفريقة والنصير.

٢ ـ المحلّف. وشيخها المعجّل، وقبائلها العبد لله والفرشا والبدور والسوالمة.

معظم قبائل عنزة الكبيرة، كما ذكرت من قبل، تتقاضى مالاً من قوافل الحجيج الآتية من سوريا. فقبيلة الأحسنة كانت تتقاضى صرّة تقدّر بخمسين درهماً من كل قافلة ويتوزعها أفراد القبيلة. وهكذا تتقاضى قبيلة ولد علي. أما الغدان، أقوى قبائل عنيزة، فلا يصيبها شيء من هذه الضريبة.

كان الجلاس في السابق يهيمون في نجد، وهم معروفون في سوريا خصوصاً منذ حربهم عام ١٨٠٩ مع قوات والي بغداد، إذ اختلفوا معه على أرض هي زاوية يشكلها نهر الفرات مع خابور، مقابل رحابا. غنم الجلاس من هذه الحرب التي ظفروا بها بنادق وخياماً نقلوها إلى

العاصمة الدرعية، وباعوا ما حصلوا عليه من جياد كثيرة لعرب عسير في اليمن. الجلاس هي القبيلة الأقسى والأكثر ميلاً إلى العدوانية والحرب في الصحراء بين سوريا والبصرة. وبفضل قوتهم وكثرة عددهم، قدروا على تحصيل الأتاوات من قرى سورية كثيرة.

البِشر

هذه القبائل تنقسم إلى قسمين:

١ ـ عرب طنا ماجد، ولها قبيلتا فدان وسبأ.

٢ ـ عرب سلقا، ويسكن معظمهم مناطق الاحسا الوهابية على الخليج الفارسي. ولها قبائل مضيان ومطرّفة وأولاد سليمان. شيخ سلقا هو ابن هدّال المناصر القوي للوهابيين، والذي شارك في كل المعارك التي وقعت بين ١٨١٢ و١٨١٥ في الحجاز ضدّ جند محمد علي باشا. وبفضله هو لم يستطع طوسون باشا عن التقدم عام ١٨١٥ من المدينة إلى القصيم.

قوي عرب فدان أخيراً فهزموا الحسنة في مواقع عديدة على الحدود السورية.

ينحدر أولاد سليمان من الجعافرة القبيلة العريقة التي تشرف الآن على الانقراض. وثمة قبيلة أخرى، قبيلة عواجة، تدّعي الانتساب إلى الجعافرة أيضاً. هؤلاء يضربون مضاربهم قرب مضارب ولد علي في حوران ولهم هناك قرابة مئتي خيمة، وهم لا ينتمون إلى عنيزة. من هؤلاء الجعافرة، ذهب قسم إلى مصر في أيام الفتوحات الإسلامية. أحفادهم يستوطنون الآن الضفاف الغربية للنيل في مصر العليا، بين قريتي إسنا وأسوان. وتشتهر النساء المنحدرات من الجعافرة بأنهن يلدن التوائم، فذاع صيتهن في مصر والجزيرة العربية. منازل أولاد سليمان قريبة من خيبر، وهؤلاء يشكلون قبيلةً قويةً محاربة لها ما يزيد على خمسة آلاف خيمة.

يعيش عرب سبأ اليوم على الحدود السورية بعد انتقالهم من نجد. فقد هجروا نجد قبل ١٢ عاماً هرباً من التأثير الوهابي عليهم.

أهل الشمال

يستخدم عرب سوريا هذه التسمية إذ هي متصلة بموقعهم. فبين عرب الحجاز، يقال عن قبيلة عنيزة إنها من أهل الشمال. أهم أصول عنيزة كان وائل، وقبيلة بني وائل معروفة لجميع المؤرخين أنها القبيلة التي عاصرت وقاتلت محمّداً. إن عنيزة هجرت خيبر ونجد نحو سوريا منذ أقل من مئة وعشرين عاماً. يقول البدو إن وائل، كان محظوظاً واستطاع تحديد موعد ليلة القدر، حين يكون الخالق مستجيباً لدعوات الخلق. تلقى وائل وناقته الهبة الإلهية فأمسى مباركاً

مستجاب الدعوة. وأنجب بنينَ وبناتاً كثيرين، واغتنى أهله وأتباعه بالجمال الكثيرة. هذه القصة يصدقها كل عنزي ويرويها بكل حماسة.

الموالي ـ شيخها الغنج المعروف ببسالته، قُتِل غدراً بيد باشا حلب في حرمه الخاص في العام ١٨١٣، وأُلحق ابنه (١٦ عاماً) بحرس صحراء حلب. كان الموالي أسياد البادية بين حلب وحماه دون منازع، وحقّت لهم الصّرة أو الأتاوة السنوية، من قوافل الحجيج التي تعبر مناطقهم. سلبهم العنيزيون حقوقهم هذه وأصبح أفراد الموالي قلّة لا حول لهم ولا قوة.

عرب الفحيلي في دمشق يتألفون من قبائل عديدة يقال إنها دون إيمان لكن هذه التهمة لا تصبح إلا على بعضٍ قليلٍ منهم. لكنهم يحاولون التعويض عن هذا الأمر بضيافة كريمة جداً. وهكذا يُعرف الموالي والفحيلي في سوريا بالغش والخداع، لكنهما قبيلتان مضيافتان جداً. ما يميّز الفحيلي عن الموالي هو أن الأوائل مكروهون لقيامهم بسرقة خيام الأصدقاء قبل الأعداء.

أصل الحويتان يعود إلى القبيلة العريقة بني عطيّة. فهؤلاء هم جذور الحيوات والطرابين والمعازي (بين السويس والقصير) والتياها. هذي القبائل العربية الساكنة على ضفاف الخليج الشرقي للبحرْ الأحمر تتلقى مؤنها من القرى قرب الخليل. وحين تخف هذه المؤن في سوريا، تسافر هذه القبائل مسير ١٥ يوماً إلى القاهرة حيث تتمّون حاجتها من الذرة.

أما قبيلة عمران، وبرغم تحالفها مع الحويطات، فلا تنتمي إليهم بل هي قبيلة مستقلة بذاتها، تسكن الجبال بين العقبة والمويلع شرقي البحر الأحمر. قبيلة العمران قوية تتمتع بروح الاستقلال والحرّية، ومشهورة بتجبرها بسبب غزواتها المرعبة وخصوصاً على قوافل الحجيج المتوجهة إلى مكّة، والتي مضطرةً تعبر مناطقها. حتى حين نجح محمد علي باشا في قمع القبائل التي تهدد القوافل المصرية إلى مكة، بقيت قبيلة عمران على قوتهاوسطوتها. ففي العام ١٨١٤، هاجم العمران سرية من الفرسان الأتراك قرب العقبة وسلبوها ما لها. وفي العام ١٨١٥، هاجموا كل القوافل السورية المتجهة إلى الحج وخلال عودتها من المدينة إلى دمشق. من أهم فروع عمران قبيلة حدنان.

قبابل الدبور والبدول تضرب منازلها في جوار العقبة، وهي متحالفة دوماً مع قبائل عمران والحويطات. وفي تلك المنطقة أيضاً ثمة قبيلة أخرى هي قبيلة السيايحة.

بين عرب الخليل، نجد قبائل الطياحا، وقبيلتها الأساسية الحكوك ـ أو الطرابين ـ الذين يقودون القوافل من غزة والخليل إلى السويس. من قبائلهم العزازمة والوحيدات التي يتفرع منها أولاد الفُقرا. ثمة قبيلة صغيرة بين غزة والخليل تدعى الرتيمات وإلى جانبها أخرى هي الخناصرة. في الربيع، يتوجه عرب غزّة والخليل إلى ضفاف أقنية النيل في الشرقية حيث ترعى

القطعان العشب النضر الذي ينبت بفضل فيضان هذا النهر في الشتاء.

عرب الطور أو الطورا

يسكن هؤلاء العرب سيناء وهي مقسمة إلى ثلاثة فروع: الصوالحة ومزينة وعليقات.

١ ـ الصوالحة وفيها أربع قبائل هي أولاد سعيد والعوارمة والقراشي والرحمي. والقراشي هؤلاء ينحدرون من قبيلة قريش المكية العريقة.

وفي الصوالحة ٣٠٠ بندقية لكنها تفتقر للجياد، وهم كما كل قبائل الطوارا، تخفف من علاقاتها مع جيرانها الشرقيين.

٢ ـ المزينة، المنحدرة من قبيلة لها الاسم نفسه في المنطقة إلى الشرق من المدينة. المزينة والعليقات تبقى في المناطق الشرقية والغربية في الجزيرة العربية.

٣ ـ العليقات تشكل هذه بالتحالف مع قبيلة المزينة قوةً من ٣٠٠ بندقية. تستوطن العليقات في النوبة، تحت الدرّ، وهي من أصول سينائية. بالإضافة إلى القبائل الثلاث المذكورة، ترعى قبيلتا التياها والطرابين قطعانها في الأجزاء الشمالية لصحراء جبل سيناء. ثمة بقايا من هاتين القبيلتين في هذه المنطقة هي بني واصل وبني سليمان. بعض بني واصل يعيش في مصر العليا، على الضفة الشرقية من النيل وإلى جانبهم بنو سليمان. والملاحظ أن عرب الطور لا يستخدمون الجياد أبداً.

لإكمال هذا الملحق عن البدو الشرقيين، أورد فيما يلي أسماء القبائل الساكنة على الحدود الشرقية للدلتا المصرية.

عرب شرقية مصر

كان ثمة قبائل قوية جذبتها خصوبة المنطقة هنا من مناطق مختلفة. خلال الحكم المملوكي في مصر، يمكن القول إنهم كانوا أسياد منطقة الشرقية، يتقاضون الضرائب من سكانها ويقاسمونهم الحصاد. ساعدت مناطقهم المحصورة اختلاطهم بالفلاحين ومصاهرتهم محمد علي باشا على إخضاعهم وإبادتهم. وبذلك خدم المصريين الذين قاسوا الأمرّين من هؤلاء العرب.

القبائل الرئيسية هنا هي:

الطّواحة ـ المتصلون بقبائل سيناء المذكورة.

العيايدة ـ قبيلة تشكلت قبل مئة عام من ٦٠٠ فارس. تضرب مضاربها أحياناً في المناطق الممتدة بين السويس والقصير، ودوماً في السهول القريبة من القاهرة. لها قرابة ١٠٠ خيمة

وقبائلها الفرعية هي السلاطين والجربانة ومعازي، لكن يجب عدم الوقوع في الالتباس إذ غيرها من القبائل تحمل الأسماء نفسها. العيايدة من ألد أعداء الحويتات، ويُرى بعض أحيائها على الطريق السوري المؤدي إلى العريش.

الحويطات ـ تتصل هذه القبيلة بقبائل الشرق، لكنها أخذت تتلاشى بفعل اختلاطها مع الفلاحين. يعمل أفراد هذه القبيلة في التجارة بين القاهرة والسويس. قبائلها الفرعية هي الموالى والغنايمة والشدايدة والزراينة، ولا تتجاوز كلها ٦٠٠ خيمة.

الهتيم ـ قبيلة هائلة العدد تصل مضاربها من الصحراء العربية إلى غوص وغوفط والقفط في مصر العليا.

الجهينة ـ أتت هذه القبيلة من الحجاز حيث تستقر القبيلة الأم.

البلي ـ وصلت هذه القبيلة لاجئة أو بهدف الحصول على الثروة من طريق سرقة الجيران الأغنياء من سكان مدن مصر. اعتمد عرب الشرقية (إلا معازي) اللهجة المصرية، وهذا سبب كافٍ ليحتقروا من قبل البدو الأصليين. أما القبائل البدوية الصغيرة في سوريا، فبقيت على اللهجة البدوية برغم اختلاطها الدائم مع المزارعين والفلاحين وسكان القرى السوريين. لكن هذا الاختلاط لم يبلغ مبلغ اختلاط البدو مع الفلاحين المصريين.

العليقات ـ قبيلة محمودةٌ بين قبائل جبال سيناء، أصولها ضاربة في بادية الشام.

العزايرة ـ قبيلة من قبائل الهتيم. مضاربها في مصر العليا.

قبيلة عمارات

قبيلة المعازي ـ ترعى قطعانها أحياناً قرب النيل لكن سكنها دائم في الجبال بين القاهرة والقُصير، وتعمل في النقل التجاري بين القصير والجنّة. هؤلاء المعازي هم الوحيدون ذوو الأصول المصرية الذين حافظوا على لغة وملبس وعادات وتقاليد البدو الشرقيين، بكل تفاصيلها الصافية. نزلوا سابقاً جنوبي وشرقي عمران قرب المويلحة حيث ما يزال إخوانهم هناك. خلال القرن الماضي، اضطروا بفعل غزوات أعدائهم إلى هجرة مناطقهم والسعي إلى ملجأ في مصر. لقي معظم من انتقل براً مصرعه عند عبور مناطق الحويطات، أما من انتقل بحراً إلى طور ووصل إلى مصر سالماً، وجد الشرقية تعج بالبدو فانسحب إلى الجبال شرق النيل. انخفض عدد أفراد هذه القبيلة بسبب معاركها مع بك مصر وبعده مع الباشا وتبقى في صراع دائم مع بدو العبابدة الذين يسكنون جنوب الطريق إلى القصير. في الوقت الحاضر، لا تتجاوز قوتها ٢٠٠ فارس. خلال ٢٠ سنة مضت، ازداد عدد قبائل الشرقية إذ أُضيف إليها:

قبيلة هنادي المغربية التي تلبس لبوس البربر وعرب ليبيا. استقروا أولاً في منطقة البحيرة في

الدلتا وفي الصحراء الممتدة من سفوح الأهرامات حتى الاسكندرية. وبعد أن غلبتها قبيلة أولاد علي القوية، اضطرت هنادي إلى التضحية بحصتها من الضرائب التي فرضتها على سكان قرى البحيرة لصالح منافستها، وتراجعت عبر النيل إلى الشرقية حيث هي اليوم. قبل ثلاثين عاماً، كانت هذه القبائل تعدّ ثلاثة آلاف فارس على الأقل، أما اليوم فقوتها القصوى لا تتجاوز ٦٠٠ فارس. يتقاضى منهم باشا مصر اليوم الجزية ويراقب تحركاتهم ويقيّدها ويمنعها حتى من التقاتل فيما بينها. هذا هو الوضع الأصعب الذي يمكن للبدوي أن يجد نفسه عالقاً فيه. المنطقة بين بلبعايس وصالحية مأهولة عادة بهؤلاء البدو إلى جانب ثلاث قبائل هي الحوامدة وأولاد موسى واللّباديّة.

عودةً من أطراف مصر نحو الحدود الشرقية للبحر الأحمر، أُتابع آثار القبائل المختلفة حتى مكة والطائف.

قبيلتا الحويطات وعمران اللتان ذكرتُ تصلان في مضاربهما حتى جوار مويلح. وبين أحيائهما، في الجبال غير البعيدة من البحر، ثمة مضارب لبلي والهتيم. وعلى مبعدة مسير يومين إلى الجنوب من العقبة في الوادي الخصب المسمى مقنع، حيث النخيل كثير، تسكن قبيلة مقنع التي تتألف من المزارعين.

إلى الشرق من العقبة ومقنع، نحو طريق الحج السورية، نجد قبيلة معازي المعادية دائماً لعمران. في معازي قرابة ٥٠٠ بندقية، ولهذه القبيلة إخوة هم معازي مصر.

بنو عقبة، هي نفسها القبيلة التي تنزل بجوار الكرك. تملك هذه القبيلة قرية مويلح والأراضي التي حولها، حيث نجد أحياناً قسماً من عرب مساعد.

البلي ـ إنها قبيلة عربية مضاربها في الأراضي الواقعة بين مويلح وقلعة وجّه والوادي الذي يحمل الاسم نفسه. هذا المكان محطة مهمّة على طريق الحجيج إذ فيه ماء عذب. القلعة واقعة على الجبل، على مبعدة ٣ أميال من البحر. في الموقع العسكري هناك دزينة من الجنود المغاربة ويبدو أن هذا هو مركز إقامة البلي. في الربيع، يعبر هؤلاء العرب مع قطعانهم البحر على مراكب ليصلوا إلى الجزر القريبة حيث أنبتت مياه الشتاء العشب الطري ويبقون هناك طالما يجدون تجمّع من الفطر الشتوي بين الصخور. بعض الحويطات موجود إلى الجنوب من مويلح ويُطلق عليهم اسم حويطات القبلي لتمييزهم من إخواهم في الشمال.

الهتيم ـ على مسيرة ٣ أيام من الوجه، وفي الاتجاه الجنوبي، حتى جبل حساني، الهتيميون يسيطرون على كل الأراضي. فهذه القبيلة هي الأكثر توسعاً انتشاراً وحضوراً في جميع أنحاء البلاد تلك. في سوريا، وفي مصر العليا كما السفلى، وعلى ضفاف البحر الأحمر حتى اليمن،

وفي نجد والعراق، أحياء الهتيم منتشرة دوماً. وربما كان هذا الانتشار هو السبب في كون هذه القبيلة أقل القبائل احتراماً. فإن لقّب بدوي آخر بالهتيمي، أعتُبِرَ ذلك إهانة عنيفة، إذ أن قبيلة الهتيم مكروهة حتى حدود عدم السماح بمصاهرتها أو الزواج منها. كما أن أفراد هذه القبيلة مضطرون في كل مكان إلى دفع الضرائب إلى جيرانهم البدو كي ينالوا الإذن برعاية قطعانهم. وبخلاف منطقة ضفاف البحر الأحمر التي يملكونها فعلاً، لا يملكون منطقة أخرى يسكنونها، وهذا بعكس حال البدو الآخرين. وهكذا، يدفع الهتيمي الضرائب لجيرانه في مصر وسوريا والحجاز. بعدما أدرك الهتيميون حقيقة وضعهم، فضلوا التخلي عن روحهم القتالية والتزموا جانب المسالمة، لكن خداعهم ومراوغتهم زادتا من كراهية الآخرين لهم.

تشتهر نساء الهتيم بجمالهن وتحررهن، ويقول العرب إن عبيد الهتيم لا يهربون أبداً إذ لا تتورع سيدة العبد عن دعوته إلى أحضانها. برغم كل هذا، يُعرف الهتيمي بكرم الضيافة تجاه الغرباء. لكن يُقال إن هذه الفضيلة مفروضة عليهم فرضاً إذ يتوسلونها للحصول على صداقة جيرانهم. والهتيميون كما غيرهم من سكان السواحل، صيّادون يُجيدون الصيد ويبيعون السمك لطواقم السفن الآتية من الحجاز أو الذاهبة إليه. كما يغطسون لصيد اللآلىء قرب الجزر. يشترون مؤونتهم من الذرة في مويلح ووجّه لكنهم يعتاشون أساساً على الحليب واللحم والسمكة والعسل. لهم جمال قليلة ولا يقتنون الجياد، لكن قطعان مواشيهم يبيعون منها في طور وينبع. بشكل عام، بدو هذه المنطقة إلى جوار البحر الأحمر فقراء إذ أن مراعيهم لا تُنبت كثيراً من الأعشاب الجيّدة، كما أن بُعدَهم عن القرى والبلدات المأهولة يجعل اختلاطهم بأهلها صعباً وغير مثمرٍ. إن حصل.

بنو عبس ـ قلة قليلة من عوائل هذه القبيلة العريقة التي ترعرع فيها عنترة المشهور، ما تزال تسكن جبل حساني وجزيرة الحرّة التي تقابله. وهؤلاء هم البدو الوحيدون الذين يحملون اسم عبس برغم وجود قبائل أخرى تعود جذورها إلى عبس لكن تعيش تحت اسم آخر. لكن العبسيين يشبهون الهتيميين في كراهية الآخرين لهم، ونعتُ «عبسي» مرادفٌ تماماً لصفة «هتيمي» إذ يشتركان في كونهما إهانة يوجهها البدوي إلى الآخر. يملك العبوس قوارب صغيرة ينقلون فيها المؤن من الحجاز إلى السويس. وعند توقف الأمطار، يرعون مواشيهم في جزيرة الحرّة التي ذكرت. في بداية القرن الماضي، كانت عبس قبيلةً كبيرةً. وحتى هذه الأيام، يتقاضى ما بقي من العائلات العبسية المال من قوافل الحجيج المصرية، هذا المال فرضه أجدادهم منذ القدم.

جهينة ـ إلى الجنوب من جبل حساني بداية أحياء ومنازل قبيلة جهينة القوية، الممتدة طوال

الساحل وشرقاً حتى هديّه، محطة قوافل الحج السورية. من ينبع وباتجاه المدينة تملك هذه القبيلة الأراضي حتى حدود مسير ١٥ يوماً، كما تملك أيضاً السهول المزروعة في ينبع النخل. بعض رجال هذه القبيلة مزارعون لكن الجزء الأكبر منهم باقٍ على بدويته. الجهينيون يشكلون غالبية سكان يمنع. وبرغم افتقارهم إلى الجياد، يمكن أن يجمع الجهينيون ٨ آلاف بندقية عندما يدقون ناقوس الخطر. هذه القبيلة في حرب مستمرة مع قبيلة بني حرب المجاورة التي ساعدت سعود الوهابي على إخضاعها، بينما عصيت القبائل المذكورة الأخرى، جنوب العقبة، على الوهابيين وما خضعت لهم. ولم يقم سعود بتوجيه الحملات إليها بل اكتفى ببعض الغزوات بين الحين والآخر. يعترف الجهينيون بوصاية شريف مكّة، وهم ساعدوا باشا مصر على احتلال المدينة في العام ١٨١٢.

لجهينة حق في الصرّة من حجّاج الطريق المصرية أي مكة مثل كل البدو الساكنين إلى الجنوب من العقبة. أما عن أفخاذ هذه القبيلة فلا علم لي بأي خبر.

وبالعودة من العقبة، أبدأ الآن تعداد قبائل البدو في الصحراء الشرقية ناحية نجد ووصولاً إلى المدينة.

٨

بدو الصحراء بين العقبة الشامية والمدينة مروراً بقبائل نجد

إن ما أعرفه عن هذه القبائل حصلت عليه من الأقاويل التي بلغتني والتقارير الموثوقة، وقد قابلت بنفسي بعض أفراد من كل القبائل التي ورد ذكرها في هذه الصفحات، بين الفرات ومكة والطائف. القبائل التي سأصفها الآن وهابية كلّها، وبقيت كذلك بعد حملة محمد علي باشا على هؤلاء المتعصّبين.

الصحراء جنوب العقبة حتى هجر يسكنها العنزيون. لكن واحات هذه الصحراء وآبارها قليلة، ولهذا لا يبقى البدو في مستقرٍ واحدٍ على الطريق المؤدية إلى مكة بل ينقلون مساكنهم نحو المناطق الشرقية ناحية جبل شمّر والقصيم. قبائل عنيزة الساكنة في هذه المناطق هي:

- أولاد سليمان، قبيلة من قبائل بشر، ولها خمسة آلاف خيمة في نواحي خيبر.
- الرولة أو الجلاس النازلون أيضاً في خيبر.
- الفقرا، وهي قبيلة من قبائل ولد علي في هجر، مشهورة بشجاعتها. وكل القبائل التي ذكرت الآن غنية بالجياد وتفرض الأتاوات على قوافل الحجيج.

بدو جبل شمّر

بنو شمّر، وشيخها ولد علي ذو التأثير في القصر الوهابي. لها خيول قليلة، وباستطاعتها جمع ما بين ٣ آلاف و٤ آلاف رجلٍ مسلحين ببندقيات الفتيل. بعضهم بدو وبعضهم الآخر مزارعون. قسم من هذه القبيلة مستوطن في العراق حيث يعدّون من ألد أعداء الوهابيين. القبيلة الأكبر المتفرعة من بني شمّر هي قبيلة الدغيفات.

الجعافره

الرباعي: وهي قبيلة تعود في أصولها إلى بني ديغم العريقة التي يذكر شيخها عرار الديغمي دوماً في الروايات البدويّة.

الزقيرات: وهي قبيلة منبثقة من قبيلة بني ديغم نفسها، وأفرادها مزارعون يسكنون ناحية إمام حسين. ثمة في جبل شمر ونجد قبائل بدوية أخرى إلى جانب التي ذكرت، لكني ما قدرت على تحصيل أسمائها.

بدو القصيم وبعض مناطق نجد

قليلة جداً هي القبائل الكبيرة في الصحراء العربية التي لا تملك مضارب في نجد. فكل سكان المدن والقرى النجدية لهم أصول في القبائل البدوية يشبهونها في أعرافهم وتقاليدهم وسلوكهم. من القبائل الموجودة في هذه المنطقة طوال العام:

ـ **السلقا**: فرع كبير من فروع عرب بشر العنيزيين. شيخها، ابن هدال، رجلٌ يحترمه الوهابيون.

السحّون: قبيلة مشهورة بالشجاعة والفروسية فيها ٣٠٠ فارس.

بنو لام: يتصل هؤلاء بالذين يحملون الاسم نفسه ويرعون قطعانهم على ضفاف شط العرب. وهي قبيلة صغيرة.

الهتيم: هذه القبيلة موجودةٌ هنا كما في كل مكان في الجزيرة العربية.

بنو حسين: قبيلة من العرب تتبع علياً بن أبي طالب مثل الفرس، شهرت وهابيتها وبقيت سراً من شيعة علي.

الزعب: قبيلة صغيرة في نجد والحصّا.

العقيل: كانت هذه قبيلة قوية في العصور الغابرة، أصولها تعود إلى بني هلال. أما اليوم، فأفرادها منتشرون في كل مكان بين قرى نجد. لكن ثمة قبيلة أخرى تدعى بني عقيل نشأت في عهد السلطان مراد. أمسى كل عرب نجد التابعين لبغداد أفراداً في عقيل البغدادية ذات النفوذ في بلاد ما بين النهرين، والتي تدعم الباشا هناك في حروبه ضد القبائل البدوية المجاورة وثوار تلك المدينة. شيخ عقيل بغداد رجل من الدرعية يختاره البدو ويوافق عليه الباشا. بنو عقيل هؤلاء مشهورون بشجاعتهم في الحروب، ولهذا يقودون القوافل من بغداد إلى سوريا. ويُروى أنهم صدّوا قوى وهابية تفوقهم عدداً وعدةً وهم ينقسمون إلى طبقتين في بغداد:

١ ـ **الزقرتي**: البدو الفقراء والباعة المتجولون.

٢ ـ **الجماميل**: قوّاد القوافل، وبينهم أفراد من قبائل ومناطق مختلفة كالحصّة والعريض والقاسم وجبل شمّر. لكن الآتين من صدير (منطقة نجدية) إلى بغداد لا يُقبلون في الجماميل، كما لا نقع على أفراد من قبيلة الدواسر الجنوبية قرب الحدود اليمنية بين هؤلاء العقيليين.

مطيّر: وهي قبيلة قوية جداً فيها ١٢٠٠ فارس وتعد بين ٦ و٨ آلاف بندقية فتيل، يعيش أفرادها في نجد وخصوصاً في القصيم حتى حدود المدينة. وتنقسم هذه القبيلة إلى فروع أربعة:

١ ـ العلوي وشيخها دويش حليف لطوسون باشا في حروبه ضد الوهابيين.

٢ ـ البُراي، وشيخها يدعى مريخي.

٣ ـ الهرابشة.

و٤ ـ البرسات.

المطيّر تعادي عنيزة على الدوام.

من القصيم حتى المدينة ومكّة

باستثناء بعض المكان الذي تشغله قبيلة المطيّر وبعض أحياء الهتيم، كل هذه المنطقة مأهولة ببني حرب، القبيلة التي يساوي عددها عدد عنيزة، وتكوّن مع هذه القبيلة الاتحاد الأفضل في بدو الصحراء العربية.

قبيلة بني حرب

من مجموع هذه القبيلة يمكن أن يتشكل جيش تعداده بين ٣٠ و٤٠ ألفاً من الرجال المسلحين ببندقيات الفتيل. هذه هي قوتها عند اتحادها في جيشٍ واحدٍ، فقبائل بني حرب مستقلة فيما بينها لكن الرابط الذي ترتبط به أقوى من الرابط الذي يجمع بين قبائل عنيزة الكثيرة جداً. بعض بني حرب حضرٌ وبعضهم الآخر رُحَّلٌ، ونرى في كل قبيلة من اعتمد هذه الحياة أو تلك. يحصل بنو حرب على مالٍ كافٍ جداً من قوافل الحجيج السورية والمصرية، ويمكن تلقيبهم بأسياد الحجاز. هم آخر من اعتنق الوهابية، جيادهم قليلة جنوب مكة لكن ثمة بندقية لكلِ منهم ولهذا يقومون بين الحين والآخر بالغزوات على ديار عنيزة في سهول حوران بالقرب من دمشق.

من قبائل بني حرب شرقي المدينة

المزينة: وتعدادها أربعماية فارس وألفان من حاملي البندقيات. تحولت إلى الوهابية قبل قبائل حرب الأخرى، وكل أفرادها بدو رحل.

الوهوب والجربان.

الجناينة: بعضهم حضر ومزارعون في التلال إلى الشرق من المدينة على بعد يومين أو ثلاثة أيام. ومن زراعتهم استقوا اسمهم هذا.

بنو علي: هؤلاء من شيعة علي وأصولهم فارسية؛ قلّة منهم حضر وفيهم خمسمئة بندقية، كما يمتلكون آباراً في مناطق خصبة حيث يزرعون الذرة والشعير. يصرفون غالبية العام في الصحراء، ولا يتخلّون عن خيامهم.

من قبائل بني حرب قرب المدينة، إلى الجنوب والشرق

بنو صفر أو بنو عمر: في هذه القبيلة ألفان أو ٣ آلاف حامل بندقية، وثلاثماية فارس، يعيشون شرق وجنوب المدينة ويُشتهرون بالجبن. معظمهم مزارعون. منطقة الفرع الخصبة ملكٌ لهذه القبيلة. الشيخ، دويني، انضم أولاً إلى الجيش التركي، لكنه انحاز إلى الوهابيين بعد ذلك حين وصل إلى القصيم.

الحامدة: قبيلة مساوية في القوة لبني صفر التي سبق وأشرنا إليها أعلاه. قلّة من رجالها مزارعون. شيخ القبيلة هذه، محمد ابن مطلب، هو قائد حرب الحالي بعد أن خلف جزية الذي قتل مكراً وعدواناً في المدينة في العام ١٨١٤ بيد الحاكم العثماني.

لبني حرب بين مكة والمدينة صرّة كبيرة تتقاضاها من كل القوافل السورية والمصرية التي تقصد الحج، يقتسمها المشايخ بالتساوي بينهم وبين أفراد القبيلة، ومقدارها ٨ آلاف دولار.

قبائل بني حرب جنوبي المدينة

بنو سالم: يستوطنون في وديان الجديدة وصفرا في بيوتٍ بين النخيل، لكن قلة منهم بدو. فيهم ٢٥٠٠ بندقية ويشتهرون بالبسالة. يتقاضون أتاوةً كبيرةً من قوافل الحجيج السورية إذ يمرّ هؤلاء قرب ديارهم.

الحواسب: التي تمتلك قربة الحمرا الغنية بالحقول والجنائن بين جديدة وسفرا. معظم قبيلة الحواسب بدو.

الصبح: بإمكان قبيلة الصبح أن تجمع تحت رايتها ٢٥٠٠ محارب ببندقيات فتيل، ولهذا تعتبر أقوى قبائل بني حرب. تملك هذه القبيلة بدر والمناطق المحيطة بها. رأيت رجالها يجلسون أمام المتاجر في بدر ويعودون مساءً إلى عائلاتهم في الصحراء. بعضم ساكن مستقر في بدر، لكن معظمهم يسكن جبل صبح (إلى الشرق من بدر)، المنيع على الأعداء وملجأ قبائل بدر من الوهابيين. بنو صبح ينقسمون إلى ثلاث قبائل فرعية هي شقبان ورحالات وخضرة.

العوف: أقسى قبائل بني حرب، تحتل الجبال جنوب جبل صبح ناحية رابغ. لم تدخل هذه القبيلة في المذهب الوهابي. اسم العوف يزرع الرعب في مكة وخصوصاً بين الحجاج فبنو عوف قطاع طرق ولصوص أقوياء يقدرون على سرقة الحمولات الكاملة والقطعان كلها من

وسط أحياء الحجيج، وهم اعتادوا اللّحاق بالقوافل لأيام عديدة فينقضون عليها بعد ابتعادها عن المدينة.

الحيب: فرع من العوف، هاجرت إلى سوريا واستوطنت مع جمالها قمم جبال لبنان، حيث المراعي الخصبة جداً.

ذوي ظاهر: مضارب هذه القبيلة من رابغ باتجاه مكة. بعض أحيائها موجود في جوار المدينة، وهي تنزل في المنطقة التي نهايتها وادي فاطمة. شيخها غانم ساعد الجيش العثماني في المدينة مساعدة مفيدة.

بنو حرب (في المناطق المنخفضة أو تهامة أو الغور، بين الجبال والبحر)

زبيدة: قبيلةٌ ممتلكاتها الساحل من ينبع حتى جدة وليث. (قد تجد خياماً للهيثم جنوب جدة ناحية ليث) بعض أفرادها حضر ومضاربهم في خليص الخصبة الواقعة على بعد يومين شمال جدّة. لكن بما أن مناطقهم فقيرة بوجه عام، يضطرون إلى البحث عن أسباب العيش في غير المراعي. رجال زبيدة صيادون مهرة، وقباطنة قوارب تبحر بين ينبع وجدّة. علاقاتهم الحميمة مع سكان مدن الحجاز وتجارتهم دفعت بقبائل حرب الأخرى إلى النظر لقبيلة زبيدة بازدراء. فرجل من صبح أو بني سالم يُهان إن نعت بالزبيدي. يقال إن بعض زبيدة مستوطن شط العرب تحت بغداد. قليلة هي جياد بني حرب بين المدينة ومكة، نجدها بين ممتلكات شيوخها. التقيت شخصياً مع معظم فروع قبيلة حرب التي ذكرتها آنفاً، بينما كانت أسماء القبائل التي لم ألتقِها مألوفة في نفسي، لا أعرف مناطق تواجدها لكن أظنها في المدينة، وهي سدّة والجمّيلة والسعادين.

بدو بين المدينة ومكة والطائف شرق سلسلة الجبال

يسكن بنو حرب في هذه الجبال وإلى الغرب منها ناحية البحر. أما الناحية الشرقية من هذه الجبال فمأهولة بقبيلة عتيبة القوية التي تمتد أملاكها حتى جنوب الطائف. مراعي هذه المنطقة خصبة رائعة العشب. لعتيبة الكثير من الجمال والماشية، والكثير من الجياد أيضاً. يشتهر رجال هذه القبيلة بالشجاعة إذ هم في حرب مستمرة مع جيرانهم. قبل الوهابية، كانت عتيبة ألد أعداء بني حرب، إذ كانتا تختلفان على مال الضرائب المفروضة على قوافل الحجيج. فقد كان للحج طريقان واحدٌ يعبر مناطق حرب وآخر يمر بمناطق عتيبة. أجهل فروع قبيلة عتيبة لكنني أعرف أن قوتها العددية تصل إلى عشرة آلاف محارب ببندقية فتيل.

بدو مكّة

بين قلة وجدّة ديار بدو لحيان المتصلين بعرب هديل ومطارفه. تحتل قبيلة لحيان المحطتين الرئيستين عن الطريق بين مكة وجدة، حدّه وبهزا، حيث تنصب الأكواخ وحيث يدب الهلع في نفوس المسافرين. بعضٌ آخر من لحيان يرعى القطعان في الجبال المجاورة. عدد بندقيات هذه القبيلة قرابة مئتين وخمسين بندقية. بدو مكة فقراء بسبب عدم خصوبة الأرض التي يسكنون فيها وارتفاع أسعار المؤن في تلك المنطقة. أما بدو الطائف فحالهم أفضل نسبياً.

من مكة جنوباً في تهامة أو المنطقة المنخفضة

هنا منازل بني فهم الذين يزودون قلة بالفحم والخراف. وبنو فهم مشهورون لمحافظتهم على نقاء لغتهم العربية، وفيهم ثلاثماية رجلٍ حامل بندقية.

بنو جهادلة ينزلون في المناطق الواقعة جنوب منازل بني فهم، ناحية وادي لملم. في أوقات السلم، يقودون القوافل من قلة إلى ساحل اليمن.

من مكّة شرقاً باتجاه سلسلة الجبال

في وادي فاطمة ووادي الليمون يسكن بعض شرفاء عائلات مكة، من قبيلة ذوي بركات، الذين زرعوا هذين الواديين الخصبين واستوطنوا في الصحراء المجاورة.

قريش: من هذه القبيلة العريقة لم يبق سوى ٣٠٠ محارب، يخيمون بجانب جبل عرفات. برغم اسمهم وشهرتهم العريقين، تلاقي هذه القبيلة التقدير القليل من جانب البدو الآخرين. يقدم رجال هذه القبيلة إلى مكة الحليب والزبدة.

الريشيّة: هذه قبيلة صغيرة جداً لا يسعها تجنيد أكثر من ٨٠ محارباً، تمتهن التجارة بين مكة وجدّة. أصولها جديدةٌ ومضاربها في وادي النعمان على الطريق بين عرفات والطائف حيث يزرعون بعض الحقول.

الكباكبة: ديارهم في محيط شداد ومحاربوهم مئة وخمسون لا أكثر.

العدوان: قبل أربعين عاماً، كانت هذه القبيلة كبيرة فيها ما يقارب الألف محارب، لكن حروبهم المستمرة مع جيرانهم خفضت عديدهم إلى أقل من مئة عائلة، كما تعرضوا تقريباً للإبادة على يد محمد علي باشا. كان بنو عدوان قبيلة نبيلة لا تساويها قبيلة من حيث الشجاعة وكرم الضيافة في الحجاز، ولذلك كانوا أصدقاء شريف مكّة. كانت عادة شريف مكة، وكل عائلات شرفاء مكة، إرسال أولادهم حين بلوغهم الثامنة ليتعلموا بين البدو، وخصوصاً بين بني عدوان، ولا يعودون إلى ديارهم قبل أن يعرفوا كيفية التعامل مع جواد

جامح. والمعروف أن محمّداً نفسه نشأ نشأة «مماثلة» بين أفراد قبيلة بني سعد. شيخ بني عدوان الأخير عثمان المضايفة الذي صاهره الشريف غالب أختير من قبل الوهابيين ليكون قائداً للبدو في مكة والطائف. مات هذا الشيخ بسيف الشريف غالب نفسه في القسطنطينية فانهارت القبيلة بعده، والتجأت عائلاتها الباقية إلى بني عتيبة.

لم يكن لبني عدوان مراعٍ ثابتة لكن ضربوا مضاربهم في أنحاء البلاد من جدّة إلى الطائف. ومثالاً على ضيافتهم وسمعتهم الطيبة، قال لي أعرابي من هذيل مرّة: «أين نبحث اليوم عن أمثلة على الكرم والشهامة بعد انتهاء أمر العدوان؟».

فرع من هذه القبيلة هو قبيلة الحرّث، أبناؤها شرفاء من سلالة بني هاشم. في نجد، فروع من بني عدوان قليلة لكن تحمل نفس الأسماء.

بدو الطائف

يُجمل بدو الطائف تحت تسمية الثقيف، وبينهم عرب هُذيل أحياناً، إذ لا يدخل بنو هذيل بشكل عام تحت هذا الاسم.

يحتل بنو هذيل المنطقة الجبلية على الطريق من مكة إلى الطائف وخصوصاً قرب جبل كورا. فيهم ألف محارب ويقال إنهم أبرع الهدافين في المنطقة كلها. إنها قبيلة شهيرة ذاع صيت شجاعة فرسانها ومحاربيها، إذ قتل الوهابيون ٣٠٠ من أفضل رجالها قبل أن تستسلم لهم. كان لهم جياد وجمال قليلة لكن خراف وماعز كثيرة. فروع هُذيل ثلاثة من القبائل الصغيرة هي العلويون والندويون وبنو خالد.

الطويرق: تعيش هذه القبيلة إلى الجنوب من هذيل في الجبل نفسه وفيها ٥٠٠ محارب. يتميز رجال هذه القبيلة بلصوصيتهم برغم شهرة بني هذيل كقطاع طرق شجعان.

ثقيف: هذه قبيلة قوية جداً تسيطر على سهول الطائف المنتجة وعلى حدائقها ومناطقها الخصبة بالإضافة إلى المناطق الخصبة الأخرى على سفوح جبال الحجاز. معظم أفرادها حضر. نصف سكان الطائف ينتمون إلى هذه القبيلة، والآخرون ما يزالون يعيشون في الخيام. وكما سكان الجبال جيادهم وجمالهم قليلة لكن مواشيهم عديدة. قبائل ثقيف الأساسية هي بنو سفيان وفيهم ٦٠٠ محارب، ومضر وربيعة، اللتان تجاوران ثقيف وتشاركانها مصالحها بغرم شكوكي بأنهما تنتميان فعلاً إلى هذه القبيلة. وبنو ربيعة انتقلوا إلى النوبة وسكنوها، ومنهم نزلت قبيلة الكنوز. بإمكان ثقيف تجنيد ألفين من المقاتلين الأشداء، ولهذا دافعت عن الطائف بوجه الغزو الوهابي.

قبائل من الطائف حتى صنعاء في اليمن

عن هذه القبائل لا أعلم إلا ما وصلني في التقارير، وسوف أُبرز القبائل التي يرد وصف مناطقها في «أسفاري العربية».

من الطائف وعلى امتداد السهول الجنوبية الشرقية من الشمال إلى الجنوب

إلى الشرق من الطائف، نجد في عُشُمة قبيلة عتيبة، وفي طبرا القبيلة القوية البقوم. جنوباً، خلف السلسلة الجبليّة، مضارب بني أُقلب. وفي رانية ينزل بنو سبيعة، وعند وادي بيشة بنو سالم وفيهم ٥ آلاف مقاتل مسلّح. إلى الجنوب من مضارب بني سالم، ديار بني قحطان، القبيلة الضخمة، الأقوى بين مواقع العتيبة وحضرموت. لبني قحطان جمال وجياد أصيلة، وفيهم أفضل الجنود وأبسلهم.

ينقسم بنو قحطان إلى قبيلتين: السحامة وشيخها قرملة صديق حميم لسعود، والأعاصي وشيخها حشر، مقاتل ذائع الصيت في كل المنطقة.

وهناك بنو الدواسر القبيلة القاسية الماهرة بصيد النعام.

بين القبائل التي ذكرت، البقوم والسبيعة وبني سالم تمتهن الزراعة. أما قحطان والدواسر فبدو كلهم دون استثناء. بنو قحطان أغنياء بالجمال أكثر من أي قبيلة في الصحراء الشرقية، فقد يمتلك قحطاني من الطبقة الوسطى ١٥٠ جملاً، والفقير من له أربعين فقط. وجِمالها سوداء كلها.

يحكى عن بني كلب وكأنهم أنصاف وحوش.

بنو يام مزارعون في وادي نجران. وهذه القبيلة محاربةٌ عصيت على الوهابيين فعجزوا عن إخضاعها. بعض أفرادها على دين الفرس أي من شيعة علي. تابِعوا الصراط المستقيم ينقسمون في فرعين ثانويين هما عكمان والمرّة. ثمة حديث ينسب إلى النبي محمّد يقول فيه: «أسوأ الأسماء حرب ومُرّة».

بنو خولان ينزلون على حدود مناطق إمام صنعاء.

من الطائف بمحاذاة الجبال جنوباً

بنو سعد: يقول المسعودي في مروج الذهب: إن بني سعد وبني قحطان هم البقايا الوحيدة للقبائل العربية البدائية. أما القبائل الأخرى في مكة والطائف والمدينة، عرفت تاريخياً منذ الفتوحات الإسلامية. أما هذيل وقريش وثقيف وفهم ومزينة وحرب فهم يسبقون محمّداً. أما بنو قحطان وبنو سعد فقبيلتان يعود تاريخهما إلى قديم الجاهلية.

الناصرة ومالك وغامد وزهران: كل قبيلة من هذه القبائل تجنّد ٥٠٠ جندي محارب، إلا الزوهران ففيها ١٥٠٠ محارب.

الشمران: قبيلة قويّة جداً تشغل السهول الشرقية والغربية. وفروعها: العسابلي وابن الأحمر وابن الأسمر وبنو شفرا.

عرب عسير: القبيلة الحربية الأكثر عدداً إذ فيها خمسة عشرة ألفاً من المحاربين، تسكن الجبال هذه وتؤثر في جيرانها.

البيدة وسنحان ووادعة وصحّار وباقم. هنا تبدأ منطقة إمام صنعاء، والطريق التي تؤدي إلى تلك المدينة تمر عبر قبائل سفيان وحاشد وعمران وحمدان.

قبائل هذه الجبال زراعية، لكن معظم أفرادها يسكنون الخيام، وينزلون في الربيع إلى السهول المجاورة لإطعام المواشي. خيولهم وجمالهم قليلة، لكن إنتاج أراضيهم كثير يبيعونه في سواحل اليمن.

٩

خيول وجمال وجراد الصحراء العربية

الخيول

ثمة خطأ شائع هو الاعتقاد بأن الجزيرة العربية ملأى بالخيول. القبائل الغنية بالخيول هي تلك الساكنة في السهول الخصبة في بلاد ما بين النهرين لأن جفاف الصحراء يؤدي إلى موت الخيول وانقراضها، ولهذا لا نجد جياداً في القبائل الفقيرة. كذلك نجد جياداً في السهول السورية، وتلك التي على ضفاف الفرات في بلاد ما بين النهرين إذ تستطيع أن تأكل العشب طوال شهور الربيع بعد أن ينبت بفعل أمطار الشتاء، ويبدو لي أن هذا العشب يلعب دوراً أساسياً في نضج الحصان وامتلاكه القوة المطلوبة. نجدُ أن جياد نجد قليلة نسبياً بهذه البلدان المذكورة أعلاه، وتنعدم عند توغلنا نحو الجنوب.

في الحجاز، وخصوصاً في المناطق الجبلية ناحية اليمن، قليلة هي الجياد التي تصادف هناك، وهي منقولة من الشمال. لقبيلة عنيزة الكبيرة الساكنة على حدود سوريا بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف جواد، كما أن بعض القبائل الصغيرة في المنطقة نفسها تملك نصف هذا العدد. ولقبيلة منتفق العربية، في الصحراء التي يرويها نهر الفرات، بين بغداد والبصرة، ثمانية آلاف حصان، كما أن قبيلتي الضفير وبني شمّر غنيتان بالجياد الأصيلة. بينما لا تمتلك منطقة نجد ـ جبل شمّر ـ القصيم كلها أكثر من عشرة آلاف جواد.

تقل الجياد في القبائل الكبيرة على البحر الأحمر بين العقبة ومكة، وإلى الجنوب والجنوب الشرقي من مكة باتجاه اليمن، وخصوصاً في المناطق الجبلية بينما هي أكثر نسبياً. في السهول الشرقية بين بيشة ونجران. قبيلتا قحطان والدواسر النازلتان في تلك المنطقة تملكان فحولاً مشهورة.

يهتم حضَرُ الحجاز واليمن كثيراً بامتلاك الجياد. ويمكنني القول إن عدد الخيول في المناطق

بين العقبة في الشمال وحضرموت في الجنوب ولسلسلة الجبال في الشرق والبحر في الغرب لا يتعدى أربعة أو خمسة آلاف جواد. الجو الحار في عُمان لا يناسب أبداً تناسل الجياد التي تندر أكثر في اليمن. ولهذا، فعندما أقول إن الجياد الموجودة في الجزيرة العربية التي يحدها الفرات وسوريا، لا يتعدى خمسة عشر ألفاً من الخيول. (وهو عدد أدنى منه بكثير من الأداد الموجودة في آسيا أو أوروبا)، فإنني على ثقة من أن هذا الحساب قريبٌ جداً من الدقة.

في هذا الجزء من الشرق، لا أعرف منطقة فيها الكثير من الخيول غير أرض ما بين النهرين، فقبائل البدو والأكراد في هذا المكان تملك خيولاً أكثر مما يملك البدو العرب كلهم بسبب خصوبة أرض العراق ووجود المراعي الشاسعة التي تساهم في زيادة تناسل هذا الحيوان الجميل. وأفضل المراعي في الجزيرة العربية لا تنتج الكثير من الجياد فحسب، بل تنتج أكثرها أصالةً على الاطلاق. وأفضل هذه الجياد موجود في نجد وعلى الفرات وفي السهول السورية، بخلاف المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية واليمن حيث الجياد تستورد من الشمال وينعدم وجود الجواد الأصيل. بدو الحجاز لا يمتلكون الجياد إذ يعتمدون في حروبهم على الجمال وراكبيها وعلى المحاربين المشاة المسلحين ببنادق الفتيل. وهكذا، لا أصدق أن أحداً يمكنه أن يعثر على ٢٠٠ جواد في أرض طولها ٦٥٠ ميلاً بين مكة والمدينة وبين الجبال والبحر، كذلك على البحر الأحمر من ينبع إلى العقبة.

القوات المتحالفة التي تضم كل القواد الوهابيين، والتي هاجمت الوالي محمد علي باشا في بسيل عام ١٨١٥، تتألف من ٢٥ ألف محارب بينهم خمسماية فارس لا أكثر، غالبيتهم من نجد أتباع فيصل، أحد أبناء ابن سعود، الذي كان يرافق القوات.

مناخ اليمن ومراعيه لا يناسبان الخيول وإنتاجها وهما ضاران بصحّة الخيول الأصيلة، ولهذا تنفق الجياد هناك ولا تعيش. يستورد إمام صنعاء وحكام اليمن الجياد من نجد سنوياً. كما يحصل سكان السواحل على أعداد كبيرة من الخيول عبر السواقين من البلاد المجاورة للنيل. في العام ١٨١٠، استولى عرب الرولة على كثير من خيول باشا بغداد بعد أن هزموه، فباعوها إلى تجار الخيول في نجد، فباعها هؤلاء لعرب اليمن الذين يجهلون كيف يميزون بين الجياد الأصيلة وغير الأصيلة.

أثناء الحكم الوهابي، أخذت الخيول تندر كل عام إذ شرع مالكوها يبيعونها للغرباء الذين ينقلونها إلى اليمن وسوريا والبصرة لتنقل بعد ذلك إلى الأسواق الهندية. وكانوا يفعلون ذلك بالطريقة هذه خوفاً من سعود الذي استنّ قانوناً ينص على أن بيع فرسٍ أصيلةٍ ممنوع، لأن هذه الأفراس خاصة بالمالية العامة. إن امتلاك البدوي لفرس يضعه في موقفٍ يحتم عليه الاستعداد

لتلبية أوامر قائده عند حصول الحرب، ولهذا فضل العرب ألا يمتلكوا الجياد.

تكثر في منطقة جبل شمّر، الخيام والأحياء الخالية من الجياد، ويُعرَفُ جيداً أن عرب مطيّر بين المدينة والقصيم قللوا جيادهم خلال سنوات من ألفي جواد إلى ألف ومئتين. أفضل الخيول كانت تباع في مكة حيث كان شريفها يملك جياداً أصيلةً جداً. وسرت عادةٌ تقضي بأن تقدّم النساء الذاهبات إلى الحج فحول أزواجهن هدايا لشريف مكة فيحصلن مقابل ذلك على الحرير والأقراط الذهبية وغير ذلك.

اعتماداً على ما وصلني من معلومات أؤكد أن أفضل نسلٍ من الجياد موجود في سوريا، وخصوصاً في سهل حوران حيث تشترى الأفراس والخيول من البدو الذين يجيئون السهل في الربيع. الجياد التي تُشرى من البصرة لصالح السوق الهندي جياد مستخدمة إذ أن العربي لا يعطي جواداً أصيلاً جديداً ليباع في سوقٍ بعيدة دون ضمانة على بيعه. وعلمت أيضاً أن الجياد الأصيلة الحقيقية من الخمسة قليلة جداً في البصرة، وأن غالبية الجياد المشتراة هناك ينتجها عرب المنتفق قليلو المعرفة بتعشير الخيول. ولهذا، يفضل أن يكلف الأوروبي عربياً خبيراً في الخيول العربية إن كان يودّ اقتناء جوادٍ أصيل، وعليه أن يفعل ذلك، في كل الأحوال، في دمشق لا أجد مفراً من التشكيك في أن قلة قليلة من الجياد العربية الأصلية فعلاً وجد طريقة إلى انجلترا، برغم أن خيولاً سورية أو بربريةً أو مصريّة قد دخلت على أنها أصيلة.

يعتقد البدو أن فرساً مصريةً متزوجةً من جواد عربي أصيلٍ تنتج نسلاً جيداً أفضل من نسل الفرس السورية حتى بعد تزويجها من كحيل. خطأٌ جسيم الاعتقاد أن النسل الأصيل ينتج الجياد الأفضل والأجمل. من بين أحفاد الحصان المشهور «خسوف» جياد لا قيمة لها، كما رأيت كحيلاً أو أكثر لا يميزها إلا الاسم، برغم أن تحمل التعب الشديد ميزة في كل الجياد الصحراوية. جياد الخمسة الجيدة كثيرة العدد، أكثر من الجياد العادية التي ينتجها النسل نفسه؛ لكن حتى بين هذه الجياد الأصيلة، قليلة هي الخيول التي تستحقّ أن توضع في المرتبة الأولى من حيث الحجم والهيكل والجمال والفاعلية؛ قد لا نجد أكثر من خمسة جياد أو ستّة في كل القبيلة. يبدو مناسباً القول أن الصحراء السورية لا تنتج أكثر من مئتي جواد أصيل، يثمَّنُ في الصحراء نفسها بمئة وخمسين أو مئتي ليرة. وأنا متأكد أن القليل جداً من هذه الجياد وجد طريقه إلى أوروبا برغم أن تأصيل الجواد الأوروبي لا يتم إلا بفضل هذه الجياد التي ذكرت، بينما الخيول المنقولة إلى أوروبا من البابين الثاني والثالث.

اعتاد بدو الحجاز شراء الأفراس من قوافل الحجيج المصرية، فيبيعون بناتها المولودات منها بعد تزويجها الفحول الأصيلة لعرب اليمن. لم أرَ جواداً مخصياً واحداً في الصحراء الداخلية.

في مصر نفسها، على ضفاف النيل، لا نسل للجياد مميزاً أبداً. أفضل خيول ذلك البلد تنتج حيث ينبت أجود البرسيم أي في مصر العليا، قرب تحتا وأخميم وفارشيوت، وفي مصر السفلى قرب منزله. قليلة هي الأفراس العربية الأصيلة التي تستقدم إلى مصر، وهذا لا يُدهش إذ لا ضرورة لجواد يحتمل التعب والجوع على ضفاف النيل الخصبة.

الحصان المصري قبيح وخشن ويشبه البغل أكثر. مساوئه الأولى قوائم ورُكَب ضعيفة وعنق قصير وثخين. أحياناً، يكون الرأس جميلاً لكنني ما رأيت يوماً جواداً مصرياً بقوائم جميلة.

الجواد المصري لا يحتمل التعب، لكن عندما يُغذى جيداً يكون أفضل حركةً من الجواد العربي. طيش الجواد المصري واندفاعه يجعلانه مناسباً للفروسية؛ ولهذا السبب نالت الخيالة المصرية شهرتها. عند النظرة الأولى، يُفضَّلُ الجواد المصري على العربي، لكن بعد مشي طويل يظهر ضعف المصري أمام الكحيل.

يحصل بدو ليبيا على ما يحتاجون إليه من الجياد من طريق استيلادها بأنفسهم ومن مصر. في داخل الصحراء، نواحي بلاد البربر، يقال إن سكان تلك المناطق من البدو حافظوا على النسل الأصيل من الجياد العربية، بخلاف ما حصل في مصر. وكما العرب البدو، يمتطي هؤلاء الليبيون الأفراس دون غيرها.

لا يُسأل بدو داخل الصحراء عن شجرة نسب الجواد إذ يعرفون أصول جيادهم كما يحفظون شجرة نسبهم، لكن حين يصطحبون الخيول إلى أسواق البصرة وبغداد وحلب ودمشق والمدينة ومكة، يحملون معهم أشجار نسبها مكتوبة ليقدموها إلى الشاري. إن سألت البدوي عن الهويّة المكتوبة لجواده في الصحراء يضحك ولا يجيب. أقول هذا تصحيحاً لما ورد في كتبٍ أخرى بخصوص هذا الأمر.

في مصر العليا، حافظ عرب معزي والهتيم النازلون في الصحراء بين النيل والبحر الأحمر، على أصالة خيولهم وخصوصاً على نسب الخمسة. في الجزيرة العربية، يتشارك البدو في الأفراس والخيول، إذ يقسمون الجواد إلى ٢٤ سهماً أو قيراطاً، فيشتري بدويٌ ما يريد من هذه الأسهم، وغيره يقتطع لنفسه حصّة، وهكذا يتقاسم المالكون ما ينتج الجواد أو الفرس. قليلةٌ هي المعلومات حول النسل الأصيل في جياد مصر، إذ حين استولى جيش محمد علي باشا في العام ١٨١٢ على ١٠ جياد كحيلة من قبيلة الهتيم، أخذ الجنود يبيعونها وكأنها جياد مصرية، بينما كان أصحابها الأصليون يقومونها بثلاثة أضعاف السعر الذي تقاضاه الجنود المصريون.

في مصر، يمكن شراء جواد جيد مقابل مئة دولار إسباني في أي وقت. وأعلى ثمن دُفِعَ بدلاً لحصان مصري كان ٣٠٠ ليرة، لكن البدو لا يدفعون مقابله أكثر من ٥٠ ليرة. كان

المماليك يقدرون فعلاً الجواد الكحيل الصحراوي، ولهذا صرفوا مبالغ كثيرة من أجل إنتاج الكثير منها في مصر، لكن حكام مصر الحاليين لا يهتمّون كثيراً بالجياد مثل أسلافهم الذين جهدوا لتعلم مهارة التمييز بين الجياد وأقاموا الاسطبلات الكثيرة أو أدرجوا إقامتها ضمن سياستهم الإدارية.

هنا سأضيف إلى ما ذكرت مسبقاً بعض أسماء الجياد العربية الأصيلة:

الثامري من أصل كحيل.

النزهي، نسل من الهضبة. بعض القبائل تعدّ هذا النسل بين الجياد الأصيلة

المنكية والجلف لا تعتبرها عرب نجد من الخمسة.

في نجد، يفضّل البدو جياد هضبة ودحمة.

خيول نسب مسنة (من سلالة كحيل) غير مستخدمة في نجد كفحول. والبدو يعتبرون كل خيول الخمسة فحولاً. الحصان الأول الذي تنتجه فرس من نسب خارج الخمسة لا يستخدم أبداً للتأصيل برغم جماله وميزاته العالية. الفرس المفضلة عند سعود، القائد الوهابي، وتسمى قرية، أمست مشهورةً في كل أنحاء الجزيرة العربية بعدما أنتجت جواداً جميلاً ومميزاً. لكن بما أن قرية من خارج الخمسة، رفض سعود السماح باستخدام ذلك الحصان الجميل فحلاً. وبما أنه لن يستخدمه لأن البدو لا يمتطون الجياد، أرسله هدية لشريف مكة. أما الفرس قرية فكان سعود اشتراها من أعرابي من قحطان مقابل ١٥٠٠ دولار.

في العام ١٨١٥، هاجم بعضُ الدروزِ بدواً في حوران وقادوهم إلى حيهم لكنهم تعرضوا في الطريق لهجومِ بدويٍ قتل مجموعة الدروز إلا واحداً فرّ. لحق به أفضل البدو وطاردوه لساعات عديدة، لكن فرسه برغم تعبها لم تتوقف أو تتباطأ بل استمرت راكضة بأقصى سرعتها. قبل أن يتوقّف المطاردون صاحوا يطالبون الدرزي أن يسمح لهم تقبيل رأس فرسه، وحين رفض قالوا له: «اغسل رجلي الفرس واشرب مويتها». وهذه العبارة يستخدمها البدو للتعبير عن إعجابهم بفرسٍ ما وعن اعترافهم بقدراتها المميزة.

لا يسمح البدوي عادةً لفرسه أن تلد قبل أن تتم سنتها الخامسة، لكن الفقراء التواقين إلى الربح السريع من طريق بيع الخيول غير المؤصلة لا ينتظرون أكثر من السنة الرابعة.

أجرة الفحل في الصحراء الذي يُستأجر للاستيلاد دولار اسباني واحد فقط. قد لا يأخذ صاحب الفحل هذا الدولار بل يفضّل الانتظار حتى تلد الفرس، فإن أتت بفرسٍ أخذ من صاحبها ناقة في سنتها الأولى، وإن أتت بمهر يتقاضى جملاً فتياً.

يمنع البدو المهر المولود حديثاً من السقوط على الأرض بل يتلقفونه بين أيديهم ويهتمون به لساعات عديدة يغسلونه وكأنه طفل. وبعد ذلك، يضعونه على الأرض ويراقبون خطواته الضعيفة بانتباه وحذر ليستشفوا محاسنه وعيوبه باكراً.

في نجد، يطعم البدو جيادهم تمراً. أما في الدرعية فيُمزج التمر بالبرسيم. لكنّ الشعير هو طعام الجياد في كل الصحراء العربية. سكان نجد الأغنياء يُطعمون خيولهم لحماً نيئاً ومطبوخاً، من طعامهم نفسه. أخبرني رجل من مدينة حماة السورية أنه يقدم لجياده لحماً مشوياً قبلِ القيام إلى رحلةٍ طويلةٍ ومتعبةٍ، كي تتحمّل التعب. والرجل نفسه روى لي أن حاكم المدينة أُعجِبَ بجوادِهِ وأراد أن يأخذه لنفسه، فقام بإطعامه لأسبوع كاملٍ لحم خنزير فأمسى الحصان يهتاج ويقف منتصباً على قائمتيه الخلفيتين، فغضّ الحاكم نظره عنه وما أراده بعد ذلك.

رأيت في مصر جياداً تعضّ أصحابها، فيقوم هؤلاء بإبطال عادتها هذه من خلال تقديم مقادم غنم محروقةٍ على النار لها. تتألّم الجياد عندما تعض على هذا اللّحم الحارّ فتبطل عادة العض. الجِياد المصرية حادة الطبع ولهذا يفترض بصاحبها ربطها، بينما الجياد العربية تبقى حرّة بجانب الخيام ترعى العشب كالجمال. سيّاس الخيول المصريون مشهورون في كل الشرق ببراعتهم في الاهتمام بالخيول، ولهذا نجد الأتراك الأغنياء يستخدمون سائساً أو اثنين منهم على الدوام. فهم ينظفون الحصان مرتين في النهار الواحد ويكرسون الكثير من الوقت لهذا العمل. المعروف أن لكلّ حصانٍ سائساً واحداً فقط، ولهذا تجد في الاسطبل سياساً بعدد الخيول..

القائد الوهابي، مالك أفضل الجياد.

لا يسمح بركوب أفراسه قبل أن تُتِمَّ سَنَتَها الرابعة. أما البدو فليس ثمة ما يُوقِفُهُم عن ركوبِ جيادهم وأفراسهم قبل أن تتم الثالثة.

إستن القائد الوهابي قانوناً يمنع البدوي من بيع ثلث فرسه، كما يفعل العنزيون، إذ يقول إن هذا الأمر يؤدي إلى الخداع في غالبية الحالات. لكنه يسمح ببيع نصف الفرس.

الجمال

ثمة خلاف شاسع بين جمال المناطق الشرقية وجمال المناطق الغربية. في سوريا والعراق، يغطي الشعر الكثيف الجمل وهو أكبر حجماً من جمل الحجاز قليل الشعر. للجمل النوبي وبر قصير كالغزال. وكذلك وبر الماعز النوبية قصير، ما يؤدي إلى عدم سكن البدو النوبيين في خيام من جلد جمال وماعز، فهو يبتنون أكواخاً نقّالة من الحصير والقصب. الجمال العربية عامة بنية اللون لكن يمكن مصادفة بعض الجمال السوداء اللون. كلما اقتربنا من جنوب مصر، وجدنا جمالاً فاتحة اللون. في النوبة، غالبية الجمال بيضاء، فلم أرَ هناك جملاً أسود واحداً.

أكبر الجمال هي الآتية من الأناضول، أي المتحدرة من النسل التركماني. وأصغرها تلك التي رأيت في اليمن. في الصحراء الشرقية، أفضل الجمال المناسبة لجرّ العربات وحمل الأحمال هي جمال بني طيّ في بلاد ما بين النهرين قرب نهر الفرات. تقل الجمال في المناطق الجبلية، لكن من الخطأ الاعتقاد أنها عاجزة عن تسلّق التلال. عددها قليل في الحجاز بسبب جفاف المراعي هناك. أما نجد فهي المنطقة الأغنى بالجمال ولهذا تُسمّى «بأمّ الإبل»، وتزود مناطق سوريا والحجاز واليمن بالجمال حيث يكون ثمنها ضعفه في نجد. خلال مكوثي في الحجاز كان ثمن الجمل هناك ٦٠ دولاراً. كما شهدت موت قرابة ثلاثين ألفاً من الجمال بسبب جفاف المراعي خلال ٣ سنوات، وكانت مُلكاً لباشا مصر الذي كانت الحجاز تحت وصايته حينها.

يبتاع التركمان والأكراد سنوياً قرابة عشرة آلاف جمل من الصحراء السوريّة يأتي التجار بمعظمها من بلاد نجد، ويستخدمونها في تأصيل إنتاج الجمال التركمانية التي تدعى «مايا» (انظر ما كتبت سابقاً حول هذا الموضوع).

لا بلاد تنافس نجداً في كثرة إنتاج الجمال والنوق وخصوصاً في سنوات الخصب. والجمال النجديّة منيعة على الأمراض (خصوصاً «جعم») أكثر من غيرها، ولهذا يفضّلها البدو ويقصدون نجداً من كل مناطق الصحراء ليجددوا قطعانهم.

يفضّل البدو النوق على الجمال، بخلاف السوريين والمصريين الذين يطلبون الجمال إذ يستخدمونها في حمل الأثقال. يعتمد مَرويو نجد النوق في أسفارهم الطويلة فهي تحتمل العطش أكثر من الجمال، بخلاف البدو إذ يفضل هؤلاء الجمال على النوق في الرحلات. يحمل الجمل حوالي ٥٠٠ باوند في الرحلات القصيرة و٣٠٠ باوند خلال الرحلات الطويلة. فالجمال التي كانت تنقل المؤن لجيش محمد علي باشا من جدّة إلى الطائف في العام ١٨١٤، لم تحمل أكثر من ٢٥٠ باونداً. الجمل المصري المغذّى جيداً بالطعام والماء قويٌّ تماماً كما الجمل الأناضولي فيقدر حينها على حمل ٣ أكياس كبيرة من القهوة مسافة ٣ أميال. من القاهرة إلى السويس، يحمل ألف باوند، فهذه رحلة تستغرق ٣ أيام. وكلما طالت الرحلة وقلت آبار الماء على الطريق، وجب تخفيف حمولة الجمل. جمال دارفور مميزة لأحجامها وقواها وصمودها أمام التعب والحمولة الثقيلة، حتى أنها مفضلة على جمال شمال شرق أفريقيا. الجمال التي ترافق القوافل من دارفور إلى مصر تحمل أقل من ٤ قناطير. وجمال سنّار أصغر حجماً من جمال دارفور لكنها قادرة على حمل ثلاثة قناطير ونصف من الأحمال.

تختلف القدرة على تحمُّل العطش بين نسلٍ وآخر في الجمال. يحتاج الأناضولي المعتاد على

المناخ البارد والمناطق المروّية والغنية بالماء، يحتاج إلى الشرب كل يومين. فإن بقي هذا ٣ أيام في الصحراء صيفاً دون شراب يجثم أرضاً ولا يتحرك بفعل الحرمان الذي يُعانيه. خلال الشتاء، لا تشرب جمال جبال سوريا وصحراء الشمال ماءً إلا حين تكون في رحلةٍ طويلةٍ، فالعشب الذي يرعاه في هذا الموسم كفيل بترطيب معدتها. في الصيف، يجب أن تَرِدَ جِمال نجد عند المساء كل أربعة أيام. فالعطش الشديد خلال الرحلة يؤدي أحياناً إلى موتها.

أعتقد أن في كل أنحاء الصحراء العربية، أربعة أيام هي الزمان الأقصى الذي يمكن للجمل أن يمضيه دون ماء خلال الصيف. ولا ضرورة أن يحتمل الجمل العطش كل هذا الوقت إذ لا يبعد البئر عن الآخر في الصحراء العربية أكثر من مسير ٣ أيام. في حالة الضرورة القصوى. وقد يبقى الجمل العربي خمسة أيام دون أن يشرب ماءً، لكن هذه مخاطرة فعلاً. وبعد أن يُمضي الجمل ثلاثة أيام دون ماء يبدأ في إظهار إشارات الضيق والتعب.

الجمال المصريّة أقل احتمالاً للعطش والتعب من أي جمال أخرى أعرفها. فهذه منذ ولادتها معتادة على ضفاف النيل الخصبة وعلى الشرابِ متى يحلو لها، ولهذا لم تعتد الرحلات الصحراوية الطويلة. وخلال سفر الحجيج إلى مكّة، تنفق بعض هذه الجمال يومياً. لا جمال تحتمل العطش والتعب كما تفعل جمال دارفور. فالقوافل الآتية من تلك المنطقة إلى مصر تسافر مسافة ٩ أو ١٠ أيام في مناطق صحراوية لا ماء فيها. وغالباً ما يكون هذا السفر حاصلاً في الصيف. صحيح أن الكثير من هذه الجمال تنفق على الطريق، يصطحب المسافرون معهم جملين إضافيين للطوارىء. لا يسعُ أي جملٍ عربي أو مصري أو سوري أن يقوم برحلةٍ مماثلة، فالجمال الأفريقية أشد قدرةً على الاحتمال من الجمال العربية.

برغم أني سمعت روايات عديدة عن عرب عانوا كثيراً بسبب نقص الماء في رحلاتهم لكني لم أفهم مسألة ذبح الجمل بحثاً عن ماءٍ في معدته، ولا أتردد في القول إن الحوادث المماثلة لهذه نادرةٌ جداً. فالذي يعاني العطش يفقد قواه شيئاً فشيئاً ولذلك لن يستطيع المشي، فلماذا يضحي بجمله إذاً وهو ما سيحمله حتماً إلى بئر ماء يروي منه ظمأه. رأيت جمالاً كثيرة مذبوحة لكني لم أجد في أمعائها ماءً إلا إذا كانت ارتوت بالكثير منه في اليوم نفسه. قوافل دارفور عانت الكثير جراء الحاجة إلى الماء لكنها لم تلجأ أبداً إلى الحلّ الذي سبق ذكره. لم أسمع في الصحراء العربية وفي النوبة عن حوادث ذبح الجمال طلباً لمائها، كما لم أسمع أن راكبي هذه الجمال سقوها بولها بعد مزجه بالماء الزلال لتخفيف عطشها.

ما يُطلَقُ عليه في مصر وأفريقيا اسم «هجين» وفي الجزيرة العربية اسم «ذلول» هما من النسل نفسه. ما إن يرى العربي جملاً صغيراً في حجم جمله وحماسه حتى يبدأ تدريبه على الركوب.

وإن كانت ناقةً حرص على أن تعاشر جملاً مؤصلاً وجميلاً. تبلغ جعالة الجمل البدوي دولاراً واحداً أي ما يساوي جعالة الجواد الفحل. السلالاتُ التي ذكرتُ هي سلالات الجمال المستخدمة في الأعمال الشاقة، كما تلك الخفيفة المستخدمة في الركوب.

في الجزيرة العربية، أفضل الجمال للركوب والتي تعدو بسهولة وخفة، موجودة في عُمان. يرد ذكر الذلول العماني في معظم أغنيات العرب. وبينما كنت في جدّة، تلقى محمد علي باشا اثنين من هذه الجمال العمانية من إمام مسقط أرسلهما من طريق البحر. عند النظرة الأولى، صعب تمييزهما عن الجمال العربية الأخرى، لكن قوائمها مستقيمة وعيناها تحمل سمة النبل التي لا يمكن تجاهلها ولا وجود لها في الجمال المنتمية إلى سلالات عامة أخرى. سلالات الجمال الفضلى في الصحراء العربية هي تلك التي تملكها قبائل الحويطات، وسبأ العنيزية وشرارات. في شمال شرق أفريقيا، حيث الذلول يدعى هجين، جمل سنّار وجمل البدو النوبيان مفضلان على الجمال الأخرى لشأن الركوب والارتحال. أما جمال دارفور فهي لا تصلح للخبب السريع بسبب ثقل وزنها.

الهجين النوبيّ هادىء يقوم مقام الخيول، أبيض اللون وأنعم ملمساً من الجمال المختلفة التي رأيتها في هذه المناطق في الشرق.

العُشاري، أو الجمل الذي يقطع مسير عشرة أيام في يوم واحد، موجود في مصر والنوبة حيث تنسج حوله الروايات العجيبة. لديّ أسبابي التي تدفعني إلى الاعتقاد أن هذا الجمل غير موجود إلا في خيال البدو الخصب. وإن كنتُ لأُعيد عليكم الروايات التي تتناول هذا الجمل، تكون هذه الروايات مشابهة لما يرويه الرحالة عن الجمل البربري، لكنني ما كنت لأُصدقها إلا حين أتوصّل إلى قناعة تامة بدلائل تدل على حقيقتها فعلاً. أخبرني مرّة أعرابي من العبابدة في أسوان أن جدّه سافر في يومٍ واحد من أسوان هذه إلى أسيوط، والمسافة بينهما ٢٥٠ ميلاً، دون أن يتعب جمله أو يستريح على الطريق. هذه رواية مشكوك بصحتها لكني أقول إن جمالاً قليلةً جداً في مصر والنوبة تقدر على رحلةٍ مماثلةٍ في زمن قياسي كهذا.

ثمة رواية أخرى تقول إن جملاً يملكه بيك مملوكيّ من أسنة في مصر العليا، اشتراه من قائدٍ بشاريٍّ مقابل ١٥٠ دولاراً اسبانياً، قطع هذا الجمل المسافة بين إسنة وجنّة ذهاباً وإياباً في يومٍ واحدٍ، بين المشرق والمغيب، أي مسافة تقدر بمئة وخمسةٍ وعشرين ميلاً. وصل في الرابعة بعد الظهر إلى قرية على بُعد ١٦ ميلاً من أسنة حيث خارت قواه، إثر سفره ١٥٠ ميلاً في ١١ ساعة قطع خلالها النيل في عبارة، وهذا العبور يحتاج إلى عشرين دقيقة. فرسٌ أوروبية تخبّ قادرةٌ على فعل هذا أو أكثر، لكن ليس في مناخٍ حارٍ كمناخ مصر. ودون ركضٍ وخببٍ

مفروض عليه، يستطيع هذا الجمل أن يقطع مئتي ميل خلال ٢٤ ساعةً أي ما يساوي مسير عشرة أيام. وهكذا، يبدو أن عبور الجمل في يومٍ واحد مسافةً تحتاج إلى عشرة أيام أمرٌ لا يدعو إلى الغرابة.

غير منطقي الافتراض بقدرة الجمل على قطع مسافةٍ في يومٍ واحدٍ يحتاج الراجل إلى ١٠ أيام لعبورها. كما لا ننسى أن لا مجال للمقارنة بين الجمل والجواد في ركضهما لمسافات قصيرة. لا يقدر الجمل على الخبب أكثر من نصف ساعة، وحين يهمز تكراراً أثناء العدو تُساوي سرعته سرعة حصان طبيعي. حين يُجبَرُ الجمل على الركض برغم إرادته، يحتمله لساعات عديدة دون أن يتذمّر. وأعتقد أن السرعة القصوى التي يصلها الهجين الأسرع عند خببه هي ١٢ ميلاً في الساعة، أما عند الركض المُسْتَحَثّ فهو يقطع ٩ أميال في الساعة دون أن يقدر على الاستمرار فيه أكثر من نصف ساعة.

نستشف من كل ما سبق أن الهجين أو الذلول لا يتميّز بسرعته برغم الدهشة التي تصيبنا عند سماعنا نحن الأوروبيين بالروايات المردودة إلى هذا الأمر. بل تكمن ميزته في قدرته على حمل راكبه فوق ظهره خلال رحلةٍ تستغرق أياماً وليالٍ عديدة بكل سهولةٍ، وبسرعةٍ مستقرةٍ، بفضل خطوةٍ ثابتة. وعندما يصف العرب جملاً ثابت الخطوة يقولون: «ظهره لين تشرب عليه فنجان قهوة». وهكذا، يستطيع جملٌ يغذّى كل مساء أن يمشي متمهّلاً طوال خمسة أو ستة أيام إن كان قوياً. أعرف جمالاً ذهبت من بغداد إلى سخنة في صحراء حلب في خمسة أيام، وهي مسافة تقطعها القوافل في واحدٍ وعشرين يوماً، ويصل الرسل إلى حلب بعد ٧ أيام من مغادرتهم بغداد، المدينتان بعيدتان مسير ٢٥ يوماً. والتقيت بمراسيل ذهبوا من القاهرة إلى مكة (مسير ٤٤ يوماً) في ١٨ يوماً دون أن يبدلوا جمالهم.

قبل أن يسافر الأعرابي يتفقد سنام جمله ليرى مقدار الشحم الذي فيها، إذ يعتقد العرب أن الجمل خلال الرحلات في الصحراء يأكل شحمه والحقيقة تقول إن تهافت السنام يدفع الجمل إلى الاحساس بالتعب. بعد رحلةٍ طويلة، يشرف الجمل على فقدان سنامه كلها ويحتاج إلى استراحة تطول حتى أشهر أربعة لاستعادتها. قليلة هي الحيوانات التي تشبه الجمال في سرعة تحويلها الطعام إلى شحوم. فراحة لأيام وطعام كثير يؤديان إلى استعادة الجمل لقواه وشكله بعد هزال عانى منه خلال الرحلة.

حين يصل الجمل إلى أقصى مستوى له في السمنة، يصبح سنامه بشكل هرم قاعدته كل ظهر الجمل. ومثل هذه الجمال تكون نادرة في المناطق الزراعية حيث يضطر الجمل دوماً إلى القيام بالأعمال الزراعية، ولا توجد إلا قرب مضارب البدو الأغنياء الذين يحتفظون بالجمال

هذه من أجل نسلها. في الربيع، تكون الجمال قد تغذت لشهرين من العشب الجديد النضر فتصبح بأفضل حال وكأنها من غير طينة الجمال العاملة في القوافل التجارية أو في المناطق الزراعية، ومن جمال الفلاحين.

بعد أن تصل أسنان الجمل الأمامية إلى طولها الأقصى، ينبت له زوجان من الأسنان الخلفية في بداية سنته السادسة، لا تصل إلى طولها الطبيعي قبل إنقضاء عامين كاملين. وفي بداية العام الثامن، يبدأ زوجان آخران من الأسنان الخلفية بالظهور. وحين تمسي هذه تامة عند بداية العام العاشر، ينبت الزوجان الأخيران وينموان خلال عامين أيضاً. عند العام الثاني عشر، يكون نمو الجمل قد اكتمل ويدعى حينها «راس». ولكي يتعرف البدوي على نمو الجمل يكشف عن أسنانه الخلفية. يعيش الجمل ٤٠ عاماً، لكن بعد عامه الثلاثين، تبدأ قواه بالتراجع ويمسي عاجزاً عن تحمّل الشقاء. حين يصل الجمل عامه الستين، يضعف ويعرف البدو أنه لا يسمن بعد الآن ولهذا يبيعونه بثمن زهيد للقرويين إذ يقدر هؤلاء على تغذيته أكثر من البدو.

سرج الحصجيف في مصر يسمى غبيطاً. أما سرج الهجين النوبي الذي يستقدم إلى مصر ويصنع من الجلد فيسمى جتّة. السرج الذي يصنعه الفلاح المصري ـ مختلف عن السرج العربي والسوري ـ يسمى الشغور، ولهذا يسمّي البدو الفلاحين المصريين الشاغورة. الأسرجة الليبية والنوبية وتلك المصنوعة بيد بدو مصر العليا تسمّى حاويةً وهي مشابهة لما يستخدمه البدو.

لسرج الذلول اسمٌ واحدٌ في كل الصحراء العربية: الشداد.

حمير الحجاز تسرج بالشداد الذي يكون أصغر من شداد الذلول.

في الحجاز، الشبرية هي المحفّة ذات المقعد بطول ٥ أقدام والتي تثبت على سرج الجمل بواسطة الحبال، وتوضع فوقها سجادةٌ مثبتة بواسطة أربعة أعمدة خشبية لتقي الراكب من أشعة الشمس. وهذه وسيلة الانتقال المفضّلة في الحجاز إذ تسمح للمسافر بالتمدد خلال السفر. أما الشقدف فمحفّة أصغر من الشبرية لا تسمح للراكب أن يرتاح تماماً، وغالباً ما تجلس النساء على هذا الشقدف المغطى بالسجاد دوماً.

والمختلف عن ذلك هو تخت روان فهو سرير يحمله جملان، الأول أمام الآخر، ويستخدم في رحلات الحج، لكن يفضله الأتراك أكثر مما يفضله العرب.

العادة في مصر أن يجزّ الهجين كما تجزّ الخراف والماعز والدافع إلى ذلك جمالي فقط. خلال الاحتلال الفرنسي لمصر، شكل الفرنسيون قوة من راكبي الجمال قوامها ٥٠٠ جندي من أفضل جنودهم وأشجعهم تمكنوا من إخضاع البدو في مصر العليا.

حافظ إبراهيم باشا، كما فعل والده محمد علي من قبله، حافظ على الجمال وكان له منها

مئتا هجين يركبها رجاله. فمحمّد علي أمر الجنود بالحفاظ على جمالهم.

يُقاد هجين مصر بواسطة حبلٍ رفيع يعلق بحلقة أنفه. أما ذلول الجزيرة العربية فنادراً ما يُثقب أَنْفُهُ، وهو مطيع للعصا الصغيرة التي يحملها سائقه أكثر مما هو مطيع للرسن.

تعتبر النساء في نجد من العار أن يركبن غير الجمال السوداء بخلاف نساء عنيزة اللواتي يفضلن امتطاء صهوات الجمال الرمادية والبيضاء. وبشكلٍ عام، فإن العربيات يولين اهتماماً خاصاً بسرج الجمل ويعملن على تجميله.

فكرة تحميل البنادق الثقيلة على ظهور الجمال غير معروفة في مصر، بخلاف سوريا وبلاد ما بين النهرين. وبرغمِ أن هذا السلاح قليل إلا أنه فاعل بين العرب يساهم في زرع الخوف أكثر مما تفعل المدفعية الثقيلة.

يختلف ثمن الجمل من مكانٍ إلى آخر: ففي مصر يتراوح هذا الثمن، بحسب وفرة العشب أو ندرته، بين ١٢ و٤٠ دولاراً. أما الهجين النوبي فيباع في القاهرة بثمانين دولاراً. في الحجاز، الجمال ثمينةٌ، فالذلول غير الأصيل يباع بخمسين أو ستين دولاراً. وفي نجد، الذلول الجيّد مطلوب فعلاً. وقيل إن سعود كان يدفع ٣٠٠ دولار مقابل جمل عماني.

يميز العرب العيوب في الجمال التي تؤثر على قيمتها. أول العيوب يسمّى العصب وهو نتوء فيه خصلة شعر فيِ مؤخرة قائمة الجمل، يعتبره العرب غيرَ قابلٍ للعلاج ودليلاً على ضعف هذا الجمل. وثانيها الفَكَح وهو ارتعاش في القائمتين الخلفيتين حين يجثم أو ينتصب واقفاً. وهذا أيضاً دليل ضعف الجمل. وثالثها، السرّر وهو تقرّح في الصدر. وثمة عيوب غيرها كالهلل والفاهورة. صدور معظم جمال القوافل مريضة لفرط تعبها وحملها الأحمال الثقيلة. يلجأ العرب أحياناً إلى كي صدر الجمل المريض والمجروح بفعل السرج الضيق والأحمال التي على ظهره. في كل ليلة، تكوى الجروح في بطن الجمل وصدره؛ وفي اليوم التالي، يحمّل الجمل بالأحمال برغم حروقه التي لم تلتئم، فالجمل الكريم لا يرفض الحمل الجديد ولا يوقِعُهُ أرضاً أبداً. لكن أحياناً يتعذر إيقافه على قوائمه بفعل التعب الشديد والجوع اللّذين يضعفاه كثيراً.

الجراد

ذكرت في معظم دفاتري أن الجراد كثيف في مصر، على ضفاف النيل حتى سنّار وفي النوبة وفي كل الصحراء العربية. الجراد الذي رأيت في مصر العليا يصل من الشمال، والتي تأتي النوبة تنطلق من مصر العليا. ويبدو أن هذه المناطق الأفريقية ليست هي موطن الجراد. في العام ١٨١٣، التهم الجراد كل عود أخضر من بربر إلى شندي في أفريقيا. وفي ربيع العام نفسه، رأيت الجراد يهاجم شجر النخيل في مصر العليا.. فيجردها من أوراقها ليتركها هياكل

يابسة لا تحمل سوى أغصان عارية.

في الجزيرة العربية، يقال إن الجراد يأتي من الشرق، ويعلن العرب أن الجراد هذا يولد في الخليج الفارسي. نجد هي المنطقة الأكثر تعرضاً لهجمات الجراد الكثيف الذي يدخل الخيام ويأكل كل ما يراه أمامه حتى جلد القرب الذي يُحفظ فيه الماء. هذا الجراد لا يطال البذور، لكنه يبيض فينتج جيلاً آخر يأتي على ما ينبت حديثاً. وبحسب التقارير التي وصلتني، يتكاثر هذا الجراد ثلاث مرّات سنوياً.

غالباً ما يصاب بدو سيناء باليأس بفعل كثافة الجراد الذي يعتبرونه طاعوناً يصيب الأرض. تصل هذه الحيوانات من طريق العقبة (من الشرق) في نهاية أيار حين ظهور نجمات بنات نعش السبع، ولهذا يظن العرب أن علاقةً ما تربط هذا الحيوان بهذه النجوم. يبقى الجراد في سيناء ٤٠ أو ٥٠ يوماً، ثم يختفي بقية أيام السنة.

قلة من الجراد تظهر خلال العام، لكن الهجمات الكبرى تحصل كل ٤ أو ٥ أعوام. ومنذ العام ١٨١١، إجتاح الجراد الجزيرة العربية سنوياً لخمسة أعوام متتالية وبأعداد هائلة.

اعتاد البدو العرب وسكان قرى وبلدات نجد والحجاز أكل الجراد. فقد رأيت في المدينة والطائف متاجر تبيع الجراد بحسب مقاسها. أما في مصر ونوبيا فآكلوا الجراد من الفقراء فقط. يضع العرب الجراد الحي في الماء الغالي الممزوج بالملح. وبعد دقائق، تلتقط حيوانات الجراد وتجفّف في الشمس. يتر رأسها والقوائم والجوانح ويجفف الجسد في الملح، وتوضع في أكياس. تؤكل أحياناً مقلية بالزبدة وخصوصاً في الصباح.

وتجدر الاشارة إلى أن بدو سيناء هم الوحيدون بين بدو الصحراء العربية الذين لا يعتبرون الجراد نوعاً من الطعام.

القسم الثاني

الوهابيون

١

مقدمة

لقد صدرت روايات عديدة متضاربة وخاطئة أحياناً في ما يتعلق بالوهابية والوهابيين. بعض الروايات التي تتناول هؤلاء المتطرفين، والتي جُمعت من مصادر صحراوية موثوقة، قد تفيد القارىء الذي يود الاطلاع فعلاً على تاريخ هؤلاء الوهابيين. حظي العاثر أوجدني في الحجاز خلال حربها مع محمد علي باشا، مما أدى إلى انقطاعها عن نجد التي سكانها هم المكيون ومن تزويدي بمعلومات دقيقة وحقيقية عن الوهابيين. أما البدو العامة، الذين دخلوا في المذهب الجديد، فكانوا يجهلون حتى مبادئه الأساسية.

يمكن التعريف بدين الوهابيين ونظام حكمهم بشكل مقتضب، إذ هم أصوليون مسلمون وحكمهم بدوي، القائد السياسي والزعيم الروحي فيه شخصٌ واحد، يمارس صلاحياته الواسعة كما فعل خلفاء محمد عبد الوهاب، مؤسس هذا المذهب، وهو عربي متعلم، تخرج في مدارس شرقية عديدة، وأدرك أثناء ترحاله أن الإسلام الحقيقي أصيب بالفساد والتحريف، وأن معظم المسلمين وخاصة الأتراك منهم يعتبرون هراطقة.

لكن المذاهب والآراء الجديدة لا تقبل بسهولة في الشرق كما في الغرب، فلم يلقَ عبد الوهاب إحتراماً ولا اكتراثاً أثناء ترحاله في الجزيرة العربية، فاستقر في الدرعية حين كان محمد ابن سعود المحترم المرموق في المنطقة. كان ابن سعود أول متحول إلى المذهب الجديد، فتزوج من ابنة عبد الوهاب. ولهذا، لا يجب الخلط أبداً بين هاتين العائلتين، عبد الوهاب مؤسس الوهابية سليل قبيلة تميم ومضاربها الرئيسية في الحوتة، وهي قرية على مبعدة مسير خمسة أيام من الدرعية جنوباً نحو وادي الدواسر ومسقط رأس عبد الوهاب. قسم آخر من تميم نازل في قفار، في منطقة جبل شمّر، يتنزل من عائلات هجرت الحوتة بغية الهرب من الثأر. وقسم ثالث من تميم تنزل قريتي مرشد علي وهلّه تحت رحمة والي بغداد. يُعرف بنو تميم بالمكانة الرفيعة

والرؤوس الكبيرة واللحى الكثّة. وهذه هي الميزات التي تميزهم عن البدو الآخرين.

أما عائلة سعود، مؤسسة النظام السياسي الوهابي، فتعود إلى قبيلة المساليخ، فرع من ولد علي أي أنها جزء من عنيزة. عشيرة مقرن التي ينتمي إليها سعود، استقرت في الدرعية وأمست نافذةً هناك. محمد ابن سعود هو أول من تلقى لقب أمير لكن قوته كانت قليلة، ويقال إنه خاض أول حربٍ ضد أعدائه مع سبعة من راكبي الجمال صحبه.

إن اقتفاء أثر تاريخ هذا المذهب هو تسجيل حقائق مشابهة لتلك الحاصلة يومياً في البادية. تقوى قبيلة فتكسب الغنائم الكثيرة وتمد سيطرتها على كل القبائل المجاورة. بالطريقة نفسها، تمكن عبد العزيز وابن سعود من مدّ سيطرتهما على كل أرجاء الجزيرة العربية، وعمدا إلى تعليم العرب مبادىء المذهب الوهابي وحضهم على الاعتراف بزعيم ديني وزمني واحد كما كان الوضع أيام الرسول أيام خلفائه الراشدين من بعده.

يبدو لي ضرورياً أن أبدأ بالكلام قليلاً على المبادىء التي يقوم عليها المذهب الجديد ونظامه السياسي.

لم يكن عبد الوهاب يدعو إلى دين جديد، بل كان يدعو إلى رفض الفساد الذي حل بالإسلام والمسلمين وإلى إرساء أسس الدين الإسلامي بين قبائل البدو الذين كانوا يجهلون كل شيء عن الإسلام، دعوةً وممارسةً، فيما هم مسلمون. في البداية، لم يفهمه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء فهماً صحيحاً. وهؤلاء الأعداء، عندما سمعوا بمذهب جديد يتهم الأتراك بالهرطقة ويقلل من تبجيل نبيهم محمّد، سادت بينهم قناعةٌ تقول أنّ ديناً جديداً ينادى به، فاعتبروا الوهابيين أكثر من هراطقة، اعتبروهم كفّاراً. وما زادهم قناعةً هو رأي الشريف غالب والانذار الذي أعلنه ولاة المناطق المجاورة. كان لغالب، شريف مكة، مصلحة في إبقاء نار الفتنة بين الوهابيين والأتراك إذ كان هو عدواً لدوداً للوهابية ومناهضاً لتناميها في منطقته، فأشاع أن الوهابيين قومٌ كافرون ليقطع كل اتصال بينهم وبين الأتراك. كذلك ولاة دمشق وبغداد والقاهرة، فكانوا أقرب إلى البدو برغم خوفهم منهم وأكدوا أن الوهابية منافية للإيمان التركي الإسلامي. واضطر هؤلاء الولاة إلى إرسال جنودهم برفقة قوافل الحج ليبرهنوا للسلطة العثمانية أن أخطاراً تحدق بالمسلمين الحجيج على الطرقات، وليكون لهم التبرير المثالي عند تعرض أي قافلة للهجوم أو السرقة. بالإضافة إلى كل هذا، أفاد الكثير من الحجاج الذين وصلوا مكة وجدّة من طريق البحر عن معاملةٍ سيئةٍ تلقّوها من الجنود الوهابيين الذين منعوهم من إتمام طقوس حجّهم فما أن عادوا إلى ديارهم حتى أسهبوا في وصف معاناتهم وفي سوق الاتهامات ضد الوهابيين. بعد كل ما قيل، لا تصيبنا الدهشة إذا سمعنا أنّ الرأي الذي عمّ بشأن الوهابيين

يصفهم على أنهم أصحاب دين جديد، وأنهم يسيئون معاملة الأتراك لأنهم مسلمون، هذا الأمر الذي لم تساعد ممارسات الوهابيين إلا على تأكيده. فهؤلاء كانوا بدواً يجهلون كل شيء عن الإسلام قبل الوهابية، وتعرفوا عليه مع الوهابية دون أن تتضح لهم كل معالم دينهم وتفاصيله. بدت لهم المبادىء الجديدة ديناً جديداً فطقوسها مختلفة عما رأوه في ممارسات الحجاج الأتراك وفي سكان قرى ومدن الصحراء كلّها. روح التعصب التي تغمر زعيمهم والتي حاول نشرها بكل قواه، منعتهم من التمييز فعلاً في قضية لا يحيطون بكل جوانبها؛ وهذا ما يفسّر اعتبارهم الأتراك كافرين، تماماً كما يعتبرهم الأتراك كافرين أيضاً. قلّة من السوريين والمصريين المتعلمين الذين سنحت لهم فرصة لقاء ومحادثة بعض متنوري الوهابية أدركوا أن المذهب الجديد إسلامي بامتياز، لكن آراء هؤلاء ـ إن تجرأوا على قولها دون خوف تعرّضهم للملاحقة بصفتهم هراطقة وكفاراً ـ لا صوت لها في غمار الصراخ العالي الذي ينادي بتكفير الوهابيين، وخصوصاً بعد العام ١٨٠٣، إذ اعتبر الوهابيون أعداء أمة الإسلام بعد قيامهم باعتراض قوافل الحجيج. في رسالتين قصيرتين عن الوهابيين، كتبهما م. روسو في بغداد وحلب عام ١٨٠٨[١]، كان التأكيد واضحاً على أن هؤلاء الوهابيين أتوا بدينٍ جديد. وأنهم ـ برغم اعترافهم بالقرآن كتاباً ـ منعوا الحج إلى مكة نهائياً. كان هذا الرأي السائد حينها في حلب؛ لكن معلومات أدق ممكن الحصول عليها من حجاج مثقفين في تلك المدينة. وما يدعو إلى الدهشة تقديم هذا المؤلف وصفاً دقيقاً للوهابيين قائلاً أنه توصل إلى معلوماته من بلاط سعود إذ كان يحتل منصباً مرموقاً في الدرعية، هذا المنصب الذي أعجز عن إدراك ماهيته.

منذ استقرار جيش محمد علي باشا في الحجاز، أمست آراء الشريف غالب وتوجيهاته دون فائدة تذكر، إذ أمسى الاتصال مباشراً مع قادة الوهابيين، وعادت قوافل الحج تسلك طريقها المعتاد دون صعوبات، ويشاع الخبر أكثر عن الوهابية فعرفت على حقيقتها في كل مكان حتى في أصقاع الامبراطورية التركية البعيدة. وأمسى الناس والحجاج يمتنون لأسيادهم الجدد بعد تأثرهم بأفكارهم الجديدة، وهذا ما أثّر إيجابياً في الحجاج الذين بدأوا يستقصون الأخبار عن المذهب الجديد.

إن سأل أحدٌ عن دلائل على سلامة إسلام الوهابيين، فإن تعليمهم الشفهي كفيل بتقديمه. حين احتل سعود مكة، نشر بين الناس هذا التعليم الشفهي وأَمَرَ أن يحفظَهُ تلامذة المدارس والكتاتيب عن ظهر قلب، وفيه ما لا قدرة للتركي المستقيم على إنكاره أو رفضه. كان سعود يرى أن سكان المدن يجهلون دينهم تماماً وعليه أن يبدأ بتلقين أهل مكة مبادىء الإسلام

(١) الرسالة الأولى «وصف ولاية بغداد»، والأخرى «مناجم الشرق».

الأساسيّة. لكن هذا التعليم الشفهي لم يحتوِ على ما يجهله المكّيّون؛ وعندما أدرك سعود أن هؤلاء عالمون بالأمر أكثر من أتباعه أنفسهم، توقف عن نشر التعليم الشفهي بينهم.

مبادىء الوهابية الأساسية تتصل بتلك التي تُعلَّم في كل أنحاء السلطنة العثمانية. القرآن وسنّة الرسول هما مجموع القوانين الرئيسة، وآراء عظماء المفسرين محترمة برغم عدم إتباعها. رغب الوهابيون في استعادة أسلوب حياة المسلمين الأوائل في عهد الرسول وصحبه وخلفائه الراشدين، ولهذا كان عليهم رفض كل البدع والزيف اللذين طرآ على الإسلام كما يعلّم اليوم، والاشارة أيضاً إلى حالات ممارساتٍ عثمانية منافية لروحية ونصوص الشريعة الإسلامية برمتها. معلوماتي القليلة بخصوص هذا التناقض لا يمكنني من تزويد القارىء بإحاطة كاملة حول هذا الموضوع، لكنني قادر على تقديم أمثلةٍ محددةٍ تساعد على فهم التضادد الواقع بين الوهابيين وأعدائهم: يتهم الوهابيون الأتراك بعبادة الرسول وغيره من المشايخ التقاة، ولا يخطىء الوهابيون في هذا الاتهام، وعلى الأتراك، وهم يعترفون بالقرآن كتاباً منزلاً، أن يدركوا أن في هذا القرآن آيات عديدة تقول إن محمداً فانٍ كما كل البشر. لكن الأتراك يعتقدون أن الرسول لم يمت أبداً بل هو وسيط شفاعة بين أتباعه وبين الله عزّ وجلّ. وبرغم أن هؤلاء الأتراك لا يرفعون الصلوات إلى محمد لكن ينادون اسمه عند الشدائد كما نقول نحن «يا رب»، وهذا كافٍ لإدانتهم بنظر الوهابيين. كما أن الأتراك يزورون قبر محمد بالطريقة نفسها التي يزورون بها الكعبة في مكّة. وهذا ما يفعلون أيضاً، لكن على مستوى أقل من التبجيل، عند قبور الأئمة التقاة. ففي كل مدينة أو قرية تركية ضريح لإمام أو شيخ ورع يحترمه الناس بفضل علمه وتقاه، فيزورون هذا الضريح الذي ينى فوقه سطح من الرخام عالٍ، ليؤدوا هناك صلواتهم، إذ يعتقدون أن هذا الشيخ سيساندهم بصلواته ليستجيب الرب لهم فيما يبتغون. فهؤلاء محترمون كما قديسي الكنيسة الكاثوليكية تماماً. أهل الشرق يحترمون أئمتهم احتراماً كاملاً، وترى في كل بلدة أو قرية يوماً محدداً للاحتفال بإمام أو شيخ ما ضريحه في القرية نفسها(*).

أعلن الوهابيون أن كل الناس متساوون في نظر الله، كما أن لا شفاعة في الإسلام، ولهذا كفّروا عبادة الأئمة الأموات وتبجيل قبورهم. وحين قَوِيَ الوهابيون وحملوا سلاحاً، دمّروا كل الأضرحة والقبور مما زاد من تعصّب أتباعهم. وأمسى تدمير الأضرحة وتكسير القبور التابعة للأئمة والمشايخ شغل الوهابيين الشاغل، وأول نتائج فوزهم في الحجاز واليمن والعراق وسوريا. كما هدموا كل القبب التي فوق المساجد أيضاً. في مكة، هدموا القباب التي كانت تغطي مكان مولد النبي وحفيديه الحسن والحسين وعمه أبو طالب وزوجته خديجة. وأثناء هذا

(*) البدو يبجلون أئمتهم أكثر إذ يذبحون لهم الأضاحي ويزورون أضرحتهم تماماً كما كان يفعل الوثنيون لأوثانهم.

التهديم، سُمِعَ الوهابيون يقولون: «اللهم ارحم من هدم ولا ترحم من بنى هذه القباب!» غضب الأتراك لهذا الأمر واعتبروه انتقاصاً من قيمة هذا الإمام المدفون هناك. حتى القبة التي تغطي قبر محمد في المدينة لم تنجُ من أيديهم بفعل أوامر سعود نفسه، لكن بناءها القوي عصي على التكسير، وبعد أن قتل أكثر من وهابي سقطوا من أعلاها، أمر سعود بالتوقف عن الأمر. فأعلن سكان المدينة أن السماء حمت قبر النبي.

إن تجاهل الأتراك أركان إسلامهم إلا الصلاة والصوم، كان مدعاة خلاف أيضاً بينهم وبين الوهابيين. فالزكاة للفقراء والقواعد التي أرساها محمد وصلابة الشريعة والعدل الذي أقسم به الخلفاء الراشدون، والجهاد الذي يفرضه الإسلام ضد أعداء الدين والكافرين، ومخالفة الطبيعة، كانت معدومة في الممارسة التركيّة للإسلام. كما اعترض الوهابيون بشدة وقوة على سلوك الحجاج الذي يدنس الديار المقدسة واعتبروها دليلاً على مسلك المسلمين الفاسدين الذي يتعارض مع السلوكيات الطاهرة التي يعتمدونها ومع روح فريضة الحج المرتبطة بزيارة الكعبة الشريفة. من خلال التصاق عبد الوهاب بالمبادىء البدائية للدين الإسلامي، ورفضه للفساد الذي ألحقه الأتراك بهذا الدين من طريق ممارساتهم الشاذة، وإحساسه بالطغيان الذي يمارسه هؤلاء عليه حيثما أراد إصلاح الحال، لم يكن ينوي سوى إعادة الناس إلى الصراط المستقيم والدين الحنيف كما كان ممارساً في أولى أيام انتشار الإسلام في الجزيرة العربية. وبما أن القانون الأول نسج على قياس البدو، وجد المصلحون أن إعادة تطبيقه على هؤلاء أمر في غاية السهولة، وهكذا أظهروا أن الأتراك لم يضحوا بممارساتهم المُلِلية لصالح روحية الإسلام. لم يكن القانون الوهابي مكتنزاً نظرةً جديدةً في أي شأن، فقد اتخذ عبد الوهاب من القرآن والسنة دليلاً لا محيد عنه، والفارق الوحيد بين مذهبه والأتراك الأورثوذوكس ـ ولو كانت هذه التسمية غير صحيحة تماماً ـ هو أن الوهابي يتبع القوانين التي لا يتبعها الآخرون. وبناء عليه، يمكن وصف الوهابية على أنها تجدّد الإيمان الإسلامي. ولإظهار النقاط التي يختلف بها هذا المذهب عن الأتراك تُجمَعُ في لائحةٍ فيها كل الآفات التي يُتَّهَمُ الأتراك بها. في خريف عام ١٨١٥، أرسل عبد الوهاب رسولين إلى القاهرة أَحَدُهُما عالم وهابي من العلماء. سألهما محمد علي أن يشرحا قليلاً مبدأ مذهبهما لمثقفي القاهرة. التقى العالم الوهابي سائليه في جلسات عديدة وقدر على إقناعهم بوجهات نظره إذ كان يدعم كل مقولةٍ له بآيةٍ من القرآن أو بحديث نبوي، فهو حافظ للقرآن والحديث عن ظهر قلب. أعلن علماء القاهرة أنهم لم يروا هرطقةً أبداً في المذهب الوهابي، وذلك برغم اعتناقهم المذاهب المختلفة. ووصل إلى القاهرة كتابٌ ألفه عبد الوهاب نفسه يُجمِلُ فيه ما يراه صحيحاً، فقرأه العلماء وصرحوا أنهم ينضمون إلى هذا المذهب إن كان ما يقوله عبد الوهاب هو نفس ما يقصده ويمارسه.

تأثر أتباع عبد الوهاب بروح قائدهم هذا فاعتبروا مبادئ المذهب الأساسية أموراً ثانويةً، فأدى ذلك إلى تكوين أعدائهم نظرة خاطئة عن المذهب عامةً.

إلى جانب الحرب التي أعلنها الوهابيون على أضرحة العلماء، رفضوا لباس المسلمين والتدخين. فالسنة تحرم الحرير والذهب والفضة، لكن الأتراك الأثرياء لم يتقيّدوا بهذا القانون. أراد الوهابيون أن يرتدوا الرداء الذي اعتمده الرسول من قبل وهو العبا، وبهذا الزّي كان البدو يميزون الوهابيّ. فالعربي الذي لم يتبع المذهب الوهابي يرتدي قليلاً من الحرير أكان منديلاً أو كفية. أما تدخين التبغ، فكُثُرٌ هم العلماء الأتراك الذين صرحوا علانية بمنع عادة التدخين من التفشي بين المسلمين. أحد المذاهب الإسلامية، المذهب المالكي، أعلن أن التدخين مكروه. سعى الوهابيون أيضاً إلى حض الناس لاجتناب التدخين إذ هو منافٍ للقرآن. وكان على عبد الوهاب أن يدرك أن امتناع أتباعه منْ تدخين التبغ سوف يقوّي من عداوتهم تجاه أعدائهم المستمرين في التدخين وغير الملتزمين بالمبدأ، إذ يعتبرون أنفسهم أقدموا على تضحية جسيمة عند التخلي عن عادة التدخين.

تحريم التبغ كان أحد طرق تحريض الوهابيين ضد الأتراك، إلى جانب منع التسبيح بالسبحة التي كانت شائعة بين المسلمين دون أن ترتكز على الشريعة، ومنع شرب القهوة.

أشك في أن يكون عبد الوهاب، حين استقر في الدرعية وبدأ عملية العودة إلى الأصول، فكر في إقامة نظام سياسي يعم الجزيرة العربية. فقوته وقوة عائلته وأتباعه لم تكن لتمكّنه من اتخاذ تدابير مماثلة، إلا في عهد عبد العزيز، أحد أبناء محمد ابن سعود. وعندما أشاع عبد الوهاب مبادىء مذهبه، لا يمكن النكران أنه أفاد العرب دينياً أو سياسياً من خلال النظام الذي أعاد للأمة العربية أمجادها. فالوهابيّة نجحت في قمع الإهمال الديني الذي يؤدي إلى الكفر الذي شاع في الجزيرة العربية وأنحاء تركيا. وفضل الوهابيين برأيي، يكمن في أنهم قدروا فعلاً على تنقية الدين الموجود، لكن عبادة الله وحده دون الاهتمام برسوله وبالأئمة غير كافٍ في أمّةٍ بدويةٍ غير محكومةٍ في ممارستها للعدالة.

رغب عبد الوهاب وأتباعه في إعادة العرب إلى الحال التي سادت أيام الرسول، ولهذا بادروا إلى تغيير مواقفهم السياسية مع تصاعد شعبية المذهب الجديد. كان النبي محمّد، وبعده خلفاؤه الراشدون، زعماء الأمّة سياسياً ودينياً على السواء. والشريعة الإسلامية بينت ضرورة أن يكون للأمة قائد يقودها سياسياً ويؤمّها دينياً. نجد، التي أمست مستقرّ القوة الوهابية، كانت مقسومة إلى قرى ومدن صغيرة، تستقل الواحدة عن الأخرى والتحارب في ما بينها، ولا قانون يسود فيها سوى قانون القوي الذي يقهر الضعيف. إلى ذلك، أدت الحرية التي كان يتمتع بها البدو

المجاورون والحروب وغزوات السلب، أدّت إلى شيوع الفوضى والحروب في نجد والمناطق التي تجاورها. وبعد نزاع مرير، استطاع عبد العزيز من نشر مذهبه في كل نجد وهكذا، تحوّل من قائد قبيلة إلى زعيم منطقة جغرافية، فأمسى يستخدم سلطته كما كان يفعل الرسول.

لم يرَ استعباد البدو أمراً مناسباً ولهذا ترك لهم حرية الحركة لكن فرض عليهم العيش بسلام واحترام الملكية الخاصة وإطاعة القوانين.

وهكذا، تدريجاً، أصبح القائد الوهابي حاكماً على منطقة كبيرة من الجزيرة العربية، ذات نظام مستقل، إذ يعتمد على مال البدو، ورئيساً على كل مشايخ القبائل يدير سياساتهم دون أن يؤثر ذلك على حرية البدو في قبائلهم إلا في الأمور التي تتعلّق بالشريعة الإسلامية، إذ يتعرّضون للعقاب حين خرقها. في الماضي، كان العربي لا يقبل حكماً غير رأيه الخاصّ، لكنّه الآن مضطر إلى الخضوع لأحكام الشريعة الإسلامية، ودفع الضريبة للقائد الوهابي والاستعداد دوماً لخوض غمار أي حرب يدخلها هذا القائد ضد الهراطقة والكافرين. وامتنع على البدوي أيضاً اللجوء إلى السلاح لحلّ النزاعات بل وجب عليه القبول بأحكام محكمةٍ تنصب لهذه الغاية. هذه كانت غاية القائد الوهابي وأعوانه: الضريبة والالتزام العسكري والسلم الداخلي والخضوع التام للعدالة. واستطاع الوهّابيون تنفيذ هذه الأهداف، إلا أن قوة محمد علي باشا وذهبه ـ أكثر من قوته العسكرية ـ أضعفا قوة الوهابيين وقلّصا حكمهم حتى الحدود التي كانوا فيها قبل سنوات عديدة. والآن، أتوغل أكثر في تفاصيل نظام حكمهم المثير، معتمداً على المعلومات التي استقيتها من حجازيين عارفين.

٢

عن سعود وعائلته

كان سعود، ناشر المذهب الجديد، أكبر أولاد عبد العزيز الذي قتل عام ١٨٠٣، وأخواه عبد الرحمن وعبد الله، ومن والدةٍ هي ابنة عبد الوهاب. توفي سعود عن ٤٥ أو ٥٠ عاماً في نيسان/ابريل ١٨١٤ بسبب الحمّى، في الدرعية. وإلى موته تُرَدُّ كلُّ المصائب التي نزلت في أمته لاحقاً. يقال إنه كان شاباً وسيماً كما كل أفراد عائلته، وله لحية طويلة وشاربان كثيفان ولهذا دعاه أهل الدرعية بـ «أبو شوارب».

يعترف كل العرب، حتى أعداء سعود، بحكمته وصواب رأيه وقراراته. وكان متبحراً في العلوم الفقهية الإسلامية محباً للعدل وهذا ما قرّبه من نفوس الكثيرين من العرب. منذ بداية عهده، لم يشارك شخصياً في أي حرب حيث كان يقود جيشه من بعيد. لكن يتناقل أتباعه أنه خاض حرباً حين كان بعد في الثانية عشرة من عمره إلى جانب والده عبد العزيز.

رزق من زوجته الأولى، بثمانية أولاد، أكبرهم عبد الله الذي خلفه في زعامة الوهابية والنظام. يقال إن عبد الله هذا أتقن ركوب الفرس وهو في الخامسة، ويوصف بالشجاعة التي تفوق شجاعة والده إذ اعتمد المشاركة في كل الحروب التي يخوضها أتباعه. خلال حياة سعود، كانت مزايا ابنه عبد الله توصف على أنها متنزلة إليه بفضل والده، لكن ما فعله خلال مقاومته لمحمد علي باشا أظهر تحلّيه بكل مزايا الأبطال الشجعان. كما أنه مشهور في الصحراء لتحرره وسلوكه الاجتماعي المميّز. تزوج من فتاة من عرب الزاب في منطقة الحسا، وكان له أخوة برز منهم فيصل المشهور بوسامته وحلاوة طباعه، وشدة ساعده في القتال ضد الأتراك في الحجاز. كان ناصر الابن المفضل لسعود لكنه سقط في الحملة العسكرية على مسقط. أما تركي، فكان قائد الحملة الوهابية في العراق وسوريا.

من زوجته الثالثة، رزق سعود بأولاد ثلاثة هم عمر وإبراهيم وفهد.

لم يسمح سعود لأولاده أبداً أن يتدخلوا في المسائل العامة، إلا لعبد الله، الذي شاركه مجلسه، لكنه كان متعلقاً جداً بأولاده. ويحكى أنه مرّة كان جالساً بباب الكعبة والعرب تتقاطر إلى مكّة للحج، فوصلت زوجة ابنه فهد وهي حاملة ابنها الصغير بين يديها فقدمته إليه وهو لم يكن رآه بعد. فأخذه وربت على رأسه وقبّله ثم أجلسه في حضنه طويلاً.

إلى جانب زوجته، كان لسعود، كما للعرب الآخرين، إماء حبشيات يعشن معه في بيته الفسيح الذي ابتناه أبوه على سفح الجبل فوق بلدة الدرعية. في ذلك البيت، سكن أيضاً كل أولاده وعائلاتهم. وقبل أن يغار قليلاً من إخوته ولهذا لم يكلفهم بأي مهام ولا سمح لهم بمغادرة البلدة. احتفظ سعود بأمواله في هذا البيت حيث كان يعقد تجارته مع التجار الحاليّن في البلدة، كان يستقبل فيه الأمراء الوافدين للنوم أو الإقامة أو قضاء الحاجات. ومن هذا الكلام نستشف أن القصر كان يعجّ بالضيوف في غالبية الأيام.

سمح سعود لكل إنسان بالدخول إلى القصر، والحصول على مقابلة خاصة معه. فكان له حجاب مصريون يمنعون الدخول إلا بإذن أو بعد رشوة يتقاضونها. أفضل طريقة للدخول كانت انتظار شيخ داخل والدخول مع حاشيته. كان سعود يقابل الناس باكراً في الصباح، وبين الثالثة والسادسة مساءً وفي ساعة متأخرة من الليل. بعد العشاء، يجمع أولاده الموجودين في البلدة في الغرفة الكبيرة، فيقرأ أحد العلماء قليلاً من القرآن أو الحديث، ويتولى تفسير ما قرأ وفق اجتهادات أفضل المفسّرين. وبعده غيره من العلماء يقرأون ويفسرون. ويكون الختام مع سعود نفسه الذي يتناول القرآن ويقوم بتفسير الآيات الأصعب على الإطلاق. يقال إنه أفضل من كل العلماء في حقل الفقه والتفسير، وأن له صوتاً رناناً تستجيب له القلوب. كان الجمع أحياناً يتداول في أمور القوانين الموضوعة فيجادل مرافعاً مدافعاً عن رأيه بحماسة كبيرة. وبعد ساعات من الجدال والأخذ والرد، يقفل سعود الكلام بقوله «والله أعلم»، فيعرف الجميع أن أوان الرحيل قد آن ولا يبقى عنده إلا من قصده في تجارة، فيجالسه حتى انقضاء ساعتين بعد الغروب. هذا ما يحصل كل مساء.

كان سعود يسخط على العربي الذي يخدعه، وأحياناً، يتناول قضيباً ويضرب به المخادع. لكنه توقف عن هذا الأمر ودعا أعوانه إلى منعه من ذلك حالما يرون الغضب يتصاعد في رأسه وعينيه.

لم يكن سعود خلال إقامته في الدرعية، يغادر منزله إلا نادراً إذ يقصر أحياناً خروجه على زيارة المسجد في أيام الجمعة. رد العرب ذلك إلى خوفه من لقاء المصير الذي أصاب أباه من قبله: القتل. فلا بدّ أنّ له الكثير من الأعداء الذين يتربّصون به لأنه قتل إخوة لهم. لكن

أصدقاءه قالوا إنه يصرف معظم أوقاته في قراءة القرآن. يتناقل الجميع أن سعود يرتدي منذ مقتل والده درعاً تحت قميصه، وأن الحراس يواكبونه من قرب أينما ذهب فلا يتجرأ غريب على الاقتراب منه. كما أنه لم يكن ليذهب إلى المسجد أو ليطوف بالكعبة دون أن يرافقه جمع كبير من أتباعه المخلصين. وهناك لا يصلي في المقام الحنبلي بل يصعد فوق بئر زمزم ويصلي من هناك إذ هو آمنٌ أكثر، فأمسى ذلك المكان المقام الشافعي.

كان يطلب من الجميع، في كل مكان، البقاء جلوساً عند دخوله، ومتى ينعقد مجلسه، يجلس كل واحد أينما يجد مكاناً، إلا الأمراء فأمكنتهم محفوظة بجانب سعود. أولاده الصغار يجلسون بين العامة يسمعون ما يقال ولا يتكلمون أبداً. يدخل العرب على المجلس فيرمون السلام ويصافحون سعود، فيسألهم عن حالهم، أما المشايخ الكبار فيبادلونه قبلةً كما العادة البدوية. وعند توجيه الكلام إليه لا يُدعى بالألقاب الرنانة بل يقال له «يا سعود!» أو «يا أبا عبد الله!» أو «أبو الشوارب!» وهو يردّ على كل رجلٍ باسمه دون مجاملات أبداً.

لا يميز سعود نفسه عن غيره من العرب في لباسه أبداً، فله العباءة والكفية، لكن يقال أنه يختار عباءته وكفيته من أفضل الأنواع التي لا يستطيع الحصول عليها سوى الأثرياء. ويضرب العرب المثل بنظافة ثيابه وبكفيته المطيّبة بالزباد.

كان سعود يصرف الكثير من الأموال على ضيوفه وجياده وله منها ألفان من الجياد والأفراس الأصيلة. من هذه الجياد، ٣٠٠ أو ٤٠٠ تبقى في الدرعية والبقية في منطقة الحسا حيث العشب جيد. حصل سعود على بعض هذه الجياد من أصحابها كعقاب لهم على خطأ اقترفوه، وعلى البقية بعد أن اشتراها بأثمان مرتفعة جداً، والمعروف أنه دفع من فرسٍ واحدةٍ ما يساوي ٥٥٠ أو ٦٠٠ جنيه استرليني.

قدم سعود لكلٍ من أولاده ماية فارس، إلا عبد الله الذي كان يقود أكثر من ثلاثماية فارس من الفرسان الأشداء. بالإضافة إلى هذه الجياد كان لسعود الكثير من الذلول التي حافظ على أفضل نسلٍ لها.

يبلغ عدد أهل بيت سعود والغرباء الذين يقوم هو بإطعامهم من خيراته قرابة ٥٠٠ إنسان. أطباق بيته الأساسية هي الأرز والبرغل والتمر ولحم الخروف. سمح سعود لأولاده الكبار وللمشايخ المرموقين بتناول الطعام إلى جانبه: طعامه الأرز واللحم وطعام الغرباء البرغل والتمر. ومن خلال دراستي لمصاريفه السنوية ولأسعار السلع في نجد، يمكنني أن أقول إن مصروفه السنوي يصل حتى اثني عشر ألفاً من الجنيهات الاسترلينية.

بخلاف الأتراك والبدو، لم يكن سعود يقيم الاحتفالات في بيته بمناسبة الختان، إذ أن

احتفالات مماثلة لم تكن تقام في أول أيام الإسلام. لكنه كان يسمح للعرب بإمتاع أنفسهم في هذه المناسبات، أما الأعراس، فكان يشجعها. فعرس ابنه فهد دام في الدرعية ٣ أيام. في اليوم الأول، استضاف والد العروس، شقيق سعود، الضيوف المدعوين وذبح لهم أربعين ناقة و٥٠٠ خروف. وفي اليوم الثاني، ذبح سعود ماية ناقة و٨٠٠ خروف. وفي اليوم الثالث، قام أخٌ ثالث بالأمر نفسه.

احتفظ سعود بعدد من العبيد الزنوج في قصره. ولم يكن ليسمح لإحدى زوجاته أو جواريه بإرضاع أولاده بل استخدم لهذا الأمر مرضعات من الحبشيات. ويجدر الذكر أن شريف مكة كان يرسل أولاده ليتعلموا بين البدو. هكذا تعلّم محمّد الرسول في ربوع قبيلة عدوان.

النظام الوهابي

إنه حكم ارستقراطي على رأسه عائلة سعود. قسّم أراضيه إلى إقطاعيات بداخلها القبائل العربية التي استقرت. كان لكل قبيلة بدوية شيخها وتحت سلطته مشايخ عديدون. الشيخ البدوي الذي يحظى باحترام أفراد قبيلة يحصل من القائد الوهابي على لقبٍ فخري هو «أمير الأمراء». الإقطاعيات الأساسية هي تلك التي في مناطق الحسا العريض والقصيم وجبل شمّر والحرمين والحجاز واليمن. أمراء هذه المناطق مكلفون المحافظة على الأمن إلا أنهم ليسوا القضاة، فسعود عيّن القضاة من أعوانه المخلصين لا تتجاوز سلطة هذا الأمير ما كان يتمتّع به مشايخ القبائل إلا أنهم يستطيعون فرض التزام الشريعة وسجن أو تغريم غير الملتزم، وحين يخطىء هذا الأمير، يمكن للمتظلم أن يرفع هذا الأمر إلى القائد العظيم. ولهذا ترى الدرعية تعج بالعرب الآتين لتقديم الشكوى من مشايخهم. كما يضاف إلى واجبات الأمير تأمين الجنود للجيش الوهابي أثناء الحرب ومساندة جباة الضرائب.

في حالة الحرب، يشكّل أمراء المناطق ومشايخ البدو الأقوياء مجلساً حربياً. أما في السلم، فسعود لا يستشير سوى علماء الدرعية، وهؤلاء ينتمون في غالبيتهم إلى عائلة عبد الوهاب مؤسس المذهب. فهؤلاء عديدون ويتمتعون بالسلطة. تسمى هذه العائلة «أولاد الشيخ». لا أعرف حتى الآن ما هي الحقوق والصلاحيات التي يتمتعون بها، لكن يبدو أن سعود يطلب مشورتهم قبل أن يتخذ أي قرار نهائي بخصوص مسألةٍ مهمة.

قد يبدو الحكم الوهابي مطلق السلطة لكنه يعرف جيداً أن العرب يرفضون رفضاً قاطعاً أن يُحكموا استبدادياً، ويصرون على المحافظة على حريتهم كما في الزمن الماضي. وهكذا يؤمّن هذا الحاكم العدالة على طريقة شيخ القبيلة.

كان سعود في الحقيقة مقيداً إلى الأمراء الذين عينهم بنفسه إذ يخاف دائماً إعلانهم

الاستقلال عنه إن هو عاملهم بغير العدل. فالبدو كما قلت سابقاً لا يرتضون الذل ولا يقبلون بغير الحريّة. كما أن ثمة عشائر كثيرة مستعدة لتدافع عن نفسها بوجه طغيان القائد الوهابي الذي توصل، بعد توحيدها بالقوة أحياناً، إلى إقامة نظامٍ في الجزيرة العربية مؤاتٍ للأمن العام والمصالح الخاصة على السواء.

النظام الوهابي وراثي في عائلة سعود. في حياة عبد العزيز، طُلب إلى مشايخ القبائل التعهد بمبايعة ابنه سعود بعد موته وطاعته دون مقاومة. وبالطريقة نفسها، تعهد المشايخ الإخلاص لعبد الله أثناء عهد سعود. لكن العرب يرون أن لا ضرورة في توارث الابن القيادة عن أبيه.

القائد الوهابي حرٌّ تماماً في تغيير مشايخ المدن والمناطق والقبائل دون أن يلقى معارضة، لكنه يفضل عادةً الموافقة على من ينتخبه العرب بأنفسهم. وحين يتوفى شيخ ناصره، يسمح لأحد أبنائه بخلافته.

إدارة العدل

تبقى بوادي الجزيرة العربية ومدن الداخل واقعة في حالة الفوضى التي ما تزال سائدة بين القبائل غير الخاضعة للوهابية، والتي وصفتها قبلُ. علّم عبد العزيز وسعود أتباعهما العرب طاعة الشريعة والمحافظة على السلام العام ورفع أي خلاف إلى المحكمة دون اللجوء إلى الحلول العسكرية. واختار عبد العزيز القضاة من بين رجاله المتعلمين وصرف لهم مالاً سنوياً يقتطع من بيت المال ومنعهم من قبول الرشاوي والمال من الأطراف المتنازعة. كان على هؤلاء القضاة اتخاذ الأحكام من القرآن والسنّة، فيحترمها المتخاصمون لكن يقدرون على تمييزها أمام القائد الوهابي الأعلى.

كانت الخطوة الثانية تأمين البلاد ضد اللصوص. قبل أن يحوز عبد العزيز على القوة الكافية، كانت منطقة نجد كما الجزيرة العربية عرضة لنزاعات القبائل المتناحرة ولغزوات السلب المتبادلة. حمّل عبد العزيز، وابنه سعود، القبائل هذه مسؤولية أي سرقة تحدث في مناطقهم ولو كان السارق الحقيقي مجهولاً، وفرضا غرامةً على كل قبيلةٍ تقوم بسرقة أخرى تساوي قيمة المسروقات. وهكذا، اضطرت كل قبيلة إلى حماية جوارها وحماية المسافرين الغرباء الذين يمرّون في مناطقها. بنتيجة هذا الأمر، خفت حوادث السرقة العامة والخاصة وأوشكت على التوقف نهائياً بين البدو الذين كانوا يتلذذون بغزوات السرقة والسلب. وأمكن للمرّة الأولى منذ أيام الرسول أن يعبر تاجر الصحراء العربية وهو واثق أنه لن يتعرض للسلب، وأن ينام البدوي عارفا أن غزواً ليلياً لن يحصل وبذلك لن يفقد جماله التي أناخت خارج خيمته.

شكك عبد العزيز وسعود في قبول العرب التخلي عن تقليد الثأر القديم، ولهذا سعيا بكل

جهد ونشاط لوقف هذا الأمر وفرضا أسلوب الغرامة أو الديّة تدفع لقريب المقتول. لكنهما لم يحققا النجاح الكامل: تمكن سعود في غالبية الحالات من فرض غرامة مقابل جريمة القتل والدم المسفوك، لكن من قام بقتل القاتل ثأراً قبل أن يقرر سعود الديّة لهذا الأمر، لا يعاقب أبداً إذ هو تصرّف على هذا النحو مدفوعاً بقوانين العرب وحقوقهم القديمة.

حين يقع النزاع بين أتباعه ويحصل سفك للدماء، يعاقب سعود كل المشتركين في هذا الأمر دون رحمة، فيأخذ منهم جيادهم وجمالهم وماشيتهم أو يقتطع من ممتلكاتهم لصالح بيت المال.

وفي أي نزاع يرفع واحدٌ خنجراً ويجرح آخر، تفرض الغرامة على كل موجودٍ في المكان لأنه سمح لهذا النزاع بالحدوث أصلاً. أما في حالة احتراب قبيلتين، يرسل سعود المراسيل إلى شيخي القبيلتين يدعوهما إلى الصلح ويفرض غرامةً على كل قبيلةٍ ويرغمها على دفع حق دم قتلى القبيلة الأخرى. فعلى القبائل المتنازعة رفع نزاعها أمام محكمة سعود الذي كان الجميع يخاف سطوته ومحاكمته إذ يتناقل العرب أن عبداً زنجياً، قبض بحسب أوامر مولاه سعود، على شيخ إحدى القبائل في عقر داره واقتاده مخفوراً إلى قصر سعود.

عرف عن سعود أنه عادلٌ إلى أبعد الحدود، لكنه قاسي الأحكام وخصوصاً ضد الآثمين وشهود الزور الذين كان قادراً فعلاً على اكتشاف أمرهم. لكن عقوباته لم تكن عنيفة. فقد قيل لي أن لا أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص أعدموا منذ موت والده. وبما أن البدو لا يملكون مالاً، فهو يغرّمهم بالجياد والجمال والخراف.

هذه الأحكام ألّبت ضده بعض القبائل وخصوصاً عندما لم يحترم حمايتها لمجرم مطلوب. فقد ألغى سعود عرف الدخيل في كل مقاطعاته إذ أن هذا الحق يحمي المجرم من المحاكمة والعقاب. فإن قتل عربيٌ عربياً آخر، يدخل دخيلاً على عربيٍ ثالث خوفاً من الثأر. أما حين يطلبه القانون فعليه أن يسلم نفسه للقضاء.

أحياناً، يطلب مرتكبُ لجنحةٍ صغيرة حماية أحد المشايخ المناصرين لسعود، فيقوم هذا بالتوسط عند القائد الوهابي ليصفح عنه أو يحكم عليه بغرامةٍ صغيرة.

الجريمة التي يعاقب عليها سعود دائماً هي تعامل أتباعه مع الكفار المهرطقين، فعند إنشاء المذهب، أمر سعود الوهابيين بالانقطاع عن التعاطي مع هؤلاء، إذ أن السيف وحده هو لغة التخاطب معهم. وبما أن أهل نجد يزورون المدينة ودمشق وبغداد والمناطق المجاورة، فاستمروا في عدم طاعة أمر سعود، فاضطر هذا إلى تخفيف أوامره حول هذا الموضوع، حتى أنه تهاون وسمح لأتباعه بالتجارة مع قوافل الحجّ السورية والمصرية وتقاضى ضريبة على هذه التجارة،

لكنه لم يسمح أبداً بوصول تجارة أتباعه الوهابيين إلى سوريا والعراق إلا بعد الحملة المصرية عام ١٨١٠. لكن بقي القانون التالي [من يتوجه عبر منطقة فيها هراطقة تصادر أملاكه، ومن يحضر من مناطق الهراطقة يحتفظ بكل ماله] سارياً.

في ظل هذا النظام، كان الأغنياء آمنين جداً إذ لا ضرائب تُفرض عليهم أبداً. فتجار مكة لا يدفعون الضريبة ولا يقدمون أي هدية لسعود إذ ليس هناك ما يضطرهم إلى ذلك.

يتضايق البدو عندما يطلبهم قائدهم إلى المشاركة في إحدى حملاته العسكرية ضد الكافرين. في هذه الحالة، على العرب أنفسهم أن يبحثوا عن جيادهم وجمالهم، ولا يتلقون مقابل ذلك أي مكافأة إلا ما قد يتمكنون من الحصول عليه من الغنائم. إن من يغضب سعود يجد في هذه الحملات العسكرية ما يرضيه.

الأمن الذي نتج عن إدارة العدل بهذه القسوة صب في صالح من عانى كثيراً من السلب والسرقة مثل سكان نجد والحجاز واليمن، فأمسوا متحمسين أكثر لهذا النظام الجديد. وكذلك حصل في نفوس أفراد القوافل التي تعبر الصحاري في كل اتجاه إذ أَمِنَت أنها لن تتعرض للهجهوم أبداً.

أما القبائل التي كانت تعتاش من غزوات السلب فصعب عليها قبول الخضوع لنظام يحاربها في أسباب عيشها. ولهذا لا عجب في تردد بعض القوافل في الدخول في المذهب الوهابي إلا بعد أن يُفرَضَ عليهم فرضاً. وأظهروا من ثوراتهم المتتالية مدى رفضهم لهذا النظام المفروض عليهم، ولا أنسى الاشارة إلى الغبن الذي يحسون به بسبب اضطرارهم لدفع الجزية.

إلى جانب الشهرة التي نالها سعود من خلال أحكامه القاسية والعادلة، اشتهر بمحبّته لأصدقائه وإخلاصه لهم وخصوصاً لأتباعه المخلصين. فأي شيخ أخلص لسعود يتلقى العون عند الحاجة بغض النظر عن الخسارة الجسيمة التي يُمكن أن يتكبّدها سعود.

العقاب الأعظم الذي قد يفرضه القائد الوهابي هو حلق لحية المعاقَبْ. وهذا لا يحدث إلا عندما يبغي سعود معاقبة شيخ ارتدّ عليه وهو عار أقسى من الموت. العربي حليق اللحية يختبىء عن الأنظار حتى تعود لحيته نامية كما كانت. وتروى حكاية حول هذا الموضوع: كان لأحد بني سمّر فرس أصيلة أرادها سعود لنفسه، لكن صاحبها أبى بيعها مهما كان الثمن المقدم فيها. ومرّة، أخطأ أحد مشايخ قحطان فأمر سعود بحلق لحيته. وعندما حضر الحلاق، صاح الشيخ القحطاني: «خذ فرس الشمري وابقِ لي على لحيتي». راقت لسعود هذه المقايضة. وصل القحطاني إلى صاحب الفرس واشتراه بألفين وخمسماية دولار، ولم يكن ذاك ليبيعها لو لم تكن لإنقاذ الشيخ النبيل. لكن هذا المثال نادر الحصول إذ أن سعود كان يرفض المال بدلاً من

حلق اللحية.

هُنا أذكر بعضَ القوانين الوهابيّة المرتكزة على القرآن والسنّة.

إن سرق لص أو حرامي شيئاً عليه إعادته أو دفع ثمنه. وإذا حدثت السرقة دون عنفٍ، يفرّ اللص دون عقاب إلا غرامة على المسروقات تدفع لبيت المال. وحين يكسر اللص باباً ليسرق تقطع يده.

من يقتل عدواً له في نزاع بواسطة الخنجر يُقْتَل. فإن قتله بعصا أو حجر يدفع ثمن الدم فقط إذ لم يكن يحمل سلاحاً قاتلاً عند وقوع الحادث.

حدد الوهابيون حق الدم بمئة ناقة وفق ما حدّده أبو بكر، وحدد سعود ثمن الناقة بـ ٥ دولارات اسبانية والقيمة الفعلية الآن هي ٢ دولار.

من يلعن وهابياً أو يتّهمه بالكفر يتعرّض للعقوبة القصوى. للشتائم درجات في قاموس الوهابي فأفظعها أن يدعو رجلٌ رجلاً «كلب». أما الشتيمة الأكثر استعمالاً فهي «يا فاعل» (أي يا فاعل الشر) أو «يا تارك» (أي يا تارك الدين).

الدبابة أو القيود التي تقيّد قدمي السجين تخصّ الطبقة السفلية من الناس. وكان لسعود سجن في قصره ليسجن فيه الأشخاص المرموقين الذين يدّعون الفقر ويرفضون دفع غرامةٍ فرضت عليهم، فيسجنهم أحياناً حتى يدفعوا ما يتوجب عليهم.

يقع العقاب الحاد على تارك واجباته الدينية. حين سيطر سعود على المدينة، أمر رجاله بإحصاء أسماء كل البالغين في المسجد للتأكد من أن كل بالغي المدينة حاضرون. فإن غاب واحدٌ منهم مرّتين أو أكثر، أرسل أتباعه ليضربوه داخل بيته. وفي مكّة، حين يحين موعد الصلاة، كان رجال سعود يجوبون الشوارع مسلحين بالقضبان يحضّون الناس على الذهاب إلى المسجد.. أعتقد أن هذا التصرف واجب في ملحدي مكّة. ولم يكن سعود يفوّت حجاً إلى مكة، بل كان يذهب إليها ومعه آلاف العرب من رجال ونساء. آخر مرّةٍ حج فيها كانت عام ١٨١٢.

راقب سعود حالات الطلاق بين الناس، وقرر أن يُضرب كل أعرابي يحلف بالطلاق. وإفطار يومٍ في رمضان دون سبب مشروع مدعاة وقوع العقاب القاسي على المفطر. فعبد العزيز مرّة أمر بإعدام رجلٍ أفطر. تدخين التبغ علناً ممنوع، لكن الكل يعرف أن النجديين يستمرون في هذا الأمر سراً، وكذلك يفعل الوهابيون في خيامهم ليلاً. عندما دخل سعود مكة، أمر كل العرب إحضار ما عندهم من «شيشة» إلى الفناء التي خلف داره، مع كل التبغ، ثم أحرقها.

وبعد أيام، أتاه تابع وقال إن المكيين يعصون أوامره ويدخنون. فسأله: «أين رأيت الدخان؟» فقال «رأيت دخانهم في بيوتهم». عندئذٍ قال له القائد: «ألا تعرف أنّه مكتوب لا تتجسّس على أسرار بيوت المؤمنين؟» وأمر بجلد المخبر هذا.

ولا ينسى المكّيون الأمان الذي وهبه لهم سعود عندما دخل مكّة، فأمنوا شرّ قواته القساة. كما أنه أصدر أوامره القصوى ألاّ يتعرض أحد رجاله لمكيّ، وقيل لي إن هناك من رأى هؤلاء الجنود في المسجد يسألون عن أصحاب سلعٍ وجدوها ويريدون إعادتها إليهم.

حرص سعود دوماً على حماية التجارة وقوافلها في المناطق الخاضعة له إلا إذا كان التجار مسلمين مهرطقين. التجارة الرئيسة في نجد هي تجارة المؤن التي يحضرها رجال القبائل من جوف الصحراء، فيكدسها أثرياء المدن خوفاً من سنوات الجفاف. لم يتدخل سعود أبداً مع هؤلاء الأغنياء وفي أيام الجفاف سمح لهم بالبيع بالثمن الذي يريدون، مهما كان الضيق الذي يسببونه للفقراء، إذ أن محمّداً، وفق زعمه، لم يكن يفرض على التجار البيع بأثمان محددة.

منع سعود الدين بالربا منعاً باتاً. فعند حصول الدين، يتحمّل الدائن والمدين الخسارة التي تقع، ويأخذ الدائن نصف ربح المدين.

لم يكن للوهابيين عملة، بل كان التعامل يتم بالعملات النحاسية القديمة التي صتكها أئمة اليمن. المرفوض الدائم كانت العملة التركية. فحتى في الحرب في الحجاز، عندما قتل الوهابيون الجنود الأتراك، وجدوا في جيوبهم بعض القروش فرموها بازدراء على الأرض.

المداخيل

مداخيل الوهابي تؤسس وفق مخطط مشابه لذاك الذي كان متبعاً في أيام محمّد.

١ ـ خُمس الغنيمة التي تسلب من الهراطقة. لكن هذا القسم يعطى للقائد أو لأحد أركانه إن حضر الحملة؛ وكل شيخ يرأس كل قبيلة مضطر إلى تقديم هذا الخمس. هذه الغنيمة تتألف من جياد وجمال وخراف تباع فوراً واحدة لنفسه وحصتان لفرسه، ولكل راكب حصة واحدة وكانت حصتان قبل سعود، ولكل راجلٍ حصة واحدة أيضاً. ومتى قتل وهابي عدواً واستولى على فرسه أمست ملكاً له، مكافأة على شجاعته، ولا أحتاج إلى التذكير لأن محمد كان يأخذ خمس الغنيمة.

٢ ـ الضريبة؛ ترفع الضرائب كلها إلى القائد الوهابي. كان محمد نظم الجزية فتبع الوهابيون هذا التنظيم. القانون الإسلامي حدد نسبة الضريبة من الأملاك وهذا ما اتبعه الوهابيون أيضاً دون تبديل. فقياس الضريبة يقاس بحسب الجياد والجمال والمواشي

بحسب السنّة. وكان سعود يقسم الضريبة إلى قسمين: الآتية من البدو تذهب تواً إلى خزينته الخاصة، والآتية من سكان القرى والمدن والمزارعين تذهب إلى بيت مال المسلمين.

في الحقول التي ترويها الأمطار، يقتطع سعود عِشر الغلال؛ أما من الحقول التي ترويها ماء البئر أو النبع فيقتطع ٢/١ من الغلال.

يدفع التجار ٢,٥ بالمئة من رأس مال تجارتهم بعد أن يعلنوا قيمته إثر قسم يؤدونه أمام الجابي. ولقد أعلن مّرة تاجر من تجار الخضرا في رسالةٍ إلى سعود أنه تعرض للسلب وخسر ٣٠٠٠ دينار. فأمر سعود أن يعود الجابي إلى الملفات ليرى مبلغ إعلان هذا التاجر عن تجارته، فكان أعلن أنها تساوي ١٠٠٠ دينار. فأمر سعود بسبب هذا الخداع، بمصادرة كل خيول وجمال التاجر عقاباً له.

لم تكن القبائل العربية معتادةً على هذا النوع من الزكاة، فرفضتها وأبعدت الجباة. وبسبب هذه الضرائب المفروضة بالقوة، أمست القبائل تلك تتقبل أكثر فكرة وجود قوات محمد علي باشا في الحجاز وخصوصاً بعد إعلان هذا الباشا رفع الضرائب عن كل سكان الحجاز من بدو وحضر.

٣ ـ تُحَصَّلُ الحصة الأكبر من عائدات القائد الوهابي من مناطق نفوذه. فقد وضع قانوناً يسمح له بغزو أي قرية أو مدينة تعصاه في المرّة الأولى، وبمصادرة كل أملاك أهلها لصالح بيت المال، فيصبح مالكوها الأصليون مزارعين يدفعون ثلث أو نصف ما يجنونه للقائد. أما المحرضون على الثورة فتعطى أراضيهم لغيرهم ويفرّون هم أو يُقتلون. وبما أن القبائل العربية لم تدخل النظام الوهابي إلاّ بعد صراعات عديدة، فإن ثمة أراضٍ شاسعة مصادرةٌ في الحجاز لصالح بيت المال. أما القصيم، فكلها مَزَارِعُ للقائد إذ كثرت فيها الثورات؛ وكذلك جبال اليمن مربوطة ببيت المال.

٤ ـ الغرامات المفروضة على من يخرق القانون. كما أن العربي الذي يتهم آخر زوراً يدفع غرامة للخزينة.

كل هذه العائدات، عدا الزكاة، تدخل بيت المال. ولكل قرية أو مدينة خزينتها التي يُودِعُ فيها السكان ما يجب أن يدفعوه. ولكل خزينة كاتب يعينه القائد الوهابي ليمنع شيخ القبيلة من الاقتطاع من العائدات هذه لنفسه. فالمشايخ لا يجمعون المال ولا يحصونه أبداً. تقسم هذه العائدات إلى أربعة أقسام: رُبعٌ ينقل إلى خزينة الدرعية، وربع إلى الفقراء، والقضاة والمعلمين. والنصف الباقي يذهب لإعالة الجنود وعائلاتهم خصوصاً عندما يكون هؤلاء الجنود في حملةٍ

عسكرية، وإلى المشايخ كي يقدروا على فتح بيوتهم للضيوف إذ أن واجب الجميع الاشتراك في إكرام هؤلاء الضيوف. وهكذا، يصل إلى ابن علي شيخ بني شمّر في جبل شمّر كل عام من خزينة منطقته ٢٠٠ جمل محملّة بالذرة، و٢٠٠ أخرى محملة بالتمر وألفاً من الدولارات الاسبانية، يستخدمها لشراء اللحوم والزبدة والقهوة من أجل إكرام ٢٠٠ أو ٣٠٠ ضيف مرموق من مختلف المناطق ينزلون بيوته يومياً.

بعض عائدات خزينة الدرعية تصرف على أصدقاء سعود الذين يصادر الأعداء ممتلكاتهم، وخصوصاً إن كانوا وهابيين مخلصين، فهم يحصلون على ثلث ما ملكوه، وكذلك يُصرف بعضها إلى من خسر القطيع أو الجمال بسبب الحرب أو المرض. قد تنفق فرس أو ذلول أحد المحاربين حين الحروب، فيعوض عليه سعود بفرس أو ذلول إن أتت الحملة بغنائم وإلا كان على المحارب أن يتحمّل خسارته.

إلى جانب المال الذي يتلقاه المشايخ للاهتمام بالضيوف، يصلهم سنوياً هدايا مختلفة من خزينة الدرعية كدليل على حسن نيّة سعود. وتتراوح قيمة هذه التقديمات بين ٥٠ و٣٠٠ دولاراً، وتقدم كما كان يحصل أيام الرسول.

كان جباة هذا المال (ويسمّى الجابي نائباً أو مزكّياً أو عميلاً). يُرسلون من الدرعية كل سنة إلى المناطق والقبائل المختلفة، فيتقاضون أجراً مقابل تعبهم ونفقات رحلتهم. وهكذا يحصل الجابي المتوجّه إلى الصحراء السورية ٧٥ دولاراً. وكما ذكرت، لا يُسمح للمشايخ بالتدخل في تحصيل هذه الضرائب. وحين يذهب هذا الجابي إلى القبيلة، يتولى فردٌ منها تسجيل المبالغ المدفوعة وآخر جمع المال ليسلّم إلى الجابي ويسلّم القبيلة إيصالاً رسمياً أُثبت فيه المبلغ المقبوض.

على البدو دفع الضريبة في أول شهر بعد بداية الربيع إذ تكون الخراف والنعاج قد استولدت، فتجتمع كل قبيلة في ميعاد قرب أحد الآبار ليصلها الجابي. وهكذا في العام ١٨١٢، جمع سعود المال من القبائل البدوية في بغداد حين اجتمعت قرب بئر تدعى هنديّة على بعد ٣ أيام من بغداد. وفي ذلك العام، دفع الجلاس المال المترتب عليهم قرب واحةٍ على بعد مسير ١٢ يوماً من حلب.

كان سعود يدفع رواتب عماله وحراسه من جيبه الخاص. ما لا يمكن نكرانه هو الطمع الذي كان يميز تعامل سعود مع أتباعه، فكان العرب يشتكون قائلين: لو رأى سعود فرساً أصيلة يملكها عربي لوجد ألف ذريعةٍ ليستولي عليها كغرامة على أي أمرٍ تافه. فالأموال الكثيرة التي كدّسها زرعت فيه رغبةً في المزيد منها وجعلته أكثر بخلاً يوماً بعد يوم وحملةً بعد حملة. لكني ما سمعت يوماً عن حادثة مصادرة أملاك أي عربي دون سبب وجيه. هذا البخل أبعد

عنه مشايخ القبائل وعبّد الطريق أمام محمد علي باشا ليدخل الحجاز. فلو فعل سعود ما فعله الباشا من إلغاء للضرائب وتوزيع المال بين الناس، لما ترك للباشا ثغرةً ليدخل منها إلى مناطقه.

لم يكن سعود لينكر أخطاءه وقسوة أحكامه وسمعه أصدقاؤه وأعوانه يقول إنه مسؤول عن عدم وصول المذهب إلى القاهرة إذ ذلك مردود إلى القسوة التي يعامل بها الخاطئين.

قدم الكثيرون معلومات مبالغاً فيها عن عائدات القائد الوهابي لكن أحد أعوانه الموثوقين الذين يعرفون حقيقة البيت الوهابي من الداخل يقول إن أعلى مدخول دخل إلى خزينته لم يتجاوز المليون دولار ونصف المليون في السنة، إذ أن قسماً من العائدات المحصلة من خزائن المناطق يصرف كلّه ولا يتبقى منه سنوياً سوى القليل.

برغم الثراء الفاحش الذي نعم به سعود بعد والده، لم يتمكن أي منهما من السيطرة على القبائل البدوية، فاضطرا إلى تركهم أحراراً، وخاصةً بعدما أدركا أنهم لن يقاتلوا عدواً غازياً يمرّ بأرضهم دون أن يضع السلاسل الحديدية في أيديهم. طاعة البدو اليوم للقانون والشريعة لا لسعود الذي يعتبرونه الشيخ الأكبر لا سيّد الجزيرة العربية. ما يُسكت القبائل عن الضريبة المفروضة عليهم هو معرفتهم أن هذا المال الذي يدفعون يصرف لأمور تصب في مصالحهم. وهذا شعور لا يستطيع فلاحو تركيا أن يتمتعوا به أبداً.

٣

الوهابيون والحرب

لا يختلف الوهابيون في الأمور العسكرية، عن البدو. فكما يجمع الشيخ رجال القبيلة للغزو، كذلك يفعل القائد الوهابي، ليعود ويفرقهم بعد انتهاء الحرب. فليس لسعود أي جيش محارب إلاّ بعض مئات من الجنود في الدرعية. فإن أراد سعود القيام بأي حملة يطلب من مشايخ القبائل لقاءه على رأس الخيالة والجمالين المسلحين في ميعاد محدد قرب أحد آبار الصحراء. فعلى سبيل المثال إن طلب القائد الوهابي ألف جندي من شيخ منطقة القصيم، تضطر كل بلدة في تلك المنطقة إلى تقديم شبانها ليذهبوا إلى الحرب. فتجتمع هذه البلدات أو القبائل البدوية وتقرر من يذهب ومن يبقى. كل من عمره بين الثامنة عشرة والستين يحضر هذا الاجتماع، بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية. من يملك فرساً يشارك في كل الحروب، من يملك دلولاً يشارك في حرب بعد أخرى. فإن تخاذل صاحب الفرس صادر سعود فرسه أو جمله أو بعض قطيعه كغرامة على تخاذله.

أما حين يُطلبُ الجنود دون تحديد العدد، فعلى كل صاحب فرس وجمل وناقة أن يهب ليلبي نداء القائد. أي عندما يقول سعود: «لن أحصي من قام للحرب بل من قعد عنها»، على كل من يقدر على حمل بندقية أن يغادر مع الجيش دون تردد. فإن كان الرجل المحارب فقيراً، قدم له الغني جواداً أو ذلولاً، أو فعل ذلك بيت المال. وحين تكون الحملة تستهدف بلداً بعيداً كدمشق أو عُمان، يأمر سعود قواده أن يلاقوه بالسلّة أي بالجنود المنتخبين من أفضل الفرسان البواسل. وبرغم معرفة هؤلاء الجنود بالغرامة الكبيرة التي تفرض عليهم إن حاولوا عدم تلبية نداء الحرب، إلا أنهم يفضلونها على تكبّد مشاق الحرب ومصاريفها إذ عليهم أن يخزنوا المؤونة لمسيرة تستغرق أحياناً خمسين يوماً من جيوبهم الخاصة.

مؤونة الجندي الوهابي مئة كيلو من الطحين وخمسون من التمر وعشرون من الزبدة وكيسٌ من الشعير للجمل بالإضافة إلى قربة ماء كبيرة.

إن ثمن هذه المؤن والتعب وخطر إصابة الجمل بالجراح أو حتى موته خلال السفر تجعل الفقراء يهربون من تلبية نداء الحرب. ولهذا حين لا تكون التعبئة عامة تطلب الجميع، يذهب أناس مكان آخرين مقابل المال (٨ أو ١٠ دولارات اسبانية) إلى جانب المؤونة.

في الصباح والمساء تكون وجبة الجندي التمر الممزوج بالطحين والمخبوز بالرماد. عن هذه المؤن، والوقت المهدور في الحملات، والتعب الذي يتكبده الجمل، تقعد الجنود للفقراء عن الاشتراك في الحرب. وممكن أن يقوم عربي مقام آخر مقابل أجرٍ قليل هو ١٠ دولارات بدل ٤٠ يوماً.

متى يقل عدد الجمال، يتخذ كل راكب جملاً مرادفاً له يُركبه خلفه. كل ذكور الوهابيين جنودٌ يستدعيهم سعود متى أراد، وهكذا،خلال أسبوع واحد، يقدر على توجيه حملةٍ بجيشٍ ممتاز عدّةً وعدداً. لكن هذا النظام العربي مفيد في الحملات السريعة أو في حالات الدفاع لكنه غير مُجدٍ في الحملات البعيدة والطويلة.

يحضّ المبدأ الوهابي على الجهاد ضدّ كل من لم يتبع هذا المذهب، ولهذا توجهت حملات الوهابيين ناحية البصرة والفرات وسوريا بعد أن تأمن خضوع غالبية مناطق الجزيرة العربية. لكن هؤلاء الوهابيين لم يكونوا بصدد مدّ سيطرتهم خارج الجزيرة ولهذا اقتصرت حملاتهم على سوريا والعراق على الغزوات السريعة لكسب الغنائم. كان هدف سعود أن يفرض سيادته على الجزيرة العربية وعلى قبائلها. ولهذا قام بتوجيه ضربات إلى القبائل التي ترفض الدخول في المذهب الجديد، فكان يخرب حقولها وأشجار نخيلها ويصادر قطعانها. وعندما ترى هذه القبائل ما يحلّ بها تبادر إلى اعتناق الوهابيّة للخلاص من مضايقات سعود ورجاله. ثمة قبائل أخرى تحالفت مع شريف مكة في معارضته لعائلة سعود. المناطق الأخرى كجبل شمّر والحجاز واليمن وغيرها البعيدة من مركز القوة الوهابية في نجد، ارتاحت من طغيان سعود وتراجعت عن دفع الضرائب التي فرضها عليها. في البداية أرسل إليهم من يذكرهم بما عليهم فعله، فاعتبروا ذلك دليل ضعف وبادروا إلى إعلان العصيان. فما كان من سعود إلا أن أعلن هؤلاء العرب أعداءه وأمر بمهاجمتهم عند الاستعداد مرسلاً الحملات العسكرية فعادت تلك المناطق إلى طاعة سعود خوفاً على أملاكها وقطعانها، ويقول سعود أن العرب لا يتحولون إلى الوهابية إلا بعد أن يعانوا مراراً من غزوات قواته.

بعض القبائل القوية والبعيدة بقيت على مقاومتها لدفع الضريبة برغم إعلانها دخولها في المذهب الوهابي. ففي العام ١٨١٠، حين اهتزّت قوّة سعود، رفضت عنيزة دفع الضريبة، لكن سعود لم يجد من الحكمة معاملة هذه القبيلة معاملةً قاسيةً بل استمرّ يتصل بمشايخها الذين

يؤدون له فروض الطاعة لكن يتصرفون بحسب مصلحة القبيلة.

كان سعود يحرص على أن يقوم كل سنة بحملةٍ أو حملتين كبيرتين وخصوصاً ناحية البصرة الغنية بالتمر وضفاف شط العرب والفرات. حتى قامت قواته بسدّ مجرى نهر الفرات الأمر الذي زرع الرعب في نفوس سكان بلاد ما بين النهرين. واستمر هذه القوات بمهاجمة مناطق اليمن وحضرموت وعُمان غير الوهابية، التي فيها الكثير من الغنائم. لم يكن سعود يرافق هذه الحملات دوماً بل يرسل أحد أولاده على رأسها. كما علمت أن عبده الأسود «حرك» قاد مرّة إحدى الفرق الوهابية في إحدى الغزوات.

حين يحضّر سعود لإحدى الحملات، يحتفظ بكل تفاصيل الحرب لنفسه، ويلتقي أركان حربه في منطقة بعيدة جداً عن موقع القبيلة التي سيهاجم تضليلاً للحقيقة، إذ أنّ أخبار التجمعات العسكرية تنتقل في هذه الصحراء كما البرق. فإن أراد سعود الهجوم على شمال الدرعية، جمع قواته في جنوبها حتى يتسنى له الوقوع على أعدائه بغتةً وليمنعهم تالياً من التحضر للدفاع أو من الهرب.

غزوات الوهابيين تخطط بشكل دقيق وتنفذ سريعاً، ولهذا نادراً ما تفشل. وهكذا، فحين نوى الهجوم على حوران في العام ١٨١٠، وهي بعيدة عنه مسيرة ٣٥ يوماً، لم تصل أخبار قدومه إلا قبل يومين. وفجأة، احتلت القوات الوهابية ٣٠ قرية من قرى حوران قبل أن يتمكن والي دمشق من أن يحرّك ساكناً للدفاع عن الأراضي التي يحكمها.

شكل سعود فرقة من حراسه الشخصيين المشهورين بالشجاعة والقوة أسميت «المنجيّة»، يبقيها دوماً في الدرعية. ومتى سمع عن فارس ماهر شجاع يدعوه إلى الدرعية ويلحقه بقواته هذه بعد أن يعرض عليه إمداده بكل ما يحتاج من ذرة وزبدة وتمر. المنجيّة ترافق القائد دوماً في حملاته العسكرية. وتهاب القبائل جميعها المنجيّة إذ ذاع صيت رجالها الباسلين في كل أنحاء الصحراء. عديد المنجيّة ٣٠٠ فارس مدجج بالسلاح والدروع، وجيادهم مغطاة باللّبس. بما أن هؤلاء الحراس البواسل متطوعون لخدمة القائد الوهابي فهو يثق فيهم ثقة عمياء.

إلى جانب المنجية، اصطحب سعود معه عقداء القبائل البدوية مضعفاً بذلك موقف هذه القبائل ومقوياً موقفه هو من خلال ما لهؤلاء العقداء من خبرة في الحرب وخصوصاً الخاطفة. وحين كان يجد بين العقداء من يخلص له إخلاصاً صافياً، كان يسلمه دفّة الحملات العسكرية.

يشن الوهابيون هجماتهم في كل شهور السنة، حتى في رمضان. وكان سعود يفضل الخروج إلى الحرب في شهر ذي الحجّة، ويقول أتباعه إنه لم يقهر في أي حرب خاضها خلال

هذا الشهر. حين يذهب سعود في الحج إلى مكة، كانت القبائل النازلة في بلاد ما بين النهرين تنتهز فرصة غيابه للهجوم على مناطقه.

عندما كان سعود يقع فريسة للارتباك والتردد بخصوص أي قرار يجب اتخاذه، كان يتشبّه بالرّسول: فيتلو آيات من القرآن قبل أن يخلد إلى النوم وفي اليوم التالي يحلل المنام الذي راوده فيدرك حينها أي قرار يجب اتخاذه. وهو لا يطلع المشايخ على أيّ من مخططاته.

في أي مسيرة، تكون خيام سعود مميزة بألوانها، مصنوعة في دمشق أو بغداد، بخلاف خيام أتباعه السوداء. وتُحمل مؤنه ومتاعه على ظهور ٢٠٠ جمل إذ يصطحب معه الكثير من المؤن خلال الحملات البعيدة ليساعد من تنفذ منه المؤن من رجاله، ولكي يتمكن من استضافة الضيوف الذين قد يلتقيهم في الطريق. خلال السرى الليلي، تضاء المشاعل أمام سعود والمشايخ الذين يرافقونه. أمام الجيش الوهابي، تتقدم وحدةٌ من ٣٠ أو ٤٠ فارساً تدعى الصبر للاستطلاع، تبقى على بعد مسير يومٍ من الجيش، تماماً كما يفعل البدو خلال غزواتهم، وذلك بإرسال مكتشف مسبقاً قبل ساعات.

عند الاقتراب من العدو، ينقسم الجيش إلى ثلاثة أو أربعة ألوية، الواحد أمام الآخر. اللواء الأول هو الفرسان، أقوى ألوية الجيش. وخلفهم ركاب الجمال يتقدمون إلى المعركة في حال انكسار الفرسان. تخلى سعود منذ زمن طويل عن المحاربة بنفسه ولهذا يبقى في الخلف مع الجنود الاحتياطيين الذين يرسلهم أفواجاً إلى ساحة المعركة ليكون النصر حليفه أخيراً. وخطته المفضلة في الحرب الفرار من أمام أعدائه لينقض بعد ذلك على مطارديه الذين نال منهم التعب.

يؤكد سعود لكل فرسانه أن من يقتل في ساحة الحرب يدخل الجنة لأنه مجاهد في سبيل دين الله. فمتى يسقط شيخٌ شهيداً يسرّ الجنود الآخرون إذ هو أمسى في الجنة، ويصيحون: «يا سعود إفرج، فرس فلان عادت!» أي أن الفرس عادت وحيدةً إلى الخيمة بعد أن سقط فارسها شهيداً.

وخلال هذه الحملات، تقوم النساء العربيات التابعات للقبيلة المهاجَمة بخلع الأثواب، فيتراجع الوهابيون ويرمونهم ببعض الثياب للتستّر. لا توجه إهانةٌ أبداً لأي امرأة على الإطلاق، بل تعطى العائلات التي فقدت رجالها جمالاً ومؤناً تكفيها لتلجأ إلى خيام أقرباء أو أصدقاء لها، كما يقوم الوهابيون بمرافقة النساء حتى يبلغن مرادهن خوفاً من أن يهاجمهن أحدٌ على الطريق.

اعتاد الوهابيون خلال حروبهم مع أعدائهم الهراطقة وخصوصاً أهل سوريا وبلاد ما بين النهرين ومصر، اعتادوا إبادة كل الذكور ولهذا يزرع اسم الوهابي الرعب في أنحاء الصحراء

العربية. وخلال حرب السنوات الأربع ضد محمد علي باشا، لم يذكر أنهم أبقوا على تركي واحد وقع أسيراً بين أيديهم. فعندما سقطت كربلاء والطائف، أبيد كل سكانها، لكن حارة العباسيّة لم تلاقِ المصير نفسه للاحترام الذي يكنّه سعود للخلفاء العباسيين. إن هذا الصيت القاسي ساعد الوهابيين على نشر دعوتهم الدينية بشكلٍ أسهل إذ خاف أعداؤهم أن يتعرضوا للذبح.

أحياناً، كان سعود يعطي الأمان لأعدائه إن استسلموا طائعين، ولهذا سمعت عن كثير من القبائل استسلمت بكلِ طواعية عارفةً أن سعود لا يتراجع عن وعد قطعه. إن الوفاء بالوعود ميزةٌ تميّز سعود وتجعله محطّ أنظار البدو من أصدقائه وأعدائه إذ يرون في هذا الأمر بديلاً من خداع الأتراك ومكرهم.

إن استسلم العرب المهدَّدون قبل أن يصل إليهم سيف سعود، يعطيهم عادةً «أمان الله» مع «الهالكة»، أي يستثني من الأمان الجياد والجمال والبنادق والرماح والسيوف التي تؤخذ غنائم للوهابيين، وتبقى بقية الممتلكات لأصحابها. أحياناً، يكون الأمان غير مشروط يطال الأرواح والمتاع والممتلكات. ويوجه سعود أوامره لقواده ليقبلوا فوراً أي استسلام وأن يحافظوا على وعد الأمان المقطوع.

حين يتوصل سعود إلى إخضاع قبيلةٍ ما، يأتي بمشايخها إلى الدرعية فيسكنهم فيها مع عائلاتهم ويمدهم بالمؤن كي يخف تأثيرهم في قبيلتهم، وينصب مكانهم مشايخ من العائلات المعادية لهؤلاء الخاضعين إذ يكون قادراً على الاعتماد عليهم والثقة بهم. ولهذا نجد أعداداً كبيرة من المشايخ في نجد والدرعية، غير سجناء بل عاجزين عن ترك المناطق التي أسكنهم فيها سعود.

حين سقطت المدينة في يد الوهابيين، رأى سعود أن من الأفضل الإبقاء على فرقة من الجند هناك، وهذا ما لم يفعله أبداً في أي منطقة أخضعها. لكنه أدرك أن أهل المدينة أعداء له ولمذهبه، ولهذا انتقى أفضل جنوده المسلحين بالبنادق ليبقوا في المدينة. وكان هؤلاء الجنود هم من اجتاحوا كربلاء، إذ جلبهم من نجد واليمن.

٤

غالب، شريف مكة، ووالي بغداد الباشا التركي يتحالفان ضد الوهابيين

سقوط مكة والمدينة بيد الوهابيين

بحثت كثيراً خلال مكوثي في الجزيرة العربية عن أية مخطوطة تؤرخ للوهابيين اختطها أحد مثقفي مكة أو المدينة، لكن جهودي ذهبت سدى. فلم يكن ثمة تسجيل للوقائع اليومية، والتواريخ تُنسى بعد حين. والعالمون بحوادث مناطقهم يجهلون ما يحصل في المناطق التي تبعد عنهم قليلاً. ولهذا، وجدت أن دراسةً عن الوهابيين لا تكتمل إلا برحلةٍ في كل أنحاء الجزيرة العربية. بغداد، لقربها من نجد مركز القوة الوهابية، هي المكان الأفضل لجمع المعلومات التي احتاجها.

يجب هنا أن أقدم بعض التفاصيل التي تتناول تاريخ هذا الشعب قبل أن يعود الأتراك إلى احتلال الحجاز، وهو حدث عايشته، ولهذا أستطيع أن أصفه بتفاصيله الدقيقة.

خلال ثلاثين عاماً، تمكن الوهابيون من نشر مبادئهم واحتلال نجد وإخضاع قبائل عربية متعددة ترعى قطعانها في نجد خلال الربيع لتعود بعدها إلى الصحراء. لكن الحرب لم تُعلن بعد، والوهابيون لم يتعدّوا بعد على حقوق سلطتي بغداد والحجاز المجاورتين من الشمال والجنوب. تمرّ قوافل الحجيج من دمشق وبغداد في مناطقهم دون أي اعتراض. أثارت قوة الوهابيين المتنامية وانتشار مذهبهم غيرة الشريف غالب وحفيظته، وكان هو متزعماً القبائل البدوية الحجازية. كما أن المحاولات التي بذلها عبد العزيز كي يستميل هذه القبائل في الحجاز إلى صفّه بعد أن أخضع قبائل نجد، لم يكن الشريف غالب ليهملها أبداً، فهو يفكر بعقلية الشيخ القبلي لا بعقلية الشرقي؛ فبدأت طبول الحرب تقرعٍ إذاً، أول مواجهة حصلت في العام ١٧٩٢ أو ١٧٩٣، واستمرت حتى سيطر غالب على مكة مدعوماً من قبائل البقوم في ترابة

وبني سالم في بيشة، وغامد في زهران، وبدو الطائف. حصلت هذه الحرب على الطريقة البدوية أي بشكل غزوات مفاجئة متبادلة لتحصيل المغانم دون وقوع الخسائر البشرية الكبيرة. كما أن غالب لم يترك فرصةً إلا وانتهزها ومراده إذكاء الخلاف بين الوهابيين والأتراك وحض هؤلاء على دحر عبد العزيز وأنصاره، فوصف المذهب الوهابي بالمذهب الكافر. استمع الباب العالي العثماني لهذه الشكوى بأذن صاغية خصوصاً وأن تقارير مماثلة وصلت إلى السلطة من جانب والي بغداد. ووالي بغداد هذا، كما الشريف غالب، مؤثر في بعض القبائل البدوية التي تجاوره، والتي كانت في حالة حرب مع الوهابيين بسبب حملات هؤلاء التي وصلت إلى ضفاف نهر الفرات، وإلى البصرة حيث ذبح هؤلاء المتعصبون اتباعاً لولاية بغداد. إلى كل ذلك، وصلت أخبار القوافل الفارسية إلى الحج، التي تقصد مكة من طريق الدرعية وبغداد، وما تعانيه من جور الوهابيين الذين يفرضون عليها الأتاوات الضخمة ليدعوها تمرّ بسلام.

لم يكن مركز انطلاق الجيوش نحو الدرعية أفضل من بغداد، وكان واليها في ذلك الوقت سليمان باشا المشهور بالجرأة والشجاعة. جهز الوالي جيشاً من ٥ آلاف مقاتل تركي وما يقارب العشرة آلاف بدوي من قبائل ضفير وبني شمّر ومنتفق. وسار هذا الجيش بمحاذاة الخليج الفارسي وعبر الصحراء على طريق الآبار، متوجهاً صوب الاحساء، أغنى مناطق السيطرة الوهابية إنتاجاً.

وبدلاً من الانتقال فوراً نحو الدرعية، حاصر الجيش التركي هذا حامية الاحساء إذ ظنوا أنها ساقطة في أيديهم دون مقاومة، لكن المقاومة العنيفة دامت شهراً ونيّف، واضطر جيش سليمان باشا إلى التراجع بسبب وصول الإمداد بقيادة سعود بن عبد العزيز. ضرب سعود وقواته الخيام بجانب البئر «تاج» على مبعدة ثلاثة أيام من الاحساء، بعد أن رمى في البئر الآخر ملحاً حمله معه من الدرعية، فأمسى غير صالح للشرب.

بقي الجيشان متقابلين لثلاثة أيام، إذ تعذّر على سعود مهاجمة الأتراك لأنهم رماة مهرةٌ وبنادقهم متطورة، وتعذّر على الأتراك وحلفائهم الهجوم لنقص مؤن الماء لديهم. وبعد ذلك، انعقد الصلح لستّة أعوام بين سعود والوهابيين من جهة، ووالي بغداد من جهة أخرى، فعاد كل جيش إلى دياره.

فشل هذه الحملة كان من الأسباب المباشرة لسقوط الأتراك في كل مكان إذ أدرك الوهابيون كيفية التعامل معهم. لم يطل السلام أبداً. فإحدى القوافل الفارسية التي يحميها الوهابيون تعرضت للإبادة الكاملة بين قبائل بدوية مناصرة لولاية بغداد بين الحلّة ومشهد، وتتالت هجمات الوهابيين على المناطق المحيطة بالبصرة، وقاموا بمذبحة في منطقة الإمام الحسين

عام ١٨٠١، فزرعوا الرعب في قلوب كل المسلمين، إذ صب الوهابيون جام غضبهم على ضريح حفيد الرسول. في هذه البلدة، ذبح الوهابيون خمسة آلاف رجل. وبقي من السكان العجائز والأطفال والنساء، كما أن حي حارة العباسية لم يُمسّ أبداً بفضل الاحترام الذي يكنّه القائد الوهابي للعباسيين. تعرضت قبّة ضريح الإمام الحسين للهدم والتدمير، لكن الكنوز التي كانت في المسجد، كانت قد نقلت سراً إلى بغداد. لقد دخل الوهابيون هذه القرية بعد أن وضعوا جذوع أشجار النخيل على حيطان الأسوار وتسلقوها. لم تستطع القبائل إبعاد الوهابيين إلا عندما تدخلت قبيلة الزبير القويّة وأهل مشهد علي. لكن الوهابيين اصطحبوا معهم الغنائم الكثيرة والثمينة.

بعد واقعة الإمام الحسين، مشى شيخ قبيلة المنتفق، ثويني، على رأس قبيلته إلى جانب قبائل ضفير وبني شمّر وبني كعب، بالإضافة إلى الجنود الأتراك، نحو نجد. لم تتوقف الجيوش في الاحساء بل استمرت فوراً إلى الدرعية ووصلت بئر الصبيحي، على مبعدة مسير يوم واحد من بئر الكويت الذي يقع على بعد مسير ٦ أيام من الدرعية. خلال مكوث هذه القوات هناك، قام عبدٌ من عبيد بني خالد الوهابيين بقتل الشيخ ثويني. تقدم سعود عندئذٍ وفرّ العسكر التركي. لكن جهلهم بالطرقات الصحراوية أدى إلى وقوعهم أسرى في أيدي رجال سعود وتعرضهم للذبح. حاول بعضهم العودة إلى بئر الصبيحي علّهم يحصلون على الماء آملين في أن لا يعرفهم أحدٌ أو أن يعاملوا معاملة الأسرى.. لكن سعود أمر بقتلهم كما هي العادة.

عرب نجد والصحراء الشمالية أرحم من العرب الآخرين، فهم آووا في خيامهم جنوداً من الأعداء وقدموا لهم الماء والطعام قبل أن يرشدوهم إلى الطريق عند الفجر. أما عرب الجنوب وخصوصاً عرب قحطان والعتيبة، فكانوا يقتلون كل جندي معادٍ يلتجىء إلى خيامهم. وروى لي شاهد عيان أن هؤلاء العرب كانوا يسمحون للجندي التركي بالماء ليروي عطشه قبل قتله. وأذكر هنا ثانية أن الوهابيين لا يعترفون بحق الدخيل لأي عدوٍ لهم بل يقتلونه إن كان مسلحاً ضدهم.

بدأ عبد العزيز عام ١٨٠١ هجومه على الحجاز والشريف غالب بتصميم وعزم. وغالب، خلال نضاله ضد الوهابيين لاقى النصر وتذوق طعم الهزيمة. فمرّة تمكن من اختراق نجد وبقي سنة كاملة في بلدة شعرا في منطقة القصيم. وفي مرّة أخرى، كاد يهلك لو لم يتمكن من الهرب من الحصار الوهابي ليلاً برفقة قلة من أتباعه نحو بيشة. خلال سنوات، تمكن الوهابيون من نشر دعوتهم بين قبائل الجبال إلى الجنوب من الطائف باتجاه اليمن، وعينوا أبو نقطة شيخاً على كل هذه القبائل المشهورة بقوتها. حتى العرب بجوار الطائف اضطروا إلى الخضوع

للوهابية عام ١٨٠١. عثمان المضايفة، نسيب الشريف غالب، كان معادياً لهذا الشريف. ولأنه يتميّز بكل ميزات القائد البدوي، فقد نصبه عبد العزيز قائداً على قبائل الطائف ومكّة والطريق إلى المدينة. لم ينثنِ غالب عن عزمه بل جمع فلول قواته وأعاد الهجوم على نجد دون أن تتحسّن حظوظه.

في العام ١٨٠٢، حاصر عثمان المضايفة الطائف، فلاقت هذه البلدة الصغيرة التي تلقب بجنة الحجاز وحيث يصطاف أغنياء مكّة، لاقت مصير بلدة الإمام الحسين بفارق بسيط هو أن عثمان المضايفة لم يوفّر الأبنية انتقاماً من الشريف، وأن قواته ذبحوا الجميع حتى الأطفال. وفي العام نفسه، احتل عثمان مرفأ غندفة على البحر الأحمر على بعد ٧ أيام جنوب جدّة وكان تابعاً للشريف غالب.

هذه الانتصارات قوت من هيبة الوهابيين، لكن قوافل الحجيج السورية والمصرية استمرت تصل إلى الحجاز برغم كل الجهود التي بذلها الشريف غالب من أجل أن يوقع الفتنة بين الباب العالي وعبد العزيز. قام الجزار والي عكا، أيام كان والياً على دمشق، بقيادة هذه القوافل أحياناً، ومثله فعل عبد الله والي عدن الذي التقى مراراً على جبل عرفات بعبد العزيز وتبادلا الهدايا. لكن الممارسات الخارجة على الإسلام التي كان يقوم بها هؤلاء الحجيج أزعجت الوهابيين وهم المنادون بالعودة إلى الأصول والى القرآن والسنة، فصدر القرار بإيقاف هذه الممارسات الشاذة والبدع. آخر قافلة حجاج سوريين وصلت مكة كانت عام ١٨٠٢.

في مناطق شمال الحجاز، هاجم الوهابيون قبيلة بني حرب وحاصروا المدينة. وفي العام ١٨٠٣، فتح الوهابيون كل الحجاز. فقد جمع سعود وعثمان المضايفة قواتهما في الطائف، واستوليا على قرية الحسينية بعد حروب طاحنة مع الشريف غالب. وقرية الحسينية هذه قريبة من مكة، وفيها بيوت اصطياف الأغنياء المكيين. وبعد ذلك، بدأ الهجوم على مكّة من كل جانب، وخصوصاً من الضاحية الشرقية التي تدعى المعابدة. في هذه الضاحية وقصر الشريف غالب الذي فيها، اخترق الوهابيون مكة، لكن غالب دافع مستميتاً عن مكانته وموقعه واضطر الوهابيين إلى التراجع.

قطع الوهابيون المؤن والماء عن مكة. وبعد حصار شهرين، خفت المؤن داخل مكة المحاصرة. كان للشريف غالب وجيشه مخازن تموين لكنهم لم يفتحوها للعامة، فاضطر هؤلاء إلى التسلل خارج الأسوار ليلاً ليأتوا ببعض العشب لجياد الشريف فيعطيهم بعض الذرة.

حين أشرفت المؤن على النفاد، فرّ الشريف غالب من مكة بصحبة عائلته وأتباعه، حاملاً متاعه ومشعلاً النار في قصره، تاركاً مكّة لمصيرها، وانتقل إلى جدّة. في اليوم التالي، دخل

سعود مكة. هذه الأحداث حصلت في نيسان/ابريل وأيار/مايو عام ١٨٠٣. ما يزال المكيون يذكرون أي معاملة حسنى عاملهم إياها الوهابيون حين فتحوا المدينة. ففي اليوم التالي، أمر سعود التجار بفتح متاجرهم ليشتري منها الجنود ما يحتاجون إليه. وأعلن سعود أنه كان قدر فتح مكة بالقوة لكن الرسول زاره في الحلم وهدده بأنه لن يعيش ثلاثة أيام إن صودرت حبّة ذرة بالقوة من المدينة المقدّسة.

تحول المكيون إلى الوهابية وانصاعوا لكل مبادئها وواجباتها. وانقطعوا عن ارتداء الحرير وتدخين التبغ. نصب سعود شقيق غالب، عبد المعين، على رأس السلطة في مكة، وابن نعمة من الدرعية قاضياً، وهو كان عادلاً يضرب به المثل. في هذا الوقت، توقفت الأدعية التي كانت ترفع في المساجد على نيّة السلطان العثماني.

بعد مكة، تحوّل سعود إلى جدّة حيث التجأ الشريف غالب، فحاصرها ١١ يوماً لكنه اضطر إلى التراجع عن أسوارها بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها أهلها. عاد غالب إلى مكة واستعاد زمام الأمور هناك بعد أن أخضع أخاه، لكنه أدرك عجزه عن الدفاع عن موقعه ثانيةً، استسلم لسعود، وصلتني تفاصيل هذه الحروب من مصادر متعددة إذ حدثت قبل سفري إلى الحجاز بإحدى عشر عاماً.

بعد استسلامه إلى سعود، تمتع غالب بالسلطة أكثر مما كان أيام الأتراك، فقد تركه سعود رئيساً للقرى والمدن التي رئسها من قبل، وعفاه ومكة كلها من دفع الضريبة. وكذلك أعفى غالب الوهابيين من الرسوم الجمركية في مرفأ جدة.

بعد سقوط مكة، انصاعت قبيلة بني حرب لسعود ودخلت المذهب الوهابي لكن إثر مواجهات دامية جداً أدت بالقائد الوهابي إلى معاملة هذه القبيلة معاملة قاسية. لكن عشيرة من قبيلة حرب هي عشيرة بني صبح اعتصمت بالجبال ورفضت الرضوخ والاستسلام.

أعلنت ينبع استسلامها للوهابيين حين تحوّل بنو حرب وقبيلة الجهيني إلى المذهب الوهابي، ومشت المدينة على خطاها في ربيع ١٨٠٤. رئيس المدينة، حسن القلعجي، كان اغتصب السلطة واقترف الخطيئة الكبرى إذ استولى على الكنز الموضوع في قبر النبي واقتسمه مع صحبه قبل أن يعلن استسلامه. فرض سعود الضريبة على المدينة لكن ممتلكاتها لم تسلب. اضطر القائد التركي، آغا الحرم، المعيّن من قبل السلطان إلى المغادرة مع الحجاج الأتراك، ونصب سعود مكانه الشيخ المضيّان الذي أمسى شيخ قبيلة بني حرب.

وفي المدينة كما في مكة، فرض الوهابيون التزام الجميع بمواعيد الصلاة، وقام أتباع سعود بإحصاء الذكور البالغين بعد كل صلاة في المسجد ليتحققوا من وجود الجميع. فمن يتخلف

عن الحضور يعاقب. وقيل لي إن سيدة محترمة كشفها الوهابيون تدخن الشيشة أركبوها ظهر الحمار وعلقوا الشيشة بعنقها وساقوها في أنحاء المدينة. أما حسن القلعجي فاحتفظ ببعض السلطة في ظل الوهابية واستمر يضايق السكان.

زار سعود المدينة وعرّى قبر محمّد من كل ثمين فيه (الذهب سُرِقَ قبل وصوله)، وأمر بهدم القبة التي كانت تجلله. كما منع وصول الحجاج الأتراك من ينبع إلى المدينة فعومل من حاول منهم المرور معاملة سيئة جداً، إذ قام الوهابيون بتقصير لحى الأتراك مبررين فعلتهم هذه بالقول إن محمّداً لم يكن يطيل لحيته أبداً. فعل الوهابيون هذا من تلقاء أنفسهم دون أوامر مُباشِرَة من قائدهم.

على كل حال، بقي الوهابيون يزورون المدينة لتكريم محمّد، فيدخلون مسجده هناك لكن لا يتوجهون نحو قبره المقام في أحد أركان المسجد مثل المسلمين الآخرين. بقي ضريح النبي بعيداً من كل أذى لكن سعود منع الصلوات والأدعية الموجهة إلى الضريح. خطأ واضح القول إن الوهابيين منعوا الحج إلى المدينة، فهذه المقولة ساقها الأتراك زوراً.

توقفت قوافل الحجيج الكبيرة قبل سقوط المدينة في قبضة الوهابيين. فالقوافل السورية التي قادها يوسف آغا لم تبلغ المدينة عام ١٨٠٣ واضطرت إلى التراجع دون أن تتعرض لتنكيل الوهابيين. أما القوافل المصرية فرأت ألا تنطلق من القاهرة أصلاً في ذلك العام إذ دخل بنو حرب والجهينة الوهابية؛ لكن المحمل وبعض الحجاج وصلوا جدّة من طريق البحر برفقة ٥٠٠ جندي قادهم شريف باشا الذي نصّبه الباب العالي حاكماً على جدّة. الحجاج الفرس انقطعوا عن الديار المقدسة منذ العام ١٨٠٢، وكذلك كان حال قوافل اليمن. وهكذا، توقفت قوافل الحجيج بعد العام ١٨٠٣. بقي المحمل في جدّة وتوفي شريف باشا عام ١٨٠٤ في الحجاز، وقيل إنه مات مسموماً بأوامر الشريف غالب.

شهد عبد العزيز سقوط مكّة لكنه لم يحيا ليرى سقوط المدينة، إذ قتله فارسي عام ١٨٠٣ ثأراً لأقرباء قتلهم الوهابيون، فخلفه ابنه سعود الذي فاق والده في ميزات القيادة الدينية للبدو. فقد شارك في المعارك منذ سنوات وإليه يرجع فضل فتح الحجاز.

دخل الوهابيون الشماليون المدينة لكن وهابيي الجنوب مُنِعوا من مدّ سيطرتهم العسكرية حيث يشاؤون. كان أبو نقطة شيخ عسير في حرب مع الشريف حمّود الذي كان آنذاك حاكماً للساحل اليمني من القنفذة جنوباً حتى بيت الفقيه، بعد أن احتل هذه المنطقة وخلعها من حكم إمام صنعاء. تحصّن حمود خلف أسوار بلدته وتقوّى بستماية مقاتل إلى جانبه فأصر على رفض الدخول في المذهب الوهابي.

وفي أواخر عام ١٨٠٤، نزل أبو نقطة وعربانه من الجبال وانتشر في الساحل مع وهابيّيه الكُثُر، فاضطر حمّود إلى الفرار. تعرضت بلدتا اللويحة والحديدة الغنيتان الواقعتان على الساحل للسلب والنهب لكن أبو نقطة لم يستطع البقاء طويلاً في هاتين البلدتين فعاد إلى الجبال مشرفاً على كل الساحل. عندئذٍ، أعلن حمّود دخوله في الوهابية.

برغم سقوط كل الحجاز، بقيت سطوة الشريف مؤثرة جداً. فكان له اسمه وموقعه ومواهبه في المراوغة وتأثيره على القبائل العربية المناوئة بعد لسعود. والهدايا التي كان يقدّمها للقائد الوهابي متى أتى للحج، من مؤن وثياب ثمينة له ولرجاله ولنسائه وأولاده بالإضافة إلى أثواب الموسلين الهندي ليستخدمه سعود وأتباعه في الإحرام. كل هذه الهدايا جعلت سعود يعامله معاملةً حسنةً.

في مكّة، كانت قوة غالب توازن قوة سعود، إلا أنه في جدّة، لا يجد غالب من ينازعه السلطة. فهناك، ثمة حامية مسلحة تسليحاً كثيفاً وجيداً، فلم يدخلها الوهابيون. لكن أهل جدّة لم يتركوا مناسبةً إلا وأعلنوا فيها وهابيتهم. في العام ١٨٠٥، حاول عثمان المضايفة الذي ما يزال معادياً للشريف غالب، حاول إسقاط جدّة في قبضته بالاستعانة بالقبائل دون تكليفٍ من القائد الوهابي، فاستولى على آبار البلدة، لكن أهل جدّة حملوا السلاح جميعاً وأفشلوا كل محاولات المضايفة.

استمر توافد الحجاج الأتراك من كل أنحاء السلطة العثمانية، برغم المضايقات التي تعرّضوا لها، فكانوا يصلون بحراً إلى جدّة ومنها ينتقلون إلى مكّة. لم يكن سعود أَمَر أبداً بقطع الطريق على هؤلاء الأتراك، لكن هؤلاء اضطروا إلى القيام بمناسك الحج وفق المنهج الوهابي. فمن فعل ذلك لم يلقَ سوى المعاملة الحسنة. في العام ١٨١٠، أخبرني حلبيّ أنه يحج كل سنة عن طريق القاهرة والقصير دون أن يتعرض لأي تنكيل. وكذلك كانت قوافل حجاج اليمن والهند وبلاد افريقيا السوداء تصل بحراً إلى جدّة حيث يترك الحجاج سلاحهم هناك قبل التوجه إلى مكة. فحمل السلاح في مكة مثار شكوك ومدعاة تنكيل. وهكذا، لم يتوقف الحج، ولو وثق السوريون والمصريون بكلام الوهابيين لما أوقفوا قوافلهم من الذهاب إلى مكة كما اعتادت، وكانت هذه القوافل عبرت الصحراء آمنة شرط أن تكون مجرّدة من السلاح.

استتب الأمن كاملاً في الحجاز. وبعد انفتاح المنطقة على الداخل الصحراوي، ووصول القلّة من الغرباء، كثرت المؤن وانخفضت أثمانها؛ لكن سكان المدينتين المقدستين خسروا أسباب معيشتهم الأساسية القائمة على اتصالهم التجاري بالتجار الآتين إلى الحج.

هكذا بقي الحال في الحجاز خلال الأعوام ١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٨. تناقصت قوة

الشريف غالب تدريجاً بينما انتشرت الوهابية لتصل إلى كل أرجاء الجزيرة العربية. خلال هذه السنوات الثلاث، قام سعود بحملات عديدة على بغداد والبصرة، فشلت إحداها حين واجهت قوةٌ وهابيةٌ صغيرةٌ في القرى المجاورة للبصرة مقاومةً ضخمة من بني كعب وقبيلة منتفق فتعرض ألفٌ وخمساية وهابي للذبح. «حرك»، أحد عبيد سعود، قاد حملات عسكرية عديدة في الصحراء السورية وزرع الرعب في نفوس بدو حلب وجوارها، كما وصلت هذه الهجمات حتى بغداد! إذ تعرضت القبائل الضاربة في جوارها للغزو والسلب. في الجنوب، استمر أبو نقطة يهدد اليمن. لكن صنعاء لم تتعرض لأي هجوم. كان سعود يدرك التنافس الحاصل بين الشريف حمود ـ حاكم الساحل، وأبو نقطة حاكم الجبال، ووعد كلاً منهما أن تكون له صنعاء إلا أنه لم يوجه أوامره بالهجوم عليها وهي المدينة الضعيفة التي لا تحتمل الضغط القوي. أظنه كان يريد صنعاء لنفسه.

خلال هذه السنوات، بقي الباب العالي صامتاً وكأن ما يحصل لا يعنيه في شيء. وكان سعود قد عادى الأتراك عداءً لا عودة عنه عندما منع توجيه الأدعية في صلاة الجمعة على نية السلطان العثماني. وأمل الشريف غالب أن يوسّع ذلك دائرة الخلاف بين الوهابيين والباب العالي. في هذه الأثناء، عيّن العثمانيون ضابطاً كبيراً يُدعى يوسف باشا ليقوم بحماية قوافل الحجاج الأتراك في الصحراء، لكن هذا صرف المال المرصود لهذا الأمر على نزواته، فما كان من القبائل السورية التي ترافق هذه القوافل عادة، إلا أن أحجمت عن القيام بتقديم التضحيات الجسيمة في هذه الرحلات الخطرة.

في العام ١٨٠٩، حضر يوسف باشا لهجوم على قرى الجوف الواقعة على الطريق بين دمشق ونجد، لكن هذا الهجوم التمويهي لم يحصل أبداً. وفي ذلك العام، أصيب الوهابيون بالخسارة الكبرى وهي دمار مينائهم الحصين على الخليج العربي، رأس الخيمة، بعد أن حولته إلى رمادِ الحملةُ الانكليزيةُ التي أُرسِلَت من الهند، بسبب قيام قبيلة الجواسم بأعمال قرصنة ضد تجار إنكليز في ذلك الخليج. هناك، لقي أحد أقرباء سعود حتفه.

وفي هذا العام أيضاً، اندلعت شرارة الحرب بين أبو نقطة والشريف حمّود بعد أن نزل أبو نقطة من جباله وحط الرحال في أبو عريش. فما كان من حمّود إلا أن اصطحب أربعين من مقاتليه الأشداء، بعد أن ارتدوا جميعاً الرداء الوهابي، وداروا خلف مخيم الأعداء ودخلوه دون أن يثيروا أي شكوك إذ ظنهم أتباع أبي نقطة بدواً حلفاء من الجبال. وما إن وصلوا خيمة أبي نقطة حتى زعقوا زعقات الحرب. قتل حمود أبا نقطة بيديه وهو يهم بالخروج من الخيمة، وتمكن من الفرار بفضل الفوضى التي عمّت.

أصدر سعود الأوامر إلى الشيخ تامي، من قبيلة رفيقه من عرب عسير، أن يخلف أبا نقطة. أذعن حمّود ثانيةً لأمر سعود لكنه لم يفِ بوعوده دائماً فيما يخص الضريبة.

في العام ١٨١٠، دب الذعر في نفوس السوريين عندما جرّد سعود حملةً من ٦ آلاف رجل وصلت إلى حوران ونهبت ٣٥ قريةً هناك دون أن يتمكن يوسف باشا من الدفاع عن مناطقه ودون أن يتمكن أحدٌ من إنذار قرى حوران بوصول الوهابيين. لكن سعود كان رحيماً هذه المرّة، فنجا الكثيرون من الفلاحين والمزراعين، برغم حرق بيوتهم وحقول الذرة كلها. وحمل رجاله امرأةً نصرانيةً لتكون خادمةً، فأطلقها سعود بعد أيام. كان سعود قادراً على إسقاط دمشق لو أدرك مدى الرعب الذي تملك من سكانها الذين بدأوا بإرسال ثمين ممتلكاتهم إلى جبال لبنان. لكن مخطط سعود كان إرهاق سوريا بالغزوات المفاجئة المتكررة كي تعلن دمشق الاستسلام من نفسها. ولذلك عاد أدراجه محمّلاً بالغنائم.

في العام نفسه، وصلت قوافل البدو المغربيين إلى مكة، فسمح لها سعود بالدخول إذ كان يقول إن المغاربة مسلمون متدينون. واستقبل قائد القوافل وهو ابن سلطان المغرب، فتبادلا الهدايا.

بينما لم يتوانَ باشا دمشق وباشا بغداد عن إظهار حقدهما على الوهابيين، بقيت مصر تتفرّج على مصير الحجاز.

في غضون ذلك، كانت مصر تتمزق بين أقطابها إذ كان كل بيك يعلن طاعته الكلامية للباشا الذي أرسله الباب العالي، لكنه يعمل في السر لمصلحته الخاصة. وبسبب هذا الأمر لم يحرّك الباشا جيشاً لإعادة نظام الحجاز ما عدا محاولةً بائسة قام بها شريف باشا من جدّة عام ١٨٠٤ ومراده إعادة المدينتين المقدستين إلى العهدة المصرية. كما أن المصريين السنّة بدأوا ييأسون من إمكانية تأديتهم لفريضة الحج بعد ذلك. كما أن الكل يعرف أن لا استعادة للحجاز إلا انطلاقاً من مصر. فالصحراء الشاسعة التي تفصل هذا الحجاز عن دمشق تجعل إمكانية تزويد أي حملة عسكرية بالمؤن مستحيلة، وخصوصاً أن الوهابيين سيلجأون فوراً إلى قطع كل خطوط الإمداد. فحملة كبيرة مزودة بالمؤن الكثيرة تصل مكة والمدينة بعد صعوبات وممكن حينها إسقاطهما. لكن كل الجنود الموجودين يعجزون عن المحافظة على المناطق المحتلة بوجه عدو فاعل قادر على التحرك بحرية ولا يعتمد على إمداد خارجي.

استحالة الانطلاق من دمشق بينت أن الجهود يجب توجيهها من مصر لتحرير الحجاز من الوهابيين. فالحجاز يعتمد على مصر في أساسيات الحياة، التي تُحمل إليه عبر ينبع وجدّة دون أن تكون عرضة لمشاق ومتاعب سفر يدوم ٣٠ أو ٤٠ يوماً من سوريا إلى مكة.

لم يرفض الوهابيون استقبال الحجاج من كل المناطق في مكة بل عرضوا تأمين مرورهم إن تصرفوا بحسب الإسلام وإن لم يعمدوا إلى الاستعلاء فهذه مناطق عربية لا تركية.

بعد سقوط مكة والمدينة في يد الوهابيين، ودخول شريف مكة في المذهب الوهابي ومعاداته للباب العالي، لم يكن ثمة تدبير يتخذ قبل تدبير إقفال مرافىء قصير والسويس بوجه كل إمدادات تصل الحجاز. هذا القرار لم يتخذ أيام المماليك إذ أن متنفذين منهم كانوا يستفيدون جداً من هذه التجارة. لكن قد يتساءل المرء لمَ لم يفعل محمد علي باشا ذلك منذ استولى على ميناء السويس عام ١٨٠٥ والقصير عام ١٨٠٨، وهو الذي وعد أتباعه بأنه سوف يخلص الحجاز من الوهابيين.

خلال كل هذه السنوات، وحتى بداية عام ١٨١٠، كانت السفن تصل قصير والسويس من ينبع وجدّة، لتعود محمّلة بالذرة والمؤُن لحساب الشريف. فلو توقفت هذه السفن والامدادات لسنة واحدة، لكانت المجاعة حصلت في الجزيرة العربية إذ لا مؤن هناك تكفي أكثر من شهرين واضطر حينها القائد الوهابي إلى التصالح مع حاكم مصر الموالي تماماً للسلطنة العثمانية، لأن المؤن اليمنية والنجدية لا توقف المجاعة.

برغم إمكانية الجيش الوهابي الحصول على مؤنه من داخل الصحراء، إلا أن هذه المجاعة المفترضة كانت أثرت على هؤلاء الأصوليين المتعصبين، خصوصاً أولئك الموجودين في مكة والمدينة.

ولكن الشريف نفسه سعى عند الوهابيين إلى إنهاء الوضع الذي يسبب الضيق لقومه لأن هذا الأمر يخفف المداخيل الناتجة من حركة التجارة مع مصر، استيراداً وتصديراً.

كان التبرير الذي قدمه محمّد علي لتجاهله هذا الأمر اعتباره عاراً أن يجوّع سكان الديار المقدسة والحرمين الشريفين. لكن من يعرف هذا الباشا معرفة شخصية يدرك أنه لا اعتبار لمثل هذا العار في نفسه أبداً، بالإضافة إلى أن تجّار السويس والقصير يدركون أن الأرباح التي يجنيها من هذه القناة التجارية كبيرة جداً. وأي توقف لهذه التجارة سيُضعف خزينته الخاصة. اتحدت كل أمم السلطنة العثمانية وطلبت بتوجيه الحملات العسكرية لتحرير الحرمين الشريفين من هؤلاء المرتدّين. لكن السفن بقيت تنقل المؤن من مصر إلى جدّة فالحجاز تغذي الأعداء في الوقت الذي كانت قوافل السلاح تصل السويس من القاهرة لتستخدم في الحملة ضد «محتلي الحجاز».

قد لا يصدق القارىء الأوروبي هذا التناقض في السلوك، لكن مكوثاً طويلاً في الشرق علمني أن لا خسارة تصيب الحاكم التركي تدفعه إلى اتخاذ قرارات ذات منفعة عامة. فهو لا

ينظر إلى أبعد من أنفه ويضحي بمصالح كل أمّته مقابل مصلحة شخصية له. لكن سرعان ما ينقلب عليه هذا الأمر فيسقط في شرّ أعماله.

٥

طوسون باشا، ابن محمد علي، يغزو الجزيرة العربية على رأس جيش تركي توماس كيت، الاسكوتلاندي، (إبراهيم آغا) قائد مماليك طوسون أحمد آغا الملقب بـ «بونابرت» الأتراك يحتلون المدينة. ومكة تستسلم لهم

حين نصب العثمانيون محمد علي باشا والياً على مصر عام ١٨٠٤ كانت أولى الأوامر التي تلقاها من الباب العالي استعادة الحرمين الشريفين، ووصله أن هذا الباب العالي سيكافئه بتنصيب أحد أولاده والياً على ولاية دمشق حالما يستعيد مكة والمدينة. أدرك محمد علي باشا أن استعادة الديار المقدسة سيرفعه فوق الولاة الأتراك الآخرين ويسبّبُ له شهرة واسعةً فيعجز الباب العالي حينها عن مقاومة رغباته.

في أول عهده، كان محمد علي باشا يحارب المماليك حتى حلّ عام ١٨١٠ حين تمكن من عقد صلح معهم ودعاهم لدخول القاهرة مسالمين وقام بعدها بذبحهم عن بكرة أبيهم في قلعة القاهرة.

في نهاية عام ١٨٠٩، بدأ محمد علي جدياً التحضير لحملته العسكرية على الحجاز. أدرك أنه يحتاج إلى أسطول بحري يمكنه من نقل الجنود والمؤن إلى جدّة. لو احتفظ بأي من السفن التي تنقل المؤن إلى الحجاز، لخافت السفن الأخرى وما اقتربت، وعندها انكشف مخططه. ولهذا، بادر إلى بناء أسطوله الخاص، وبحلول عام ١٨١١، انتهى بناء ٢٨ سفينة في السويس. بناها عمال أوروبيون وإغريق، بخشب استقدم من بولاق قرب القاهرة على ظهور الجمال. وهكذا بنيت المخازن التجارية في السويس لإمداد العاملين هناك ـ وأمر محمد علي بتقوية القلاع الواقعة على طريق الحج بين القاهرة وينبع (أجرود ونخل والعقبة ومويلح والوجه)، وزيادة

حاميتها المؤلفة من المقاتلين المغاربة العارفين كيف التعامل مع القبائل البدوية، وتخزين المؤن في غرفها ومخازنها، ذلك أنه يستحيل نقل الخيالة بحراً في السفن فعليها الانتقال إلى الحجاز براً.

في هذه الأثناء، بنيت مخازن المؤن في القصير لكن هذا المرفأ لم يكتسب أهميةً كبيرةً في الحرب كمخزن مؤن قريب من الحجاز، بل بقي مرفأ تجارياً تابعاً للقاهرة. وما إن وصلت هذه الأخبار إلى الشريف غالب، وأدرك أن إمكانيات محمد علي أكبر من إمكانيات أي والٍ عثماني آخر، فكر في الاتصال به سراً والتنسيق معه بعد إخباره بالضغوط التي اضطرته إلى التحول إلى الوهابية. وفي رسالته السرية إلى محمد علي، أضاف الكثير من المعلومات العسكرية حول قوى الوهابيين والقبائل وعن أفضل طرق الهجوم مؤكداً أنه سيخلع بعونه الوهابي عند ظهور أول جندي عثماني. فسرّب محمّد علي خطط الهجوم إلى سيّد تجار مكّة، السيّد محمد المحروقي، وأخبره عن كيفية الإفادة من بدو البحر الأحمر. كان محمد علي قليل الثقة بالشريف غالب لكنه قبل التعاون معه إذ رأى أي منفعة يمكن له أن يؤديها للقوات المهاجمة، ووعده أن يبقي جدّة في يده بعد أن يوسع مناطق نفوذه، وتحمّس الجنود الأتراك حين عرفوا سراً أن قوات الشريف غالب ستنضم إليهم حالما يصلون الحجاز.

لم يكن الوضع في مصر يسمح بغياب محمد علي باشا عنها خصوصاً بعد قيام المماليك بافتعال بعض الاضطرابات في مصر العليا، ولهذا عهد إلى ابنه الثاني، طوسون باشا، قيادة الحملة التي انطلقت بعد تأخيرات عديدة في آب ١٨١١. وكان طوسون هذا أظهر شجاعةً وحكمةً نادرتين في الحرب ضد المماليك. ولأن الشجاعة أمست نادرة في العثمانيين، فقد ذاع صيت هذا الباشا على لسان أصدقائه وقالوا أنه قادر على الدخول في أشرس المعارك. ورافقه أحمد باشا، خازندار محمد علي، ليكون له مستشاراً لذيوع صيته في الشجاعة وصواب الرأي، وخصوصاً في الحروب ضد المماليك، إذ نال لقب بونابارت فعرف به في كل مصر(*).

لا يمكن نكران شجاعة هذا الآغا وحكمته، لكن حبّه للخمرة والنساء حرمه كل قدراته الحربية والعقلية.

انضم المحروقي إلى هذين القائدين الذي ورد ذكره آنفاً، فتولى حقيبة المفاوضات الدبلوماسية مع البدو والشريف. رافق الحملة شيخان من علماء القاهرة هما الشيخ المهدي والشيخ الطهطاوي لاعتقادهما أنهما قادران أن يبينوا للوهابيين أين يخطئون. انقسمت الحملة إلى قسمين: المشاة بقيادة صالح آغا وعمر آغا مؤلفون من الأرناؤوط وعديدهم حوالى الألفين، انطلقوا من السويس إلى ينبع في السفن الجديدة. الخيالة بقيادة طوسون بك وأحمد آغا

(*) في حوزتي رسائل أصلية أرسلها إليه سعود ويتوجه إليه فيها باسم «أحمد آغا بونابارت».

بونابارت، ٨٠٠ فارس من الأتراك ومن البدو وبقيادة الشيخ شديد من الحويطات، انطلقوا براً.

سقطت ينبع في تشرين الأول/اكتوبر ١٨١١ بعد مقاومة هزيلة دامت يومين. وبعد أسبوع، وصل الخيالة دون أن يُلاقوا مقاومة من القبائل إذ تقاضت هذه مالاً كثيراً. بعد هذا الانتصار الأول، بقيت الحملة مستكينة، المشاة في الميناء والخيالة في ينبع النخل حيث مضارب عرب الجهينة على بعد ٦ ساعات من المرفأ. انقضى هذا الوقت في المفاوضات، ووجد طوسون بك الحجاز مختلفة تماماً عما أورده الشريف غالب في تقاريره. فبرغم الكره الذي يكنّه بنو حرب والجهينة للوهابيين، وبرغم المال الذي سيعود إليهم بعودة قوافل الحج التركية إلى مكّة، إلا أنهم كانوا مأخوذين بقوة سعود، وغير مستعدين للمشاركة في أي حرب ضده إلا حين يبدو النصر محققاً لهم. فسقوط ينبع ليس بذاك النصر المهم المتحكم بمجرى الحرب، برغم أهمية هذه المنطقة كميناء مهم لوصول الامدادات.

عندما وصلت الحملة التركية إلى ينبع، لم يكن فيها حامية وهابية؛ لكن كان يحرسها ١٠٠ جندي من جنود الشريف غالب. حاولوا إبداء بعض المقاومة لكن السكان أجبروهم على التراجع خوف تعرضهم لانتقام الأتراك القساة، وفضلوا الاستسلام.

وقف الشريف غالب متفرجاً، وأخذ يرسل الرسائل لطوسون بك يبرر عدم اشتراكِهِ في الحرب لقلّة قواه ولخوفه من الوهابيين، ويتعهد بفتح الحرب معهم ما إن يتقدم الجيش أكثر في الصحراء ـ وفي هذه الأثناء، زاد الشريف من تحصين جدّة ومكة. حين دعاه سعود لمساعدته في التصدي لطوسون، برر عدم إقدامه على ذلك بخوفه من إنزال عثماني في جدة، على مسافة قريبة من مكة، مما يهدد هذه المدينة المقدسة.

مما لا شك فيه أن الشريف غالب كان ينتظر المنتصر ليقف في صفه، أو ينتظر أن يضعف كل طرف الطرف الآخر فيخرجهما من مناطقه. البدو الذين انحازوا إلى طوسون كانوا بعض عرب الجهينة الذين يسكنون جوار ينبع، بينما بقيت القبائل الأخرى وخصوصاً بعض الجهينة وكل قبيلة حرب منيعة على ترغيبه.

أمسى ضرورياً بعد كل هذا استئناف الحملة، إذ سيفسّر أهل الحجاز والوهّابيّون هذا الانتظار ضعفاً. كما أن التوغل باتجاه مكّة سيُضطرّ الشريف إلى اتخاذ قراره بالانضمام إلى طرفٍ من الطرفين المتحاربين.

كان طوسون بيك كما الوهابيون، يخاف من قرار الشريف، فما كان منه إلا أن بدأ الحملة العسكرية الجديدة وهدفه المدينة، إذ أن إسقاط هذه المدينة المحصنة بالأسوار العالية سيفتح الطريق أمام قوافل سوريا، وسيدفع بعض البدو إلى الانضمام للجيش. كما أن الشريف غالب،

حالما عرف بالخطة، تعهد بالانضمام إلى جنود الترك عندما تسقط المدينة.

وفي كانون الثاني/يناير ١٨١٢، دخل طوسون بدر وهي بلدة صغيرة على مسافة مسير يومين من ينبع، حيث يستقر بنو حرب. وبعد بدر، اجتاح طوسون دون مقاومة بلدة صفرا التجارية التابعة لبني حرب أيضاً. هاتان البلدتان ضروريتان حكماً إذ هما على الطريق الذي يؤدي إلى الجبال قبل المدينة. وعلى مسافة ٤ ساعات من صفرا، تتحول الطريق إلى ممرّ جبلي حيث تقع قرية الجديدة، المستقر الرئيسي لبني حرب، والمنطقة التي كانت القوافل السورية تضطر فيه إلى دفع المال الكثير لتمنع عنها التنكيل.

ما إن وصل الجيش التركي إلى هذا المكان دون مقاومةٍ من القبائل البدوية، حتى وقعوا في فخ القوات الوهابية المتمركزة على الجبال يقودها ولدا سعود عبد الله وفيصل. لو كان هؤلاء الأتراك تحصنوا في قرية الجديدة لكانوا قدروا المقاومة والانسحاب، لكن المشاة الأتراك تراجعوا عندما رأوا ما يفوق العشرين ألفاً من الجنود الوهابيين يحاصرونهم، والخيالة المولجة حماية تراجع المشاة هربت. عندئذٍ، قام طوسون بك بما يؤكد شجاعته الفائقة إذ ذهب إلى مؤخرة قواته وخاض مع اثنين من فرسانه معركة ضروساً أوقفت تقدم أعدائه.

أخبرني بعض الجنود الذين حضروا هذه المعركة أن طوسون وقف دامع العين يصرخ بالأتراك أن يساندوه، فهب إليه منهم عشرون فارساً انقضّوا على الوهابيين الذين توقفوا عن القتال وانشغلوا بنهب متاع الأرناؤوط المشاة. وقدروا على حماية المشاة الآخرين. فلو لم ينشغلوا بهذا الأمر، لكانوا أبادوا الأتراك عن بكرة أبيهم. لكنّهم اكتفوا بما وقع تحت أيديهم من دروع وجمال ومتاع تركية وخصوصاً أن الأرناؤوط يحملون الكثير منها استولوا عليها من المماليك. مات في ذلك اليوم ١٢٠٠ جندياً. تراجع طوسون إلى بدر وأحرق المخيم هناك وانتقل مع من بقي حياً من جيشه إلى حيث تنتظره السفن في خليج البربكة وتوجه إلى ينبع وصلت بقية الجيش بعد أيام في فوضى عارمة. فقد أنقذهم الحظ أو ظن الوهابيون أن جيشاً تركياً كبيراً مرابط في بدر فلم يلحقوا بالفلول الهاربة. وهكذا وصل من قدر الوصول إلى ينبع.

حين أدرك الوهابيون تحصُّن أعدائهم في ينبع، أرسلوا الجنود إلى أسوار تلك البلدة. وما إن وصلت أخبار التقهقر التركي، حتى انضم الشريف غالب إلى الوهابيين شخصياً في بدر. لكن الوهابيين لم يهاجموا بل تراجعوا إلى داخل الصحراء ليستعدوا تماماً لصدّ أي هجوم جديد يقوم به الأتراك العثمانيون على المناطق الصحراوية المفتوحة، وتركوا قبيلة حرب لتحاصر الأتراك وتقطع عليهم خطوط الإمداد.

هنا، يحضُرُني خبرٌ يتناولُ واحداً من الفارسين اللذين صمدا مع طوسون ويُدعى إبراهيم

آغا. وكان هذا شاباً في العشرين من العمر، اسكوتلاندي الأصل من إدنبره يدعى طوماس كيث، وقع أسيراً إبان الحملة البريطانية على مصر واعتنق الإسلام. اشتراه أحمد آغا بونابارت من الجندي الذي أسره. لكن إبراهيم آغا هرب من حاشية بونابارت ودخل في حراسة حرم محمد علي التي أعجبت بشجاعته وحضّت ابنها طوسون بك على استخدامه ضمن قواته. لكن هذا، وفي ساعة غضب، أمر بإعدام إبراهيم آغا لتقصيره في تأدية واجباته. بقي إبراهيم الشجاع الباسل يقاوم من حضر لاعتقاله نصف ساعة وتمكن من رمي نفسه من نافذة غرفته والهرب إلى منزل والدة طوسون التي أصلحت بينه وبين سيّده. أعجب طوسون ببسالة هذا الجندي المقدام فقدّمه في خدمته وجعله مقدَّماً، بعد معركة الجديدة. حارب إبراهيم آغا بشجاعة منقطعة النظير في المدينة وترابة ـ سيأتي ذكر هذه المعارك لاحقاً ـ فعيّنه طوسون حاكماً على المدينة في نيسان ١٨١٥، وبعد شهرين، قاتل إلى جانب رجاله حين حاصرهم الجيش الوهابي، واستشهد معهم في إحدى مناطق القصيم، بعد أن قتل أربعة جنود وهابيين بيديه. حتى عبد الله بن سعود اعترف أن طوسون بك وخازنداره من أشجع رجال الجيش التركي.

أثرت الخسائر الفادحة التي نزلت بالأتراك على معنويات الجنود وصرّح صالح آغا وعمر آغا قائد المشاة أنهما عاجزان عن مواصلة الحرب في الحجاز. فأعادهما طوسون إلى مصر، لكن محمد علي باشا أبعدهما إلى الاسكندرية بعد أن حمّلهما المال.

أصابت الخسائر الكبيرة قوات طوسون فنفق الكثير من الجياد في الطريق إلى ينبع، وتخلى البدو عن الجنود في الصحراء. في الجديدة وحدها نفق ٢٠٠ جواد. إضافة إلى ذلك، اضطر الجنود إلى بيع جيادهم ليحصلوا على الطعام. أعيد الرجال إلى القاهرة، ليحصلوا على جياد جديدة.

ما إن بلغت أخبار الهزيمة القاهرة وبلاط محمد علي باشا حتى أمر بالإعداد لحملةٍ جديدة كي يعوض الخسارة التي لحقت بولده، وأرسل مالاً كثيراً ليوزعه ابنه على مشايخ القبائل المجاورة على أمل أن تتراجع عن دعمها للوهابيين. تقاطرت الامدادات إلى ينبع طوال ربيع وصيف عام ١٨١٢ مزودة بالمؤن والذخائر الكثيرة. وتمكن المحروقي أخيراً، بواسطة إغراء الذهب، أن يستميل جلّ بني حرب إلى صفّه وخصوصاً عشيرتي بني سالم وبني صبح اللتين احتلتا صفرا والجديدة. حتى الشريف غالب عاد إلى سيرته القديمة عندما علم نيّة محمد علي باشا استئناف الحملات، وأرسل إلى طوسون مؤكداً له أنه فعل ما فعل في بدر بدافع الخوف لا أكثر، مجدداً التعهد بفتح أبواب جدّة ومكة للجيش العثماني ما إن تسقط المدينة.

في تشرين الأول/اكتوبر ١٨١٢، وجد طوسون بيك نفسه قادراً عسكرياً وعملياً على تجديد الحملة إذ انضمت إليه القبائل المتمركزة على الطريق إلى المدينة، كما وصلته معلومات استخباراتية أن لا قوات وهابية في نجد. استقر بقيادته في بدر وسلّم أحمد بونابارت القيادة، وعَبَرَ الممرّ الذي لاقى فيه خسارته الماضية ووصل دون مقاومةٍ إلى أسوار المدينة.

كانت الحامية الوهابية في المدينة محصنة في القلعة وخلف الأسوار ومخزّنة المؤن تحضيراً لحصار طويل. أما القائد الوهابي فبقي في الحجاز مستكيناً، فقد مدّ سيطرته على قبائل الشمال بعد انتصار الجديدة. وفي العام ١٨١٢ بدأ يحمي الأموال التي يتقاضاها من الضرائب المفروضة على كل القبائل البدوية المجاورة لبغداد وحلب ودمشق. فبعد معركة الجديدة، باع الغنائم في مكة وعاد إلى الدرعية. أما الجنود الوهابيون فقد أسكرهم هذا النصر الصغير الذي حققوه وظنوا أنهم قادرون على دحر الأتراك في أي وقت. لا بد أن سعود ظن أن حامية المدينة ستصمد طويلاً فيضطر العثمانيون إلى التراجع، خصوصاً بعد أن يعود بنو حرب إلى مناصرتهم للمذهب الوهابي.

عند أوّل اصطدام مع وهابيي المدينة، تمكن أحمد بونابارت من اختراق ضاحية المدينة وسوق الوهابيين إلى القلعة، حيث انضم إليه سكان المدينة في حربه ضد أتباع سعود.

كانت القلعة والأسوار عاليةً، لكن بعد محاولات عديدةٍ قدر الأتراك على تلغيم أحد الجدران وتفجيره بينما كان الوهابيون منهمكين في تأدية صلاة الظهر، فدخل الأرناؤوط في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨١٢ إلى المدينة وذبحوا ألفاً من الوهابيين في الطرقات وقُتِل ٥٠ تركياً لا أكثر. وهكذا كان توماس كيث أو إبراهيم آغا أول الداخلين إلى المدينة. التجأ ٥٠٠ وهابي إلى القلعة المنيعة على الأتراك إذ لم يكن بحوزتهم سلاح المنجنيق، وكانت جدران القلعة صلبة لا تؤثر فيها المتفجرات. وبعد ثلاثة أسابيع، قلّت المؤونة داخل القلعة وتعبت حاميتها، استسلم الوهابيون بعد أن منحهم أحمد بونابارت الأمان ووعدهم بتأمين الجمال لهم كي يغادروا إلى نجد.

حين خرجت الحامية من القلعة لم تجد سوى ٥٠ جملاً من ٣٠٠ جمل طلبتها، فاضطر الرجال إلى ترك الكثير من متاعهم وحمل ما هو ثمين على ظهورهم. وما إن غادروا المدينة حتى لحق بهم الجند العثماني وقتل منهم العدد الكبير. كانت غالبية المقتولين تنتمي إلى عرب عسير الذين واجهوا وقاتلوا محمّد علي مقاومةً عنيفةً فيما بعد. وكان أحد قوادهم، صالح ابن صالح، محظوظاً في النجاة من المذبحة والعودة إلى وطنه بغداد. مسعود المضيان، الذي رفعه سعود إلى قيادة بني حرب والقبائل الأخرى، تحصّن مع عائلته وأتباعه في حصن غير بعيد من المدينة. وما

إن سقطت حتى طلب الأمان لنفسه وأتباعه وما يملكون، فقدّم له الأتراك منزلاً ينزل فيه بإحدى ضواحي المدينة. لكن عند سقوط القلعة وحصول المذبحة، هاجم الأتراك هذا البيت وقتلوا أولاد المضيان وأصحابه واقتادوه مغلولاً إلى ينبع. وعند مروره في بدر تمكن من الهرب واللجوء إلى الجبال حيث بعض بدو بني حرب الذين سلموه فيما بعد للأتراك مقابل المال. نقله الأتراك من ينبع إلى القاهرة ثم إلى الآستانة حيث فقد رأسه. كما لقي حسن القلعجي المصير نفسه بعد أن كان اغتصب منصب حاكم المدينة قبل دخول الوهابيين إليها.

لم يكن الخداع الذي مارسه الأتراك في المدينة حكيماً أبداً إذ كانوا يواجهون عدواً معروفاً بمصداقيته، وهذا ما أثار حفيظة القبائل البدوية ويقال إن أحمد بونابارت جمع جماجم القتلى وبنى بواسطتها برجاً عالياً على الطريق إلى ينبع، وأمر حارساً أن يقف بجانبه. لكن تمكن أهل المدينة والمسلمون من نسيان الأهوال التي واجهوها؛ وعندما وصلت المدينة عام ١٨١٥، قلّة من أهلها تذكروا ما حلّ بهم.

بعد المدينة، تقدم الأتراك بألف فارس وخمسماية راجل نحو مكة وجدّة، بقيادة مصطفى بيك صهر محمد علي باشا، المشهور كما أحمد بونابارت بالقسوة والبربرية ضد الثوار المصريين، فعندما كان حاكماً على الشرقية، أباد حيّاً كاملاً من البدو وحرق قرى عديدة، كما ذاع صيته لكثرة القتلى الذين أودى بهم القواس الذي بخدمته.

علم الشريف غالب بأمر الحملة العثمانية التي تقترب منه، فأرسل إلى مصطفى بك يعلن فتح جدّة ومكة. أدرك المضايفة في مكة أنه لن يستطيع بقواه الوهابية المتواضعة رد الغزو العثماني، فانسحب نحو الطائف قبل ساعات من دخول مصطفى بك في كانون الثاني/يناير ١٨١٣. احترم الأرناؤوط ملكية المكيين، وقلدوا الوهابيين في تصرفهم مع الناس. وانضم غالب إلى الأتراك مضيفاً إلى قواتهم أكثر من ألف عربي وعبد زنجي. بعد انقضاء أسبوع على تسليم مكة، وقع الهجوم على الطائف، ففر المضايفة ودخل الشريف غالب ومصطفى بك البلدة التي سيطر عليها الوهابيون عشرة أعوام، والتي عانت أكثر مما عانته أية بلدةٍ في الحجاز.

٦

وصول محمد علي باشا على رأس جيش من الأتراك إلى جدة ومكة قادماً من القاهرة فيلقي القبض على الشريف غالب ويسوقه أسيراً إلى القاهرة اجتماع قوات غالب في ترابة

اعتقد مصطفى بيك، مغروراً بما حققه من انتصار وثملاً بخمر الطائف، اعتقد أنه قادر على إخضاع الوهابيين وحده دون شريك. وكانت بلدة ترابة الواقعة إلى الشرق من الطائف، حصناً وهابياً يصل وهابيي نجد بأولئك المتمركزين في الجبال اليمنية. وفي ترابة كان ينزل عرب البقوم، يتحصنون خلف الأسوار وغابة النخيل التي تشكل خطاً دفاعياً طبيعياً. مشى مصطفى بك إلى ترابة لكنه عاد خائباً بعد أن فقد ٥٠٠ رجل. في هذه الأثناء كان عثمان المضايفة يضيق الخناق على حامية الطائف من طريق الهجمات المفاجئة على خطوط امدادها من مكّة، فما كان من الشريف غالب إلا أن رصد مكافأةً كبيرةً لمن يقبض على المضايفة، لكنه نسي، لفرط كرهه لنسيبه هذا، أن بدو مكّة يدركون أن خسارتهم هذا القائد تعني استقرار الأتراك بسهولة في هذه المناطق.

بعد إحدى هجماته، التجأ المضايفة إلى قلعة بيسيل التي بناها في الجبال، على مبعدة ٤ أو ٥ ساعات شرق الطائف. فما إن وصلت أخباره إلى الشريف غالب حتى مشى يقود فرسانه فيحاصر القلعة وأضرم فيها النار. خرج المضايفة وأعوانه وتمكنوا من فك الحصار واختراقه والهرب بثياب البدو، لكن جرحاً أصاب فرسه أعجزه عن الهرب بعيداً، فنزل عنها وركض فاراً من مطارديه. وفي اليوم التالي طلب حق الدخيل في إحدى خيام عرب العتيبة، فسلمه هؤلاء إلى الشريف وقبضوا المكافأة. نُقِلَ المضايفة إلى القاهرة ومنها إلى الآستانة حيث قدّمه أحد أبناء محمد علي للسلطان مع مفاتيح الديار المقدسة والهدايا الثمينة. أمر السلطان بقطع رأس المضايفة وهكذا فقد الوهابيون أقوى وأفعل حليف بدوي في الحجاز.

عادت الحجاز إلى السلطنة وتحررت الديار المقدسة واستأنفت قوافل الحج سيرها من القاهرة إلى مكة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٨١٢. لكن القوافل السورية كانت بعدُ ممنوعاً عليها المرور إذ أن القلاع التي على درب الحج مخازنها تحتاج إلى الترميم. عاد أحمد بونابارت إلى القاهرة، ونصّبَ طوسون بك والياً على جدّة، ووصل إلى مكة حاجّاً في شتاء ١٨١٢، تاركاً ديوان أفندي حاكماً على المدينة المنوّرة.

لم يؤدِ سقوط بعض الحجاز في يد الأتراك إلى انكسار قوة الوهابيين، فما تزال القبائل المتمركزة إلى الشرق من هذه الجبال المقابلة للبحر تعترف بسيادة سعود، وأدت الاشتباكات بين الأتراك وهذه القبائل إلى تكبد جيش محمد علي خسائر فادحة. بالإضافة إلى هذا، لم يكن سلوك الشريف غالب مطمئناً ولهذا وجد محمد علي باشا ضرورةً في القيام بزيارة خاصة إلى مسرح العمليات، زيارةً توجه ضربةً قويةً لأعدائه في الحجاز وتوطّد حكمه فيها. كان يجدر به أن يكون على رأس جيشه هناك، والآن، بعد أن خضعت مصر كلها، ما وجد مبرراً لقعوده وخصوصاً بعد تخلّصه من أحمد آغالاس، آخر المماليك الذين كانوا يشكلون الخطر على الحكم. غادر محمد على القاهرة وتركها بعهدة حسين بك، بعد أن قضى على فلول المماليك في مصر العليا، ومعه ابنه إبراهيم باشا الذي ولاه حكم هذه المنطقة. كان حسين بك ذا باع طويلة في الحرب، كما إبراهيم باشا في الإدارة العامة.

أبحر محمد علي من السويس يقود ألفين من المشاة، بينما مشى ألف فارسٍ من طريق البر للقيادة في جدّة، بينما طوسون باشا يجمّع قواته في مكة، وكان ذلك في أيلول/سبتمبر ١٨١٣. كان الشريف غالب في استقبال محمد علي حتى أنه صعد إلى السفينة ليلقي عليه التحيّة والسلام. وهناك، أقسما على القرآن على التحالف الدائم الذي لا يكسره شيء، لكن غالب نسي تماماً أن أي قسم مقدس لا يؤثر في قرار العثماني ولا يردّه عما في نفسِهِ أبداً. سوّى الباشا مع الشريف بعض المسائل الإدارية العالقة ووعده محمد عليّ ألا يتدخل الأتراك في شؤون جدّة ومكّة.

وصل محمد علي إلى مكّة، فخلع على علمائها ووزع المال والهدايا على فقرائها، وابتدأ يرمم الجامع الأكبر، ويصلح طرق الإمداد الواصلة إلى مكة والطائف من جدّة، بعد أن أصبحت هذه المدينة مخزناً كبيراً يحوي الكثير من المؤن والذخائر للجيش. كما أن مينائي جدّة وينبع شهدا حركةً تجاريةً لا بأس بها خصوصاً بعد اتفاق محمد علي وإمام مسقط على استئجار ٢٠ سفينة عُمانية خلال سنة واحدة.

أراد الباشا أن تنتقل فرقاطته، وهي البارجة الحربية الوحيدة التي يملكها، وترسو في

الاسكندرية، أرادها أن تدور حول رأس الرجاء الصالح لتدخل البحر الأحمر. لكن الانجليز لم يأذنوا لها إذ يعرفون أنها سفينة غير صالحة تماماً للملاحة كما أن بحارتها الأتراك لا خبرة لهم في فن الإبحار، ولذلك سوف يتحملون هم مسؤولية ضياعها. عرض انجليزي مقيم في مصر أن يرافق السفينة في أعالي البحار حتى القاهرة، لتنقل بعدها براً على نقالة عبر الصحراء إلى السويس. لكن من يستطيع إقناع الأتراك بهذا المخطط العجيب.

كان نقل المؤن من جدّة إلى مكّة أصعب من نقلها من مصر إلى جدّة؛ فغالبية الجمال التي تصل الحجاز كانت تنفق بعد قليل من وصولها، إذ أن كثرة القوافل أدت إلى تناقص العشب على الطريق وانعدامه، فلم يتبقَ طعامٌ للجمال. فمن ٨ آلاف جمل أرسلها محمد علي إلى الحجاز، لم يبق سوى ٥٠٠ جمل على قيد الحياة بعد ٣ أشهر من وصولها. كان العرب المتحالفون مع محمد علي يفتقدون الجمال إذ كانوايستقرون في المناطق الجبلية. وحتى عند امتلاكها رفضوا تقديمها للجيش التركي. وخلال الحرب لم يُجْمَعْ ٥٠٠ جمل حجازي شكل هذا الأمر مشكلة حقيقية للباشا وأعاقه في عملياته العسكرية. فهو كان يقدم القليل من المال ولهذا ما تقدم البدو بجمالهم لاستخدامها.

عند وصوله إلى مكّة، ضغط الباشا علي الشريف غالب ليضغط على القبائل البدويّة المجاورة فتؤمن له ما يحتاج إليه من الجمال، وسلّم إليه المال ليوزعه علي مشايخ القبائل. لكن ليس للشيخ أي سلطة على أفراد قبيلته فعجز عن الضغط على العرب، طُلِبَ المزيد من المال من الباشا لكنّ الجمال لم تصِل.

فترت العلاقات بين محمّد علي والشريف غالب الذي بدأ يتذمّر من عدم وفاء الباشا بوعده خيال إدارة جدّة. شرع الفريقان يتبادلان الإتهام. وما زاد من شكوك محمد علي تجاه غالب كون القبائل العربية المجاورة ترى فيه، بعد المضايفة، حاميها من الأتراك والوهابيين على السواء.

وصل مرسال السلطان إلى محمد علي يأذن له بالتعامل مع الشريف غالب بحسب ما تقتضي المصلحة العامّة. هذا ما أعلنه محمد علي بعد أن قبض على غالب واعتقله.

كانت عملية اعتقال الشريف غالب صعبة، إذ كان هذا يقود ١٥٠٠ جندي بالإضافة إلى غيرهم في الطائف وفي جدّة، وإلى القبائل العربية التي تفضل غالب على الباشا. في مكة، كان قصر الشريف حصيناً، على سفح هضبةٍ، متصلاً بقلعةٍ حصينةٍ أيضاً من طريق نفق تحت الأرض.

بنى أخوه الأكبر سرور هذا القصر وحصّنه هو حين سمع بنية محمّد علي غزو الحجاز، كما خزّن فيه المؤن والماء، وجعل فيه ٨٠٠ رجلٍ مسلحين بالبنادق وبدزّينة من المنجنيقات. تشرف

القلعة على مكة كلها التي ستتضرر جداً حين يحاول محمّد علي محاصرة الشريف وقلعته. بالإضافة إلى حامية القلعة، كان ثمة جنود آخرون من العبيد والمرتزقة والقبائل في مكة نفسها تساند الشريف. أدرك غالب فوراً أن محمد علي نوى عليه نية غير صافية أبداً.

مما لا شك فيه أن غالب لو هاجم محمد علي (ولا يتعدى عدد جنوده ١٢٠٠ جندي في مكة) مستعيناً بالقبائل، لكان أخرجه فعلاً من مكة. لكن مالا يمكن أن يُتَّهم به غالب هو نقضه لعهد وقسم، برغم أن الأتراك أشاعوا أنه يخطط لعمل ضد شخص محمّد علي.

أمسى غالب يزور منزل محمّد علي محمياً بمئات الجنود بعد أن كان يزوره راجلاً ثم توقف عن هذه الزيارات لا يبرح قصره إلا في أيام الجمعة لتأدية صلاة الجماعة في المسجد. حاول محمّد علي مراراً تعريته من حراسه وقام بزيارته مرّتين مع القليل القليل من الجند آملاً أن يُبادله غالب بزيارة مماثلة؛ حتى أنه خطط للإمساك به في المسجد إلا أنه عدل عن هذا الرأي بحسب مشورة القاضي الجديد الذي وصل من الآستانة، فالمسجد ملجأ مقدّس. وهذه رواية أنا واثق من صحتها. مضى أسبوعان على هذه المحاولات دون نجاح.

أخيراً، وضع محمد علي خطة للإيقاع بالشريف غالب دلّت فعلاً على دهائه. فهو دعا ولده طوسون إلى زيارة مكة متأخراً في الليل. وتقضي العادة أن يذهب الشريف للسلام عليه. وأي تبديل في هذا العرف هو بمثابة إعلان حرب، بحسب نظر الأتراك. في اليوم التالي، في الصباح الباكر، وصل غالب إلى حيث يقيم طوسون. لكنه لم يكن يعلم أن القصر يعج بالجنود في داخله خبأهم محمّد علي إذ أدرك أن الشريف لا بد آتٍ. حين وصل غالب، أرشده أهل القصر إلى الطابق الأعلى حيث يرقد طوسون تعباً، بينما بقي جنوده في الطابق السفلي. دخل غرفة الباشا فتحادثا قليلاً. وما إن وقف الشريف متأهباً للرحيل حتى أخبره عابدين بك، أحد قواد الأرناؤوط، أنه سيبقى أسيراً، وأن لا مقاومة تفيد، واضطره بالتعاون مع طوسون باشا ـ على وقع خطوات الأرناؤوط الذين دخلوا الغرفة ـ إلى الوقوف بالنافذة وتوجيه الأوامر إلى جنده ليعودوا إلى القلعة إذ هو سيبقى ضيفاً على طوسون باشا.

ما إن وصلت الأخبار إلى ولدي غالب، تحصنا في القلعة وتحضرا للدفاع. كان الشريف هادئاً وقال لطوسون بحضور ضباطه: «لو كنت خائناً لما وقع لي ما وقع». وحين أخبره أحدهم أنه سينقل لمواجهة السلطان أجاب: «قضيت عمري أحارب أعداء هذا السلطان ولا أخاف أبداً من الوقوف بحضرته». لم تكن المسألة انتهت طالما ولدا غالب متحصنان في القلعة، ولهذا أُجبِرَ غالب على نص أوامره لتسليم القلعة إلى محمد علي وجنده، فما فعل هذا إلا تحت تهديد السلاح وقطع رأسه.

في اليوم التالي، دخل الأتراك القلعة وتفرقت حاميتها بين القبائل البدوية، وعاد بعضها للالتحاق بالوهّابيين. وقام القاضي وأحد الضباط العثمانيين مع أحد أعوان الشريف بجرد مالهُ من أملاك، فقلبوا القلعة رأساً على عقب وقدروا ما فيها، وما في قصور الشريف في مكة، بمئتين وخمسين ألفاً من الجنيهات الاسترلينية.

بعد أيام من الاعتقال في مكة، نُقِل الشريف إلى جدّة، ومنها على ظهر سفينة إلى القصير فمصر العليا. حالفني الحظ في لقائه إذ كنت في جنّة حين وصل إلى مصر العليا في كانون الثاني ١٨١٤. لم تكن معنوياته منهارة بل تكلّم برأس مرفوع لكن دون أن يأتي على ذكر محمد علي أو ابنه. كان برفقته بعض المساعدين والخدم، إلى جانب ولديه اللذين انضما إليه طواعية في جدة.

ورأيت بين متاعه رقعةً للشطرنج وقيل لي أنه كان يصرف الأوقات لاعباً هذه اللعبة مع أحد مساعديه

في القاهرة، التقى غالب بنسائه اللواتي وصلن عن طريق السويس، ومعهن كل ما يملك في قصوره بمكّة، إذ تلقى محمّد علي الأمر بأن لا يقتطع منها شيئاً. توفي أحد ولديه في الاسكندرية، بينما لحق به الآخر إلى سالونيك، مقام الباب العالي. هناك، أنزله الباب العالي في بيتٍ يليق بمقامه حتى وافته المنية وعائلته بسبب الطاعون صيف عام ١٨١٦. وبقي له ولد صغير مع نساء عبيده ومع أختٍ له في مكة. عبد الله بن سرور، ابن أخ الشريف، وقع أسيراً في اليوم التالي على اعتقال الشريف، لكنه فرّ حتى أعادته قبيلة من قبائل السويس. وبسبب العداوة التي كانت قائمةً بينه وبين الشّريف، أمر الباب العالي العثماني أن يُطلق حرّاً.

كان الشريف غالب، خلال حكمه لمكة، شجاعاً في حروبه ضد الوهابيين وضد أقاربه الذين طالما قاتلوه؛ لكنه بالإضافة إلى صفات القيادة فيه، كان مكروهاً بسبب العقوبات والغرامات التي فرضها على الناس، وبسبب بخله الشديد. لا بدّ أن غالب كدّس خلال حكمه الكثير من المال إذ عاش بمصاريف قليلة. عند تفتيش قصر غالب في مكة، لم يكن فيه ما اعتقده الجميع من التحف الثمينة والمتاع الغالي، فسرت الظنون أنه خبأ ما يملكه في الهند وبومباي التي كان له معها تجارة. وقال محمد علي إن غالب كان ينوي الهرب إلى بومباي، لكن المؤن والسلاح التي كانت في القصر والقلعة هي دليل على نيته الدفاع عن نفسه ومكانته في المدينة المقدسة حتى الرمق الأخير.

بعد اعتقال غالب، خاف مشايخ القبائل الذين قدمهم غالب إلى محمد علي وفرّوا من مكة إلى ترابة حيث آبار الوهابيين، وكذلك فعل كل أصدقاء غالب وأفراد عائلات كل شريف

حكم مكّة، إذ ظنّوا أن محمد علي باشا ينوي القضاء على ذريتهم. بين هؤلاء كان الشريف راجح المشهور بجرأته وشجاعته وصواب رأيه وتحرره. استعان به محمد علي وقلّده قيادة بضع مئات من البدو. على أن يسعى هو إلى تجنيد الآخرين في خدمته. في اليوم الذي تمّ فيه اعتقال غالب، غادر راجح مكّة وأسرع إلى الدرعية حيث سعد سعود بانضمام هذا الرجل الموهوب إليه، فأعطاه المال ونصبه في منصب عثمان المضايفة، أمير الأمراء على بدو الحجاز.

أدى اعتقال غالب إلى ركودٍ في كلّ الأمور السياسيّة. فالمكر العثماني دفع حتى بألد أعداء الوهابيين إلى ترك الخندق التركي، فوجد محمد علي نفسه في حالةٍ صعبة. يقول العارفون ببواطن الأمور إنه كان يجدر به الانتظار قبل اعتقال الشريف حتى يأمن فعلاً تحالف المشايخ البدو معه، أو حتى يحصل ما يمنعهم من العودة إلى المخيم الوهابي، لكنّ الباشا خاف أن يسبقه غالب إلى الإيقاع به، وفي هذا الخوف كان محمد علي مخطئاً فعلاً. فلم يكن غالب في يوم من الأيام صديقاً للعثمانيين، لكنه كان أيضاً مناهضاً للوهابيين. كان مخططه يقضي انتظار ضعف الطرفين جراء الحرب ولم يفكر أبداً أن يقع فريسة دهاء ومكر الباشا الذي لم ينوِ يوماً الإيقاع به، بل كان مصراً على احترام العهد الذي بينهما.

نصّب محمّد علي أحد أقرباء غالب، يحيى، حاكماً على مكّة إذ عرفه وعرف أنه تعوزه الموهبة والشهرة وبهذا يكون دميةً في يده. وضع محمّد علي يده على عائدات مكة وجدّة. وصرف القليل من المال ليحيى، فأمسى هذا الأخير أقل شأناً من ضابط في جيش الباشا.

في هذه الأثناء، كان شغل محمد علي الشاغل تأمين المؤن من جدّة إلى مكة والطائف تحضيراً لضربةٍ جديدةٍ يوجهها إلى أعدائه الذين اطمأنوا إلى استكانته، وخصوصاً بعدما شهد تململ البدو من قواه العسكرية بعد أن رأوا غشّه ومكره. بين مناهضي الأتراك قرب مكة، كان أقواهم وألدّهم عداءً عرب البقوم الذين استوطنوا ترابة واستطاعوا سابقاً إلحاق الهزيمة بمصطفى بيك. كما أن الشريف راجح أقام قيادته هناك بعد أن انضم إليه علي المضايفة شقيق عثمان. وهكذا أمست ترابة نقطة لقاء وهابيي الجنوب كما كانت الدرعية لوهابيي الشمال.

٧

امرأة تقود عرب البقوم اتهمها الأتراك بالشعوذة وانهزموا في ترابة ـ محمد علي يحتل القنفذة ـ سخط الجنود الأتراك ـ موت سعود ـ عبد الله قائد الوهابيين

كان عرب البقوم رعاة ومزارعين ترأسهم أرملة تدعى «غالية» كان زوجها أحد أعيان ترابة. وكانت غالية أغنى من أية عائلة في الجوار، توزع المال والطعام للفقراء المستعدين لمحاربة الأتراك. وفتحت بيتها للقادة الوهابيين فكانوا يجتمعون في حضورها ويسألونها الرأي لما عرفت به من صواب وبُعد نظر. وهي قادت البقوم برغم وجود شيخ للقبيلة هو ابن خرسان. ذاع صيت غالية منذ أول انكسار لمصطفى بك في ترابة، وشاعت الروايات بين الجنود الأتراك عن كونها قائدة الوهابيين وأنّها مشعوذة فعلاً تحمي بقواها القواد الوهابيين مما يجعلهم أقوياء لا يُغلبون.

أثرت هذه الأخبار على أعصاب العثمانيين وقوّت معنويات البدو، فساهمت فعلاً في إفشال حملة طوسون باشا. اتخذ محمد علي القرار النهائي بقيادة الهجوم الثاني. توجه طوسون على رأس ألفي رجل من الطائف في بداية تشرين الثاني/نوفمبر ١٨١٣، ليُسقِطَ ترابة. كانت المناطق التي تفصل ترابة عن الطائف تحت سيطرة بني سعد والناصرة والعتيبة المعادين للأتراك. حين كان الشريف غالب في منصبه لم تكن هذه القبائل تعادي الباشا، حتى أنّ مشايخها كانوا يزورون مكة بين الحين والآخر. وعندما حلت المصيبة بغالب، هربت هذه القبائل إلى الجبال وأخذت تنفّذ الغزوات ضد الطائف وضدّ القوات التركية، بعد أن غضبت لخيانة الباشا.

خرج طوسون من الطائف وبحوزته مؤونة تكفيه لشهرٍ كاملٍ إذ لم يكن يعتقد أن هذه الحرب ستدوم أكثر. وقبل ترابة، طارد فلول قبيلة العتيبة في الجبال وأخضع بعض عشائرها. وحين وصل ترابة، لم يكن بحوزته سوى مؤونة ٣ أيام بعدُ. بدأ الهجوم العثماني لكن البقوم بقيادة غالية أظهروا صلابة منقطعة النظير، ردّت الأتراك على أعقابهم مهزومين بعد يومين من

القتال العنيف في ظل الجوع الذي خيّم بسبب الشح الذي أصاب المؤن والماء. فأمر طوسون قواته بالتراجع إلى الطائف. أدرك البدو الحالة المزرية التي وجد الأتراك أنفسهم فيها، فخرجوا من خلف الأسوار وهاجموا جنود طوسون وأجبروا من نجا منهم على الهرب لينجوا بأرواحهم مخلفين وراءهم الخيام والبندقيات والمتاع والمؤن الباقية.

في هذا القتال، سطع نجم توماس كيث، الذي ذكرته آنفاً، فقد تناول بندقيةً وكان رامياً ماهراً فسح المجال للكثير من قواته كي يتراجعوا تراجعاً منظماً، وإلا أبيدت الفرقة التركية بأكملها. في هذا الانسحاب، خسر طوسون أكثر من ٧٠٠ مقاتل، مات بعضهم جوعاً وعطشاً. نجا من هذه المذبحة مئة فارس كانوا برفقة طوسون، لكن المشاة، لم يكن لهم أي حظٍ أبداً في التغلب على أولاد الصحراء العارفين بممراتها والقادرين على احتمال قسوتها.

بعد أربعة أيام مرّة، وصل طوسون إلى الطائف مع بقايا الجنود. قد تردّ هزيمته أصلاً إلى حاجة المصريين والأتراك إلى المزيد من الجمال لنقل الرجال والمؤن إلى ساحات القتال. أدرك محمد علي أن أفضل منطلق للحرب ضد أعدائه هو الطائف لا غيرها، ولهذا بادر إلى إعادة تحصينها وتخزين المؤن فيها.

عاد الوهابيون إلى ترابة بعد مطاردةٍ لفلول الأتراك والمصريين دامت أياماً، وتابعوا غزواتهم التي تضيّق الخناق على قوافل الباشا. أدت هذه الهجمات إلى مرافقة مئات الجنود لهذه القوافل فنتج عن ذلك استهلاك أكثرِ المؤن على الطريق قبل وصولها إلى هدفها. صرف محمد علي غالبية أيامه في جدّة وفي مكّة.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٨١٣، تقاطرت قوافل الحجاج من مصر ومن سوريا ومن آسيا الصغرى. ولكي تمر القوافل السورية، اضطرت إلى دفع مالٍ للقبائل التي على الطريق يساوي ما كانت تدفعه في عشرة أعوام هي التي انقضت دون حج. أما قوافل آسيا الصغرى فكانت تصل مكة عبر جدّة من السويس. عادت الحياة إلى مكة والأمل إلى تجارها بعد عشرة أعوام من الانقطاع التجاري مع الحجيج. وصلت آلاف من الجمال إلى محمد علي، وآلاف من الخيول إلى مصطفى بيك عوضاً عن تلك التي فقدها في الحروب. خلال شتاء ١٨١٣ وبداية عام ١٨١٤، بقيت القوات التركية دون حراك.

لقد فشلت كل الحملات على الحجاز إلا تلك التي أسقطت المدينة المنورة، فرأى الباشا ضرورةً إلى تغيير الخطط الحربية ابتغاء الحصول على نصرٍ يشجع الجنود ويرفع من معنوياتهم المنهارة، كما يحوّل أنظار الوهابيين عن هدف الهجوم الأساسي.

تحضرت قوة بحرية من ١٥٠٠ جنديّ راجل ومؤنهم وذخائرهم في جدة بقيادة حسين آغا

وصايم أوغلو. توجهت السفن نحو القنفذة، وهو ميناء على بعد ٧ أيام من جدّة، وكان من مناطق نفوذ الشريف غالب، لكنه كان خلال السنوات الخمس الماضية في عهدة طامي شيخ عسير، القبيلة الجبلية الأقوى في جنوب مكة والمناصرة بحماسة للوهابيين. كان موقع القنفذة مهماً خصوصاً في توجيه أي هجوم ضد الجبليين الذين يضايقون حامية الطائف، كما أن هذا الميناء سهلّ تزويده بالمؤن والسلاح ليكون منطلقاً نحو اليمن الذي يتطلّع محمد علي إلى غزوه والحصول على كنوزه. لم يكن طامي قد وضع في القنفذة سوى حامية صغيرة، فاحتلها جيش محمد علي دون إراقة دماء إذ هرب أهلها؛ وكان ذلك في آذار/مارس ١٨١٤. وما إن ذاع هذا الخبر، غادر الفرسان الأتراك إلى جدّة تاركين الحصون في القنفذة للأرناؤوط، وبعد أن عهدوا إليهم التمركز بجانب آبار المياه، ولم يكن هدفهم حمايتها بل منع العرب من إيراد مواشيهم. بعد شهر من استقرار الأتراك في القنفذة، فاجأهم طامي في بداية أيار/مايو على رأس جيش يقارب عديده العشرة آلاف رجل من الوهابيين. دافع بعض الأرناؤوط عن مواقعهم بينما فر الآخرون لينشروا أخبار الهجوم. وبدلاً من التحصّن في الحصون المنيعة، أمر القواد الأتراك والمصريون قواتهم بالتراجع إلى السفن، بينما دخل الوهابيون المدينة وقتلوا الجنود الأتراك الذين عجزوا عن الصعود إلى السفن وهم لا يجيدون السباحة أصلاً. تعرّض معظمهم للذبح في الماء بعد أن سبح الوهابيون خلفهم حتى القائد خاف على حياته في سفينته فأمر بالإبحار تاركاً جنوده في الماء ليلاقوا حتفهم ذبحاً أو غرقاً.

وقع الوهابيون على مقدار هائل من الغنائم في القنفذة إذ فرّ الأتراك تاركين خلفهم كل متاعهم إلا الثياب التي يلبسونها أثمن ما غنموه كان ٤٠٠ جواد وعدد مساو له من الجمال. وفي البحر إلى جدّة، لقي الكثير من الجنود حتفهم بسبب الجوع والعطش. ويقال إن صايم أوغلو كان يغسل يديه يومياً بالماء العذب بينما رجاله يموتون عطشاً. وحين وصلت السفن إلى جدّة، نُصّبَ أوغلوا هذا حاكماً عليها. تمكن بعض الجنود الذين نجوا في القنفذة من الفرار والوصول إلى مكة حيث كرمهم محمد علي وألحقهم بقطع أخرى في الجيش بعد أن أقسموا ألا يقاتلوا بأمرة صايم أوغلو على الاطلاق.

في أوان الهجوم على القنفذة، انتقل محمد علي باشا إلى الطائف بسبب المناخ الصحي الذي تتميز به، وليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية، وليكون على مقربة من القبائل البدوية التي يريد فعلاً أن يقيم معها علاقات الصداقة.

وفي حزيران/يونيو ١٨١٤، وصلت من القاهرة فرقة من ١٥٠٠ جندي من الأرناؤوط بقيادة حسن باشا المقرب من محمد علي، وهي الفرقة الأقوى في الجيش المصري العثماني.

وكان حسن هذا وأخوه عابدين بك الذي ورد ذكره، قد تمكنا من إخضاع مصر العليا وشاركا محمد علي في إعداد وتنفيذ مجزرة المماليك في القاهرة. كمابيّن حسن باشا عن حكمة ودراية حربيتين إبان ثورةٍ قامت في مصر ومحمد علي في الحجاز. فقد سرت شائعة تفيد أن محمد علي لاقى حتفه في الحجاز. وكان لطيف باشا في إسطمبول يقدم مفاتيح الديار المقدسة إلى السلطان، فظن الناس أنه ينوي خلافة محمد علي، وأنه تلقى فرماناً من الباب العالي بهذا الشأن. فلم يكن من حسن باشا إلا أن حاصر قصر لطيف باشا بعد عودته، وقبض عليه وأخرجه بثياب فلاحٍ وقطع رأسه معيداً الاستقرار إلى الولاية.

ما إن وصل حسن باشا إلى الحجاز حتى أرسله محمد علي ليستقر بقيادته في قولاش، وهي قرية على بعد ٨ ساعات من الطائف شرقاً، على الطريق إلى ترابة، في سهل بين الجبال. وكانت هذه القرية مهمّة من الناحية العسكرية بفضل آبارها العديدة، وحصونها. أما طوسون باشا فبقي في مكة بعد أن أثار سخط والده لعجزه عن الاستيلاء على ترابة.

في هذه الأثناء، وصلتُ أنا من سواقين إلى جدّة، فلاحظت الخوف والسخط مخيماً على الجنود الأتراك إذ أن الهزائم المتلاحقة والموت الذي لم يفوّت حياة أي أسير زرعا الخوف من كل وهابي بين جنود الباشا. كما أن الأجر الذي يتقاضاه الجندي في مصر بالكاد ينجيه من الموت جوعاً في الحجاز. فقد ارتفعت الأسعار في الطائف والمدينة كما في جدة ومكة. كما أن أجور الجنود تدفع بالعملة المصرية وهكذا يخسر الجنود ثلث أجورهم في عملية التبديل. وعرفت عن جنود مصريين اضطروا إلى بيع بنادقهم وثيابهم ليشتروا خبزاً لكن ذلك لم يؤثر في نفس محمّد علي وبقي على سياسته لا يبدّلها. جنود آخرون أبحروا من جدة وينبع إلى القاهرة لكن الباشا أوقف هذا الفرار من طريق فرض العقوبات القاسية على الفارين من الجيش، لأن كل الجنود في الجيش التركي متطوعون ولهذا يستطيعون ترك الجيش متى أرادوا. لكن الجنود في الحجاز عوملوا معاملة السجناء. ومن حاول الهرب من جدّة على ظهر إحدى السفن وأمسك به الآخرون، جُرّ مغلولاً إلى مكة. وأنا رأيت بأم العين ٣٠ جندياً مغلولين يمشون من جدة إلى مكّة.. لن ينسى هؤلاء العثمانيون هذه المعاملة القاسية أبداً.

يضاف إلى كل هذا المناخ الحار والماء القذر اللذان منعا ربع الجنود من تأدية مهامهم بشكل جيد بسبب الأمراض التي انتشرت بينهم. لم يكن ثمة ما يدفع الجنود إلى البقاء متماسكين سوى المال، لكن الرواتب بقيت قليلة إضافة إلى قيام الضبّاط باقتطاع بعض المال من رواتب الرجال دون أن يقدر هؤلاء على التذمّر أبداً.

كان محمد علي الوحيد الذي يأمل في تحقيق أي انتصار لأنه مدرك أن سقوطه وخروجه

من مصر محتم إن لم يحقق نصراً مهماً في الحجاز. منذ وصل إلى الطائف حاول إقامة الحوار البنّاء مع القبائل البدوية، ونجح نجاحاً جزئياً بفضل المال والصبر. في آب/أغسطس ١٨١٤،دخلت قبائل هذيل وثقيف وبني سعد وبعض العتيبة في تحالف معه، فحضر مشايخها إلى مواقع قيادة محمد علي وانضم ٥٠٠ من المقاتلين البدو إلى جيشه، مقابل أن يدفع لهم ضعفي ما يدفع راتباً للجندي المصري. خلال وجودي في الطائف في آب/اغسطس ١٨١٤، كان قواد البدو يصلون يومياً إلى القيادة العثمانية فيحصلون على الثياب والمال. كما كان بعضهم يصل فينال المال ليعود بعدها إلى مضاربه ويخبر الوهابيين بما رأى، وسمع في الطائف. أمل محمد علي في استجلاب كل البدو ولهذا كان يلاطف الجميع ويستمع إليهم ويُحادثهم ويغدق عليهم الهدايا، وهذا غير عادي في عثمانيّ بمنزلة محمد علي باشا.

كان البدو يخاطبونه دون ألقاب أو تعظيم وينادونه باسمه محمّد علي. وفي مرّة دخل عليه بدوي من عتيبة وقبّل لحيته وقال له: «تركت دين الإسلام ودخلت في دين الخوارج، دخلت دين محمد علي». تعالى الضحك في الفسطاط وأجاب الباشا: «عسى تبقى في دين الخوارج».

لكن الباشا وأعوانه كانوا يجهلون تاريخ ومنطق وقوة ومصالح القبائل، كما يجهلون مناطقها، ولهذا لم يضع البدو كل ثقتهم في حليفهم الجديد. هذا لم يمنع الباشا من اكتساب الأصدقاء الجدد بفضل المال الذي وزّعه يميناً ويساراً والكل يعلم أنهم ليسوا أصدقاء أبداً بل هم يستفيدون من الكرم الذي يبديه هذا الباشا لا أكثر. حتى الشريف راجح الذي انحاز إلى الوهابيين أرسل الرسل يطلب إصلاح ذات البين مع الباشا العثماني قائلاً إنه فرّ إلى الوهابيين مخافة أن يلاقي مصير قريبه غالب ورأى من خلال تصرفات محمّد علي أنه كاره فقط لغالب، فاطمأن. وفي أيلول/سبتمبر، حضر راجح إلى الطائف فاستقبله محمّد علي استقبالاً رائعاً وأعاده إلى قيادة الجنود البدو.

بالإضافة إلى اللطف والصداقة اللذين خيما على علاقة محمد علي بالقبائل، قام هذا الباشا بكل ما في وسعه ليكسب ثقة سكان الحجاز. فأمر بوقف الضرائب التي كان الشريف يفرضها. وخفض الرسوم الجمركية في جدّة وخصوصاً على القهوة (البن)، ووزع المال على العائلات الفقيرة مع حصص من الذرة، وصرف الهبات للمساجد والمدارس. كما رمّم الحرمين الشريفين وقام طوال مدة مكوثه في مكة بممارسة الطقوس الإسلامية وهو الذي كان يجاهر في القاهرة بميوله الإلحادية. وُجِّهَت الأوامر إلى الجنود العثمانيين وتقضي بالتوقف عن التلفظ بالكلام البذيء والمهين للسكان، ومنعهم من مصادرة الممتلكات أو أي بضائع من المتاجر دون دفع ثمنها. وبفضل كل هذه المقررات، خفت التذمر من الجيش الغازي الغريب، وأمسى الناس

يتغنون بعدل محمد علي باشا وكرمه، وهو المكروه في مصر حتى الموت.

في أيار/مايو ١٨١٤، توفي سعود بسبب الحمّى التي تصيب أهل نجد دائماً. وهكذا خسر الوهابيون قائداً لا يتعب ومتمكناً من كل صفات القيادة السياسية والعسكرية. كان آخر كلام قاله موجهاً إلى ابنه عبد الله يحضّه على عدم المجابهة مع الأتراك في السهول المفتوحة. وهذه نصيحة لو تبعها الوهابيون لكانوا استعادوا الحجاز. ورث عبد الله مقام أبيه بعد مشادات وصدامات قليلة مع عمّه عبد الله الذي أعلن حقّه في ثروة أخيه سعود. كان عبد الله ـ الابن مقاتلاً شجاعاً وقائداً عسكرياً يفوق والده حكمةً، لكنه كان قليل الدراية بأمور القبائل التي يقودها، إذ كانت هذه القبائل تتوق إلى الحريّة. أدى هذا إلى تهديد الوحدة. فما عاد الوهابيون في الجنوب يجدون الدعم من القبائل الشمالية بعد أن كانت خيالتها تساعدهم. حتى شيوخ القبائل الجنوبية كانوا على خلاف في ما بينهم. وهكذا وجد الباشا نفسه بمواجهة قبائل مستوحدة متفرقة لا متوحدة، فصبّ هذا الخلل في صالح الأتراك.

٨

انتشار القوات التركية في الحجاز ـ مجازر في بحرا
محمد علي يرسل ابنه طوسون إلى المدينة.
الوهابيون يهزمون الأتراك في الظهران.
محمد علي يمشي من مكة إلى بيسيل،
الهزيمة الوهابية في بيسيل

في أيلول/سبتمبر عام ١٨١٤، كان انتشار القوات العثمانية على الشكل التالي:

- ٢٠٠ رجلٍ بقيادة إبراهيم آغا المهردار في مكة إلى جانب ١٥٠ بدوياً تحت أمرة الشريف يحيى.
- ٢٠٠ أو ٣٠٠ رجل في المدينة يقودهم ديوان أفندي.
- مئة جندي هم حامية ينبع.
- ٢٠٠ جندي في جدة.
- ٣٥٠ مقاتلاً مع طوسون باشا بين ينبع وجدة.
- ٣٠٠ جندي وفارس مع محمد علي باشا في الطائف. الأرناؤوط و٤٠٠ خيال وصلوا من القاهرة بأمرة عابدين بك تمركزوا في المواقع المتقدمة إلى الجنوب من الطائف قريباً من مواقع بين ناصرة ومنطقة الظهران حيث الشيخ بخروج وقبيلته عرب الغامد مناهضون للأتراك، ومتمركزون في أرضٍ خصبةٍ غنية بالذرة والشعير مما يجعلهم مستقلين عن مخازن الطائف.

قد تبدو هذه القوات للقارىء هزيلة جداً، وبرأيي أنها أرقام مبالغٌ فيها. حتى أن التقارير الواردة من الباشا نفسه تقول إنه يقود جيشاً من ٢٠ ألف جندي، لكن هذا الاحصاء على الأرجح يشمل التجار والحجاج الأتراك الذين يرتدون زي الجنود وساسة الجمال والخدم الذين يرافقون الجيش. حتى الوهابيون لم يعرفوا عدد الجنود الأتراك ولم يقدروا جيداً قوة أعدائهم.

كانت الإمدادات تصل يومياً إلى ميناء جدة لكن هذه كانت للتعويض عن الخسائر أيام الحرب وعن موتى الأمراض. لم يكن في مصر كلها أكثر من ثمانية آلاف جندي، في جهة هناك خمسة آلاف في الحجاز، إذ لم يكن باستطاعة محمد علي إفراغ مصر كلياً من الجنود فهو يعرف مطامع الآستانة والمماليك والانجليز في بلاده.

حين وصلت أخبار الحجاز وأهواله إلى المناطق التي تمدّ الجيش العثماني بالرجال كألبانيا وروميلي وآسيا الصغرى، رفض الشبان الالتحاق بالجيش هناك هرباً من الخدمة في الصحراء العربية. سمعت الباشا يقول بنفسه في الطائف إن جيشه مؤلف من ٣٥ ألف رجل، عشرون ألفاً في الحجاز والباقون في مصر، فاعتبر كل الموجودين أن هذا التصريح صحيح.

أما حماية الديار المقدسة والمناطق التي تجاورها فلا تتطلب أكثر من خمسة آلاف جندي بالإضافة إلى ٤٠٠ بدوي من القبائل المختلفة. لكن هذا الجيش كان عاجزاً عن قهر الوهابيين وإنهاء نفوذهم وبدا أن محمد علي غادر القاهرة بعد أن وعد السلطان العثماني أنه سيقمع الوهابيين ويكسر شوكتهم. كان الأتراك يعانون من نقصٍ حادٍ في الجمال، فالجمال النافقة كانت تغطي الطريق بين جدة والطائف وهذا ما دفع بالجنود إلى إرسال العبيد للتفتيش عن الأعشاب اليابسة يغطون بها هذه الجمال ويضرمون فيها النار للتخلّص من الرائحة التي تنبعث منها وخصوصاً في منطقة المعبدة التي تتوقف فيها القوافل المارة بين جدة والطائف. في إحصاء أولي، نفق ٣٠ ألف جمل من جمال الجيش منذ بداية الحرب عام ١٨١١ حتى الآن كما أن المؤن التي تطلب من سنار وتنقل من جنة إلى قصير ومن القاهرة إلى السويس تتطلب عدداً من الجمال يستحيل على الحجاز تأمينه، أرسل الباشا مرسالاً إلى دمشق لشراء الجمال من هناك لتصل إلى مكة مع قوافل الحج المقبلة؛ وفعل إبراهيم باشا كل ما في وسعه للحصول على جمال القبائل الليبية لترسل أيضاً إلى الحجاز مع الحجاج المصريين.

بانتظار وصول هذه الجمال، كانت الخطة العسكرية دفاعية. تم استئجار ٥٠٠ جمل من عرب حرب لحمل المؤن إلى الطائف من جدّة؛ لكن أصحابها امتنعوا من التقدم خطوة واحدة شرقاً أو جنوباً خوف أن يصادر الوهابيون الجمال. عرفت من مصدر موثوق أن مؤن حامية الطائف لا تكفيها أكثر من عشرة أيام، وما زاد من ضيق الجنود توزيع الذرة مباشرة حين وصولها دون تخزينها. في المواقع المتقدمة في كولاش وزهران، لم يكن للجنود ما يساعدهم في طحن الذرة؛ فكان كل جندي يقوم بطحن حصته منها بين حجرين يخبزها في الرماد بعد أن يمزج الدقيق بالماء.

في هذه الأثناء كان الوهابيون يشنون الهجمات الخاطفة والسريعة على الطائف وعلى

القبائل التي أعلنت انحيازها لمحمد علي باشا، الذي قام بدوره بمضايقة مناطق أعدائه بواسطة فرسانه الأشدّاء. وفي آب/اغسطس ١٨١٤، قام الشريف يحيى وأعرابه بحملة على الجبال بجوار القنفذة واستولى على الكثير من الجمال والخراف والغنائم الأخرى، وما أن عاد إلى مكة حتى ردّ طامي الصاع إذ أرسل ٦٠٠ جمل يسوسها جمالون من عرب قحطان لمهاجمة جدّة. أنا نفسي نجوت بأعجوبة من هؤلاء البدو. كنت في الطريق من مكة إلى جدّة برفقة قافلة جمالٍ صغيرة، في منتصف الطريق بين هاتين المدينتين قرب بئر بحرا، حيث يقبع قلّة من الفرسان تحرس المسلك، بعد أن أخبرهم بعض البدو أن العدو يقترب. توجهت قافلتنا فوراً إلى الجبال الشمالية. ووصلنا جدّة في اليوم التالي بعد دورةٍ درناها؛ وما إن تركنا بحرا، حتى وصل إليها الوهابيون. سمعت الطلقات النارية وعرفت لاحقاً أن الغزاة قتلوا كل من رأوه في بحرا، ونهبوها دون أن يقاومهم الفرسان بل توجهوا إلى مكة ينقلون الأخبار.

وهكذا، انقطعت الطريق التي تصل مكّة وجدّة طوال أسبوع، لكن الوهابيين عادوا إلى ديارهم بعد أن نفذوا مأربهم. فقد قطعوا مسافة طويلة ليقوموا بهذا الهجوم بفضل معرفتهم المكان والبلاد. في هذا النوع من القتال المباغت، يبرع البدو، ولهذا قدروا على زرع البلبلة والخوف في صفوف الجند التركي إذ لم يجد هؤلاء أنفسهم في مأمنٍ في أي لحظةٍ ما إن يتركوا المدينة أو مكة أو جدّة.

منذ سقوط المدينة، بقيت القوات التركية ساكنة، فالمؤن التي تصل من ينبع تكاد لا تكفي حاجاتهم اليومية وحاجات أهل القرية. بقي بنو حرب على تحالفهم مع الأتراك في ينبع، وقام شيخهم جزية، الذي أسقط ينبع وسلمها للأتراك، بزيارة حاكمها التركي الجديد ديوان أفندي في حزيران/يونيو ١٨١٤ ليفاوضه في أمورٍ تجارية. وبعد تفاوضِ يومٍ كاملٍ، ما استطاع الشيخ احتمال الغطرسة التركية فصاح: «اسكت يا ديوان أفندي؛ فالكل يعرف أني أنا من فتح لكم هذه المدينة، ولولا هذا النصل (ووضع يده على مقبض سيفه) لما قامت قيامة لتركي في معركة المدينة المنورة». فرد القائد التركي بشتم الشيخ وإهانته واعتقاله. وفي اليوم التالي أشاع أن الشيخ قتل نفسه في سجنه بعد أن أدرك افتضاح أمر علاقاته السرية مع الوهابيين نتيجة هذا الأمر سهلة التنبؤ. فما إن عرف بنو حرب بمقتل شيخهم حتى أقفلوا الطريق في مناطقهم الجبلية بوجه القوافل الآتية من ينبع وأخذوا يهاجمون المواقع التركية دون أن ينضموا فعلاً إلى الوهابيين.

أملاً في أن يسوّي محمد علي هذه المشكلة، أمر ابنه طوسون بالتحرك باتجاه المدينة في آب ١٨١٤، فوصل في أيلول/سبتمبر إلى بدر ووجد بني حرب محصنين في ممر الجديدة، مصممين على مقاومته، مطالبين برأس ديوان أفندي مقابل دم شيخهم جزية المقتول ظلماً.

ولحسن الحظ، توفي ديوان أفندي في اليوم التالي، ويشكّ أنه مات مسموماً، فلان موقف بني حرب. تلقى شيخهم الجديد وأركان القبيلة الهدايا، وقبض أقرباء جزية ديّته بحسب التقاليد البدوية. وعاد السلام مخيماً بين بني حرب والأتراك مرّ طوسون ووصل المدينة المنوّرة في تشرين الأول/اكتوبر ١٨١٤ مع ٣٠٠ من المشاة و٥٠٠ فارس وصلوا حديثاً من القاهرة. تمركز الفرسان في حناكيّة، على بُعدِ مسير يومين أو ثلاثة من المدينة المنورة وقاموا ببعض الهجمات الخاطفة على مناطق ومضارب القبائل الوهابية الشمالية.

في هذا الوقت، بدأ الباشا يعدّ العدّة لحملةٍ قوية جديدة ضد أعدائه بعد أن تصل الجمال مع قوافل الحج والقوات من القاهرة لكن هزيمة أخرى لحقت بجنده وأذلت جيشه.

كنت ذكرت أن عابدين بك وأتباعه من الأرناؤوط استقروا في بعض المناطق في الظهران، إلى الجنوب من الطائف. وليمنع الهجمات على جنوده، قام بتنفيذ سياسة الأرض المحروقة في دائرة قطرها ٤٠ ميلاً وهدم كل ما قد يخدم مرور القوات المعادية، لكنه، ووفق السذاجة التي يتحلى بها القائد التركي، لم يكلف نفسه وضع حراسةٍ للإنذار المبكر تكشف له تقدم أي عدو تمركز في جانبٍ من هذه الصحراء بينما تمركز بخروج في الجانب المقابل. وما إن هاجمت قوات البدو الوهابيين حتى ترك الأرناؤوط وفي صباح باكر في أيلول/سبتمبر، باغت بخروج ورجاله جنود الأرناؤوط النائمين فتركوا مراكزهم ولاذوا بالفرار إلا بعض جنود ماهو بك، أشجع قواد محمد علي في الحجاز. لكن هؤلاء عجزوا عن مقاومة الدفق الوهابي. تقهقر الجنود الأتراك والفرسان دون تنظيم فلحق بهم بخروج مطارداً خلال يومين قاتلاً منهم الكثير، مستولياً على خيامهم وأمتعتهم ومؤنهم. ويعود فضل نجاة كل الأتراك من الإبادة إلى القائد السوري حسين بك الذي غطى انسحاب الجيش مع قلة من فرسان الأقوياء. خسر الأتراك في هذه المعركة ٨٠٠ راجلٍ و٨٠ فارساً. ولم تتمكن بقايا الجيش من اتخاذ مواقع لها إلا في ليّة (٤ ساعات من الطائف). هنا، وصلت الامدادات إلى عابدين بك من الطائف وقولاش؛ وما إن عرف بتراجع العرب حتى تقدم وفق أوامر محمد علي باشا ثانيةً نحو الظهران. لكن الهلع تملك من الجنود الأتراك ففرّ نِصْفُهم عائدين إلى الطائف مما اضطر عابدين بك إلى النزول قرب ليّة بانتظار المزيد من المدد.

وقعت هذه الهزيمة الأخيرة وقوع الصاعقة على رؤوس الجنود الأتراك إذ أن عابدين بك مشهور بالقوة والشجاعة في الحروب، وأن قواته وفرسانه من أفضل الجنود تدريباً. لكن هؤلاء الجنود وجدوا أن الوقوف بوجه هذا العدد الهائل من الوهابيين جنون وانتحار، وهم الذين يأملون بالعودة أحياء إلى مصر. كما إن الأتراك اعتبروا هذه الهزيمة نصراً إذ عادوا إلى الطائف

حاملين رؤوس ستّين من الوهابيّين. فأطلقت حامية جدّة النار في الهواء احتفالاً كما أنيرت القاهرة ٣ أيام للاحتفال بنصر عابدين بك.

بعد هذه المعركة، وصلت فرقة جديدة من الخيالة من مصر، مؤلفة في معظمها من فرسان القبائل الليبية التي تنزل ضفاف النيل صيفاً فتمركز ٨٠٠ منهم في الحجاز. وكان هؤلاء يعرفون طريقة حرب البدو والوهابيين كما أن جيادهم معتادة على تحمل أقسى الظروف والارهاق. ووصل هؤلاء الفرسان وكل واحد يجرّ خلفه جملاً حمّله المؤن اللازمة للرحلة الطويلة. انضم نصف هؤلاء الفرسان إلى طوسون باشا في طريقه إلى المدينة، بينما تقدم الآخرون ناحية الطائف. وما إن وصلوا إلى هناك حتى ميزوا أنفسهم عن غيرهم عن طريق القيام بالهجمات الخاطفة ضد القبائل الوهابية المستقرة إلى الشرق في ترابة، يرشدهم مرشدون من بدو هذه المنطقة. يتسلح هؤلاء الفرسان بالبنادق والمسدسات وهم مهرةٌ في التسديد والتهديف من بعيد. في إحدى غزواتهم، عادوا يجرون خلفهم ثمانية آلاف ماعزة غنموها من أحياء إحدى القبائل الوهابية.

وصلت قوافل الحج من سوريا في تشرين الثاني/نوفمبر ومعها ٣ آلاف جمل اشتراها محمد علي من القبائل السورية. ووصلت القوافل المصرية تجر ٢٥٠٠ جمل بالإضافة إلى ألفٍ من الخيالة الأتراك رافقوها إلى الحجاز. توقفت كل هذه القوافل في مكة، وتوزعت الجمال حيث الحاجة إليها في المدينة، وأعيد المحمل إلى السويس بحراً بعد انتهاء موسم الحج. تجدر الملاحظة أن هذه القافلة المصرية ضمّت الجنود والموظفين الحكوميين فقط بعد أن قيل للحجاج بالذهاب إلى جدّة بحراً ومنها إلى مكّة.

حضر محمد علي باشا من الطائف لتأدية فريضة الحج ولقاء سليمان باشا والي دمشق الذي رافق القافلة السورية. وكانت والدة طوسون، الزوجة المفضلة لمحمد علي، وصلت أيضاً مكة لتحج، بكامل عظمتها وحاشيتها التي تذكر بروايات الأميرات في ألف ليلة وليلة. كما أن شخصيات مرموقة من اسطنبول أتت لتزور الكعبة. شهدت بنفسي مناسك الحج هذه السنة، فقدرت الذين حضروا بثمانين ألفاً من كل الأمم والبلاد. بقيت القافلة السورية أياماً بعد انتهاء الحج إذ استخدم محمد علي جمالها (قرابة ١٢٠٠ جمل) في نقل المؤن بين جدة ومكّة لتزويد جنوده المتمركزين هناك.

أدرك محمد علي أن قواته المزودة بالمؤن قادرةٌ الآن على إنزال الهزائم بأعدائه، فأعلن أنه سيقود الجيش بنفسه، وهذا ما حمّس الجنود ودفعهم إلى التصميم على الاستبسال في القتال. تحدد هدف الهجوم في ترابة ثانيةً. كان بحوزة هذا الجيش سلاح المدفعية الذي سيهدم أسوار

ترابة فلا يضطر الجنود إلى تسلقها كما أمرهم طوسون في المرّة الماضية، الكثير من الفؤوس لقطع أشجار النخيل التي تحمي ترابة، وخبراء التفجير ليدمّروا كل ما يعترض سبيل القوات. بالإضافة إلى هذا استقدمت بذور البطيخ من وادي فاطمة لتبذر مكان هذه القرية. لم تطمئن هذه التحضيرات الجنود إذ أدركوا مدى الصعوبة والقسوة التي ستكون عليها المعركة المقبلة.

هزأ الوهابيون عندما وصلتهم أنباء نيّة محمد علي دخول ترابة بالقوة. وفي هذا الوقت، وصلت رسالة من الشيخ بخروج إلى الباشا يخبره عما سيفعله هؤلاء الوهابيون، ولهذا يجب أن يكون له جيش أقوى من هذا الذي يقوده إن كان ينوي فعلاً محاربتهم، وإلا فالأفضل أن يعود إلى مصر ليستحم في مياه النيل. وسنرى أي مصير ينتظر بخروج إثر هذه الإهانة التي وجهها إلى الباشا.

في خطوة تشجيعية للجنود، ألقي القبض على ١٣ بدوياً من العتيبة على طريق جدّة اتهموا بكونهم لصوصاً للوهابيين (وتبيّن فيما بعد أنهم قصدوا جدّة للتموُّن) وقتلوا علناً أمام الناس في السهل بجانب مكّة تمكن أحدهم من قطع الأغلال وضرب حارسه والفرار، لكنه سلك السهل بدل الجبال فقتله هناك حاج تركي كان على فرسه. وفي هذه المناسبة، جاهر عامة الناس بكراهيتهم للأتراك فأصدروا أصوات الاستهجان وأنزلوا اللعنات على العثمانية، وشجعوا الفار، ثم شتموا الحاج الذي قتله.

بعد انتهاء التحضيرات للحملة الجديدة التي ستحدد مصير العثمانيين في الحجاز، غادر أحمد بونابارت مكة على رأس قوّة هائلة من المشاة في ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٨١٥ وتوجه نحو قولاش. ونوى الباشا أن يلحق به يقود ١٢٠٠ من الفرسان في ٢٢ في الشهر نفسه، حين وصلت معلومات استخباراتية تفيد أن قوة وهابية ضخمة لوحظت في جوار القنفذة تتقدم نحو جدّة، فدب الذعر في هذه المدينة، وارتفعت الأسعار وشرع الناس يخزنون المؤن خوفاً من الحصار، وملأت السلطات الخزانات بالماء تحضراً للمعركة لكن الوضع عاد إلى هدوئه عندما تبيّن أن قوة صغيرة بقيادة طامي نازلة قرب القنفذة.

وبعد أيام، وصلت أخبار هجوم بخروج على عرب الناصرة المتحالفين مع الباشا، واحتلاله قرية البجيلة المحصّنة حيث تتمركز حامية من الأرناؤوط وكانت قبلُ مستقر عابدين بك، كما وصلت أنباء التحصينات الجارية في ترابة وتدفق القوات إليها بغية الدفاع عنها.

في ٢٦ محرّم ١٢٣٠ (أو ٧ كانون الثاني/يناير ١٨١٥)، مشى محمد علي على رأس جيشه من مكة إلى قولاش، حيث ينتظره حسن باشا وعابدين بك وما هو بك وأحمد بونابارت وتوبوس أوغلو والشريف راجح مع قواتهم ومؤنها التي تكفي لقتال ٦٠ يوماً. حين

وصل إلى زيمة وقولاش، وصلت إليه المراسيل تنبئه بسقوط بيسيل، بين الطائف وقولاش، بيد الوهابيين، بينما قوات معادية أخرى تهاجم عرب العتيبة الموالين للباشا إلى الشرق من قولاش. أسرع محمد علي إلى قولاش وأرسل الشريف راجح يوم الأربعاء مع جنوده البدو وفرسان عرب ليبيا لنصرة العتيبة، بينما واصل هو التقدم نحو بيسيل. وجد المخيم الوهابي على سفوح الجبال بجانب آبار الماء في سهل قولاش. اختلفت المصادر في تقويم عدد الجنود الوهابيين، فوصلت الأرقام إلى ٢٥ ألفاً من المشاة وبعض الفرسان القلة، إذ كانت المناطق الجبلية غير مناسبة للجياد.

كان الجيش الوهابي مؤلفاً من رجال انتخبوا من الوهابيين الجنوبيين وقلة من وهابيي الشمال الذين يشغلهم الآن طوسون باشا بقرب المدينة المنورة. على رأس هذا الجيش كان فيصل ابن سعود، وبجانب قواد جبليي اليمن أمثال طامي شيخ عسير وابن ملحة عقيدها، وابن قطنان شيخ عرب سبيعة وابن خرسان شيخ ترابة، وابن شقبان شيخ بيشة، وبخروج شيخ عرب غامد والظهران، وابن دهمان شيخ عرب شمران، وابن قتامل شيخ بعض عتيبة، أي من بقي منهم على تحالفه مع الوهابيين، وابن ماهي شيخ عرب الدواسر النازلين في حضرموت. فبعد أن ضلل هؤلاء الأتراك بحشدهم بعض الجند في القنفذة، هاجموا في مكان آخر، بيسيل واخترقوا خطوط الأتراك. حاول محمد علي جاهداً بواسطة فرسانه التأثير على خطوط الوهابيين لكنه فشل. انقضى يوم الخميس على فشل الخيالة التركية في إحراز أي تقدم لها، وفي آخر هجماتها خسرت عشرين فارساً بفعل رماح الوهابيين.

برغم أن قلة فقدت حياتها في ذلك النهار إلا أن الأتراك بدأوا ييأسون من حصول النصر، بينما كان هَدَفُ الوهابيين إضعاف الجيش التركي بهزائم صغيرة متلاحقة فيسهل عندها القضاء عليه نهائياً. دب الخوف في الجنود الأتراك والبدو فهربوا إلى مكة ووصلوها ليل السبت، ونشروا فيها أخبار الهزيمة ومقتل محمد علي.

لا يمكن وصف الفوضى والبلبلة التي حلّت في مكة عندما سرت هذه الشائعات. فكنت هناك بنفسي ورأيت ما حصل بأم العين. أخذ الأتراك من جنود وحجاج يتحضرون للرحيل خوفاً من الموت تحت سيوف الوهابيين. وغادر بعضهم فعلاً ماشياً على قدميه نحو جدّة على أن يبلغها في اليوم التالي. أما بعضهم الآخر، فلبس لبوس البدو وانضم إلى الحامية في القلعة. لم يفكر أي منهم بالدفاع عن مكة، حتى الشريف يحيى الذي لم يتلق أي معلومات رسمية كان مستعداً للفرار بنفسه إلى جدّة. في هذا الوقت كنت في مكة وأدركت أن من يغادرها يقع في فخ القبائل الوهابية التي لا بد ستقطع الطريق من مكة إلى جدّة، وأدركت ـ إذ صدقت أنباء

الهزيمة ـ أن الملجأ الآمن هو المسجد الذي طالما احترم الوهابيون حرمته حزمت بعض الخبز في كيس وتوجهت مع عبدي إلى المسجد لأجد هناك غيري من اللاجئين. أما الأتراك فما حذوا حذوي إذ نظروا إلى الوهابيين كما ينظرون إلى أنفسهم معتقدين أن الجندي المزهو بالنصر لا يرى مكاناً مقدساً.

في اليوم التالي، وبعد ليلةٍ من الذعر، وصلت الأخبار الرسمية تروي أنباء الهزيمة المنكرة على الوهابيين. أدرك محمد علي خلال الاشتباكات التي حصلت يوم الخميس أن أي نصر لا يحققه في اليوم التالي يعني انتهاء مواقعه الجبلية إذ لا قدرة له أبداً على اختراقها. فأرسل خلال الليل يطلب المدد من قولاش وأمر ألفين من المشاة تدعمهم المدفعية بالتمركز بمواجهة الوهابيين في اليوم التالي، وفي الصباح الباكر، عاود الهجوم مستعيناً بالفرسان لكنّه رُدَّ على أعقابه. عندئذٍ جمع قواده وأمرهم بالتقدم نحو المواقع الوهابية. ومتى يصلون إلى أقرب نقطة اشتباك، يطلقون النار بغزارة ويتراجعون تراجعاً دون تنظيم نحو السهل. نفذ القواد والجنود الخطة كما وضعها. فما إن رأى الوهابيون صفوف الأتراك تتراجع والبلبلة سيدة الموقف حتى تركوا مواقعهم الجبلية الحصينة ونزلوا إلى السهل هذا بالظبط ما توقعه محمد علي. وحين ابتعد الوهابيون عن الجبل، أرسل الفرسان وأنهى المعركة لصالحه.

في هذه الأثناء كان الشريف راجح قد عاد من عملية صدّ الهجوم المصطنع على العتيبة وانضم إلى محمد علي الذي ما إن رأى أعداءه يتراكضون يسعون إلى النجاة بأرواحهم حتى أعلن أنه يدفع ٦ جنيهات على كل رأسٍ وهابي. وفي ساعات قليلة، تكدس أمامه خمسة آلاف رأس مقطوع، غير القتلى الوهابيين الآخرين الذين بقوا في أرض المعركة. وفرّ طامي من المعركة مع قلّة من أتباعه.

أسر الأتراك ٣٠٠ وهابي بأمر من محمد علي، وقدموا لهم الطعام برغم أن قلّة قليلة منهم طلبت الرحمة. أما الشريف راجح فتولى مطاردة الهاربين على رأس قوة من الفرسان ومن بدو القبائل المجاورة الذين كانوا فعلوا الأمر عينه لو كان الوهابيون من انتصر.

في هذه المعركة، حارب محمد علي شخصياً، وإليه يعود الفضل في هذا النصر. وإلى جانبه، برع الشريف راجح الذي كان يقاتل في مقدمة الجيش، والذي تقدم من خيمة فيصل ابن سعود وغرز رمحه في بابها وصدّ بسيفه جمعاً من الوهابيين قاتلوه، حتى وصل إليه من أنقذه منهم. ولهذا كافأه محمد علي بأن أعطاه خيمة فيصل بكل ما فيها إضافة إلى الجمال وحصة من الغنيمة. اختلف الأتراك والبدو على تقاسم المغانم، وغضب الجنود عندما وجدوا

الباشا في صف البدو يُعطيهم الجِمال. يقال أن الأتراك خسروا في هذه المعركة بين ٤٠٠ و ٥٠٠ مقاتل.

سبب هزيمة الوهابيين نزولهم من الجبال إلى المناطق المفتوحة، وهذا ما كان سعود حذر منه وهو في النزع الأخير. لكن رغبة الوهابيين في القضاء نهائياً على الأتراك وربما اعتقال محمد علي نفسه، جعلهم ينسون النظام الحربي الصحيح الذي اعتمدوه. كما أن المفاجأة التي انتظرتهم عند بروز هذا العدد الكبير من فرسان الأتراك أفقدهم القدرة على المقاومة.

برغم كل هذا، تناقلت الألسن روايات الشجاعة الوهابية. فابن شقبان وبعض مئات من رجاله تمكن من اختراق الطوق التركي والهرب. وبخروج قتل بيده اثنين من ضباط الباشا، وعندما فقد حصانه، انتظر حتى سنحت له فرصة رمي أحد الفرسان الأتراك عن جواده فامتطاه وفرّ. كما أن عرب عسير وجدوا في الجبال مكبلين بالحبال إذ أقسم هؤلاء، بعد أن أوثقوا أقدامهم، على عدم الهرب أمام الأتراك.. فإما الموت أو النصر. ولهذا قاتلوا حتى الرمق الأخير، فقتلهم الأتراك وقطعوهم إرباً.

٩

الأتراك يحتفلون بالنصر. قسوتهم. البلبلة عند الخروج إلى بيشة. عودة محمد علي إلى مكة. عرضه الصلح مع عبد الله بن سعود

أرسلت الرسل على عجل إلى القاهرة واسطنبول لتُعلِن عن تحقق النصر، وعاد الاعتبار إلى الجندي التركي. سرّت القبائل العربية إذ أمنت الآن من شر الوهابيين، لكنها حزنت لرؤية العرب ينهزمون بيد الأتراك الذين برهنوا عن قسوةٍ فيهم متأصلة خلال الحرب وبعدها. أمر محمد علي بنقل الأسرى الوهابيين إلى مكّة. وهناك، احتفل بالنصر بقتل ٥٠ منهم على أبواب مكة، و١٢ منهم بين مكة وجدّة، والباقون تحت أسوار جدّة. وتركت الجثث في الأرض تتناهشها الكواسر والكلاب. أثارت هذه الأفعال الإجرامية حفيظة القبائل العربية وحاول الشريف راجح التدخل عند الباشا لوقفها لكن جهوده لم تنفع.

بعد أربعة أيام من النصر، وصل محمد علي إلى ترابة. لكن فيصل بن سعود غادرها مسرعاً. دخل الباشا ترابة واستقر فيها. هاجم الجنود بعض البيوت وسبوا بعض النساء لكن الباشا أعادهن إلى بيوتهن. اختبأت غالية بين البدو كي لا يأسرها الأتراك فيرسلوها هدية إلى اسطنبول. بعد الانتصار وبيسيل، أمر الباشا الشريف يحيى ـ بعد أن مدّه بالرجال ـ بالهجوم على القنفذة وأرسل إلى جد يأمر بذهاب المؤن إلى القنفذة. فقد قرر محمد علي نقل المعركة إلى أرض الوهابيي الجنوبيين كي يقتلعهم من جذورهم، فينتهي أمرهم. وصلت المؤن من قولاش ومكّة على ظهور خمسة آلاف جمل تعود إلى الجيش المتمركز في مكة.

من ترابة، توجه الباشا وجيشه إلى ديار عرب أُكْلُب جنوباً باتجاه رنيّة حيث عرب سبيعة، فاستسلمت قلعتها التي كان ابن قطنان قد حصّنها. وبعد مسير ٤ أيام من هذا المكان، وصل الأتراك أطراف بيشة، مستقر بني سالم الذين كان شيخهم ابن شقبان واحداً من أعيان الوهابية.

كان في بيشة قلعتان بنيتا بأوامر من سعود الذي حصّن البلدة كما البلدات الأخرى. هرب ابن شقبان إلى خيام البدو المجاورين وفتحت القلعة الأولى أبوابها للأتراك بينما قرر ابن شعبان، القائد الثاني لبني سالم، المقاومة، فتصدى للمشاة العثمانيين بقيادة حسن باشا أربعة أيام متتالية. وكان محمد علي استقر وفرسانه في بستان النخيل في القسم الجنوبي في بيشة.

عُرِضَ الاستسلام على شعبان مقابل الأمان. خرج بن شعبان وأتباعه الستون، فاستلموا الجمال من حسن باشا قائد الفيلق التركي هناك ليحمّلوا متاعهم. وبينما كان ابن شعبان في خيمة حسن هذا يقدم له الشكر على الأمان، اتهمه حسن بالهرطقة. دافع ابن شعبان عن وجهة نظره، فعلا الصراخ وتبادلا الاتهامات. وما إن خرج من الخيمة حتى وجه حسن باشا أوامره للإنكشارية الأتراك بالهجوم على بدو ابن شعبان، فقتلوهم جميعاً.

بقي الجيش أسبوعين كاملين في بيشة، وهو الموقع الأكثر أهمية في البلاد الواقعة شرق اليمن وجباله، إذ يطلق عليه البدو اسم مفتاح اليمن. انضمت بعض القبائل العربية إلى الباشا هنا بعد أن حذا حذو سعود وبدّل المشايخ في هذه القبائل. وصلت أخبار طامي وتحضيراته في الجبال لشن حرب جديدة، فما كان من الباشا إلا أن أمر بالتوجه غرباً نحو الجبال.

خلال هذا المسير، عانى الجنود الأمرين بسبب الجوع والإرهاق. نفق نصف الجمال قبل وصول القوات إلى بيشة، إذ أن القوافل جرّدت الأرض من كل نبتة خضراء. كما أن تقدم الجيش التركي أخاف العرب فهربوا في كل اتجاه حاملين معهم مؤنهم. كما أن البدو الذين يرافقون الحملة استفادوا من الفوضى التي دبّت وأخذوا ينهبون المؤن. عند كل توقف، كانت الجمال تنفق، فيتناهش الجنود لحومها. وجد الباشا ضرورياً أن يضيف قرشاً على أجر كل جندي لكن ما نفع المال هنا حيث القليل من الذرة التي تكفي لوجبة واحدة تكلّف ١٢ قرشاً.

وبعد مسير يومين من بيشة، دخل الأتراك المناطق الجبلية التي هجرها أهلها، لكنهم وجدوا الراحة بين عرب شمران. أعاد محمّد علي مقاليد مشيخة هذه القبيلة إلى حسن السلسان الذي كان أحد أجداده شيخاً نصبه عثمان باشا حين غزا اليمن في عهد السلطان سليم. هنا، فقد الجيش في يومٍ واحدٍ مئة حصان. أدرك الجنود أن التراجع معناه الموت فاستمروا في التقدم. أمر محمد علي باشا كل القواد بالنزول عن الجياد والمشي على الأقدام أمام جنودهم، ووعد هؤلاء الجنود بالغنائم الكثيرة في القرى اليمنيّة محاولاً تقويتهم. عند كل توقف. كانت السوق تنصبُ أمام خيمة الباشا يبيع فيها البدو ما يحتاجه الجنود. وكان الباشا نفسه يشرف على النظام.

قرب مناطق عسير، استحال مرور المدفعية في الممرات الجبلية الوعرة والضيقة. هناك، تحصّن

الأتراك في قلعة حصينة جداً تدعى طور بناها أبو نقطة، سلف طامي. وقوّاها لتمتنع على كل مهاجم. هاجم الجيش قوات طامي وتراجع في اليوم الأول. أطلق عرب عسير النار دون انقطاع ففقد الأتراك ٣٠٠ جندي. لكن عندما بدأت المدفعية تدك مناطق الوهابيين في اليوم التالي، فروا، وكذلك فعل طامي إلا أنه كان آخر من غادر ساحة المعركة. وقع الأتراك في القلاع على مخازن المؤن والذخائر والأسلحة التي سرقت من القنفذة في العام السابق، إلى جانب عدد كبير من بنادق الفتيل والبنادق الفارسية القديمة، التي يفضلها العرب.

بعد إرسال راجح خلف طامي، وتنصيب شيخ جديد لعسير هو ابن مذري، نزل محمد علي من الجبال إلى الساحل وبدا أنه ينوي التقدم نحو اليمن انطلاقاً من المناطق الواقعة عند السفح الغربي من سلسلة الجبال. كان حاكم الساحل الشريف حمّود وهابياً سابقاً تحوّل عنهم حين وصل محمد علي الحجاز وأرسل الرسل إلى الأتراك يعلن انضمامه إليهم. لكن الهزائم المتلاحقة التي حلّت بالجيش التركي خففت من حماسته، فأعاد فتح قنوات الاتصال مع طامي وأدرك محمد علي أن هذا الشريف سيعود إلى الوهابيين في حال انكسار الجيش. كان محمد علي تواقاً إلى وضع يده على كنوز اليمن المشهورة، ولهذا سرت في الحجاز أخبار تحضّر محمد علي لغزو الشريف حمود بعد الانتصار على الوهابيين، وإرساله الرسل والهدايا إلى إمام صنعاء ليأمن جانبه وليعده بتخليصه من عدوّيه: الوهابية وحمّود.

بدأ الجنود يتململون بسبب التعب الذي أصابهم في هذه الحروب المتتالية، فوعدهم الباشا بإعادتهم إلى مصر واستبدالهم بقوات جديدة. وبدلاً من المسير جنوباً، توجه نحو القنفذة.

بعد أن انكسر طامي في الجبال، لجأ إلى عرب العريش، وإلى بيت صديق له هو أحد أنسباء الشريف حمّود. انتهز الشريف هذه الفرصة لإصلاح علاقته بالأتراك وتجنب غزوهم، فأسر طامي وأرسل رسالة يقول فيها إنه عبد محمد علي ويطلب إذناً بنقل السجين. أصدر الباشا أوامره إلى الشريف راجح تقضي نقل الأسير إلى القنفذة حيث يتوجه الجيش للتمون بالمؤن الواصلة بحراً من جدّة.

في هذه الأثناء، أرسل محمد علي القوات من رانية بينما نزل ما هو بيك من الجبال لتصبح الظهران بين فكي كماشة وطوقوا بخروج وفرسانه وأسروه واقتادوه إلى القنفذة. كان الأسيران طامي وبخروج في خيمة ملاصقة لخيمة محمد علي. أثار سلوك طامي إعجاب كل القواد إذ بقي مرفوع الرأس عالي الجبين محتفظاً بكرامته فأعجب به الباشا نفسه ووعده بإرسال كتاب إلى الباب العالي ليبقي على حياته فيمضي ما تبقى من عمره في أحد أرياف روميلي وكان طامي يتميّز بقوى طبيعية عظيمة: قصير القامة طويل اللحية ناريّ العينين، هازئ، لكن لبق. أما

بخروج، فبقي ساكناً إذ أدرك أن محمد علي لن يغفر له رسالته الوقحة التي أرسلها إليه سابقاً. وفي الليل، اغتنم بخروج فرصة نوم الحراس، وتناول خنجراً حل به وثاقه وهرب، لكنه وقع أسيراً ثانية بعد أن قتل رجلين وجرح ثالثاً. انتقاماً منه، أمر الباشا بوضع بخروج مغلولاً بين العسكر ليجرحوه بسيوفهم جروحاً صغيرةً حتى يموت بعد آلام طويلة. بعد موته، قطع رأسه، وأرسل مع طامي إلى القاهرة فاسطنبول. وعند وصول طامي إلى اسطنبول، قطع رأسه فوراً.

توجه الباشا من القنفذة، إلى مكة فوصلها في الواحد والعشرين من آذار/مارس أي بعد نصف شهر من مغادرته تلك المدينة. لا بدّ أن نفهم طبيعة هذه الحملة عندما أقول أنّ لا أكثر من ٣٠٠ جمل عادت مع الجيش إلى مكة من أصل عشرة آلاف، إذ نفقت البقية على الطريق. ولهذا السبب خلّف الجيش وراءه الكثير من الذخائر والمؤن التي لا جمال لحملها. من عداد ٤ آلاف تركي خرجوا من مكة، عاد إليها ١٥٠٠، غالبيتهم من الضبّاط المتعبين الذين فقدوا ثيابهم وكل مالهم.

أذن لهم محمد علي، بحسب وعده الذي قطعه في مكّة، بالإبحار إلى جدّة، إلا حسن باشا الذي استبقاه في الحجاز مع بعض مئاتٍ من الأرناؤوط. وبعد وقت قصير، وصل الجديد من مصر.

تقلصت في هذه الأثناء قوة الوهابيين وخصوصاً في الجنوب. إذ عندما وقعت المعركة في بيسيل، كان عبد الله ابن سعود مع قواته في منطقة القصيم يتحضّر لصدّ تقدم طوسون باشا من جهة المدينة؛ لكنه عاد إلى الدرعية حين بلغته أنبّاء الهزيمة التي حلّت بقواته ما يسمح بتقدم محمد علي من ترابة إلى نجد.

بعد وصول محمد علي إلى مكة، جمع أعيانها وعلماءها وقرأ عليهم رسالة نوى إرسالها إلى عبد الله ابن سعود يدعوه فيها إلى الاستسلام ويعرض عليه السلم وشروطه: عليه إعادة كل الكنوز التي أخذها أبوه من ضريح النبي في المدينة، هذا إن لم يكن يريد أن يهزم ثانية كما حصل له في الجنوب. تم إرسال هذه الرسالة إذ حملها جندي تركي إلى الدرعية يرافقه بعض البدو.

بعد مكوث قصير في مكة، نصّب محمّد علي حسن باشا والياً عليها، وترك حسين بك والشريف راجح على رأس حاميتي ترابة وبيشة، وسافر إلى المدينة فبلغها دون سابق إنذار في ١٤ نيسان، يرافقه أربعون معاوناً على جمالهم. كان طوسون باشا قد غادر المدينة، ويحكم المدينة طوماس كيث أو إبراهيم آغا الذي ذكرت آنفاً.

حين وصلت أخبار انتصارات محمد علي إلى قبائل الشمال، تقدم شيوخها من طوسون

باشا عارضين انضمام قبائلهم إلى قواته في الحرب ضد الوهابيين إذ كانت سلطة هؤلاء في الشمال أقوى منها في الجنوب. في شهر آذار، حضر معظم هؤلاء الشيوخ إلى المدينة وأكدوا لطوسون باشا استعدادهم لمساعدته. فقدم لهم الهدايا وأرسل معهم ٤٠٠ من الفرسان لتحمي بعض قراهم. شرح طوسون نفسه الآن يفكر في إمكانية احتلاله نجد. وبعد الهزيمة التي ذاق مرّها في الحجاز أمسى طوسون خائفاً من التقليل من شأن انتصارات والده. وقرر أن يغيّر هذا الوضع، لكنه كما كل الأتراك لم يُجِد تقدير حساباته. لم يكن محمّد علي قد حمّل ابنه مالاً كثيراً إذ كان لا يودّ أن يشتهر سواه في الحجاز. وكان طوسون بأمسّ الحاجة إلى الجمال وإلى الطعام لكن ثمن السلع في المدينة عالٍ بالمقارنة مع مكة. وبرغم كل الصعوبات التي تواجهه، قرر أن يجرّب حظوظه فغادر المدينة في نهاية آذار ينشد حناكيّة وهي قرية مدمّرة لها أسوار، على مسافة مسير ٣ أيام على الطريق إلى القصيم. وكان في قافلته ٤٠٠ جمل تحمل المؤن و٣٠٠ فارس و٤٠٠ جندي راجل، وخلفه مئات قليلة من من البدو ينتمون في غالبيتهم إلى عرب حرب والمطيّر(*).

بقي بعض الوقت في تلك القرية المسوّرة، وكان ما يزال فيها حين وصل والده إلى المدينة. لربما كان سبب حضور محمّد علي إلى هذه المدينة المنورة رغبته في استقصاء أمور شمال الحجاز وزيارة قبر النبي. أرسل إلى ولده يدعوه للعودة من أجل التشاور في أمور الحملة التي يقودها لكن طوسون كان مصمماً في المضي قدماً في ما قد قرره. وبدلاً من تنفيذ أمر والده توجه نحو القصيم. لربما أخطأ محمّد علي في منحه ابنه الحرية الاستقلال اللذين أوصلاه إلى عصيانه إذ أنه وابنه متساويان في الرتبة (باشا). أمر الباب العالي بتحويل كل مداخيل جدّة من عهدة طوسون إلى عهدة محمّد علي لتكون ضمن مصاريف الحرب. وكان محمد علي، حين ولى ابنه على شمال الحجاز، نصّب في ديوان طوسون رجلاً ثقةً هو قادري أفندي الذي كان يجب بحسب أوامر الباشا أن يطلّع على كل المعاملات، وكان محمد علي يدرك أن ابنه طوسون ليس أهلاً لهذا المنصب الذي وضعه فيه.

وبعد وصول طوسون إلى المدينة ضاق ذرعاً بتدخلات قادري أفندي حتى أمر بقتله، فتسبب بالفوضى العارمة التي حلّت في إدارة الجيش، وتضررت علاقات الأتراك بالقبائل العربية التي تجاورها بسبب أعمال النهب التي قام بها عسكر الأتراك. احتاج طوسون إلى الجمال فعمد إلى مصادرة كل جملٍ وجده عند البدو. وهكذا عندما وصل محمد علي إلى المدينة انشغل بإصلاح ما أفسده ولده عن الاهتمام بالأمور الحربية الطارئة والأهمّ. أرسل محمد علي إبراهيم

(*) الحقيقة أن الهجوم الأول التركي رد على أعقابه.

آغا على رأس مئتي فارسٍ للانضمام إلى طوسون، بالإضافة إلى سرية من المشاة وصلت حديثاً من ينبع، وقائدهم أحمد بونابارت العائد من القاهرة. وصل طوسون إلى القصيم بعد مسير عشرة أيام، هاجم خلالها عرب الهتيم واستولى على ٥٠٠ جمل من جمالهم أرسلها إلى المدينة لتحمل المؤن من ينبع. حين وصل إلى الرسّ، أحد أكبر قرى منطقة القصيم، انضم إليه الفرسان الذين سبقوه إلى هنا، وأتى شيوخ مقاطعات القصيم للتنسيق معه إلا حجيلان، أكبر أعيانها، المرتبط وثيقاً بسعود، والذي حشد قواته البدوية في بلدة بريدة[1].

(١) في كانون الثاني ١٨١٥، وصلت المدينة وأصابني المرض فلزمت الفراش. وكان عبدي يأتيني يومياً باكياً مشتكياً من الأتراك إذ يسرقون منه اللحم الذي يشتريه لتقويتي، ويضربونه حين يحاول المقاومة.

١٠

عبد الله ابن سعود يدخل القصيم مع جيشه . مفاوضاته مع طوسون باشا - السلام المعقود محمد علي يعود إلى القاهرة . ثم يعيد ابنه إبراهيم باشا ليهاجم الحجاز من جديد

في هذه الأثناء، لم يكن عبد الله ابن سعود مستكيناً بل تقدم إلى القصيم ودخلها على رأس جيش من بدو وحضر نجد، وجعل قيادته في شنانة، على بعد خمس ساعات من الخبر حيث مخيم طوسون باشا. هنا، وصلت أخبار موت إبراهيم آغا (توماس كيث) وفرسانه بعد معركة دموية. إن إنتاج القصيم الخصب يمدّ جيشاً أكبر من جيشه بالمؤن لكن الهجمات الوهابية المتلاحقة أنهكت الجيش والجنود. كانت الطريق إلى المدينة مقطوعة ولا أخبار على تحركات محمد علي.

لم يكن طوسون يثق كثيراً بالبدو إذ يعرف أنهم مستعدون لإعلان وهابيتهم بعد أول انكسار تركي. كما أن قواعده وجنوده نصحوه بعدم القيام بأية خطوة حربية في الوقت الحاضر، إذ أخافهم الجيش الوهابي الجرار، وأدركوا أن واحداً منهم لن ينجو من القتل إذا ما انهزموا. كما أن محمّد علي كان فوّض ابنه القيام بمفاوضات للسلام متى سنحت له الفرصة. كما أن عبد الله من جهته يدرك تماماً أن إبادة الأتراك في هذه المنطقة لا يصب في صالحه إذ قد يوجه محمد علي كل قواه باتجاهه وهكذا يُصاب الوهابيون بنكسة كبيرة يمكن تجنبها الآن. بالإضافة إلى أن المدد الذي قد يصل من مصر يمكن محمّد علي من الاستمرار في الحرب حتى النهاية. فبرغم الهزائم المتلاحقة التي حلّت بالأتراك، قدروا على تعويضها وتقوية أنفسهم أكثر. دون أن ينسى قدرة الأتراك على استمالة القبائل بالمال وهو يعرف أن الكثيرين من العرب هم أعداؤه في صميمهم. ومن طريق إقامة السلام، يُبقى هذه القبائل على استقلاليتها إذ هي لم تنضم بعد إلى الأتراك.

أرسل عبد الله مساعده حبّاب إلى طوسون يعرض عليه التفاوض، فأحسن هذا استقباله، وأرسل فوراً يحيى أفندي، طبيبه الخاص السوري الأصل والذي يتكلم العربية بطلاقة، ليتفاوض مع عبد الله. وبفضل اجماع الطرفين على السلام، انعقد الصلح. نص الاتفاق على اعتراف عبد الله بالسلطة العثمانية على الديار المقدسة وأعلن نفسه أحد رعايا السلطان، وحصل بالمقابل على حق مرور الوهابيين في جميع المناطق التركية للوصول إلى مكة والحج إليها. ترك طوسون لعبد الله مناطق القصيم وتخلى له عن كل القبائل البدوية التي انحازت إليه إلى جانب القبائل التي ترعى ماشيتها بين حناكية والمدينة والتي تنزل قرب الديار المقدسة. لكن الاتفاق خلا من أي إشارة إلى وهابيي الجنوب. وبعد مغادرة طوسون، اقتصّ عبد الله من القبائل التي تحالفت مع الأتراك وخصوصاً عرب مطيّر.

طالب عبد الله أن يبقى في قبضته أربعة قواد من ضباط الباشا أسرى حتى يصل مناطقه الآمنة فيخلي سبيلهم. رفض طوسون في بداية الأمر. حصلت مراسلات حول هذا الموضوع كل رسائلها في حوزتي، أملاها عبد الله ابن سعود، تتميز بلغةٍ صادقةٍ هي ميزة البدوي تختلف عن لغة التبجيل المتبعة في الشرق.

عاد طوسون باشا من الخبر إلى راس، وصل المدينة في آخر حزيران/يونيو ١٨١٥ أي بعد مكوث في القصيم دام ٢٨ يوماً. رافقه وهابيان يحملان نصوص الاتفاق إلى محمد علي ورسالة من عبد الله إلى الباشا وأخرى إلى السلطان.

لم يجد طوسون والده في المدينة المنورة. فقد كان يجهل أن والده ترك الحجاز نهائياً دون أن يبقي له مالاً ليعتاش منه فاضطر إلى اقتراض المال. فبعد انقطاع الأخبار عن المدينة، فضّل محمد علي المحافظة على الصيت الحربي الذي ناله بعد غزواته الناجحة وفكر أن يلصق أي انهزام جديد بابنه، وفي شباط/فبراير وآذار/مارس ١٨١٩، سرت الأخبار في مصر أن القبطان باشا يحضر للإنزال العسكري في الاسكندرية بعد وصوله من بحر مرمرة، وفق أوامر الصدر الأعظم. أرسلت القوات العسكرية إلى الاسكندرية، وبعث حاكم القاهرة قشيعة بك بالمراسيل إلى محمد علي ينبئه بالأنباء.

في التاسع عشر من أيار/مايو، قبل أسابيع من مغادرتي ينبع، في الطريق إلى القاهرة، وصل أمر من المدينة إلى سليم آغا حاكم ينبع بتحضير سفينة للإبحار في الليلة نفسها. ووصل محمد علي وبعض أعوانه وتوجهوا فوراً إلى السفينة التي انطلقت تواً، وأمر الباشا بالتوجه إلى القصير، طالباً عدم البقاء قرب الشاطىء برغم ضعف شأن السفينة هذه.

عندما وصل إلى القصير، لم يجد جملاً أو جواداً يمتطيه، فاشترى حماراً عبر عليه الصحراء

حتى جنّة وأبحر في النيل. في هذه الأثناء، وصله أن خبر غزو الاسكندرية ملفق لا أصل له، فارتاح محمد علي وتوجه إلى عاصمته ليصلها في ٢٥ حزيران/يونيو ١٨١٥، بعد غياب سنتين إنهارت خلالها صحته. لم يكن يعلم بعد أن صلحاً قد تمّ مع عبد الله بن سعود، بل كان ينتظر أخبار سقوط الدرعية ونهاية الوهابية.

في شهر آب/اغسطس، بعد عودة محمد علي إلى مصر، ثار الجنود الذين رافقوه في حملة الحجاز، واختبأ الباشا في قصره. فهؤلاء الجنود الذين تلقوا الوعود الجزيلة في الحجاز فوجئوا في مصر باقتطاع المال من رواتبهم. فمحمد علي أراد إدخال النظام الجديد على مصر، لكن هذه الخطوة هي التي أدت إلى سقوط السلطان سليم. توقفت الثورة، ولكن الباشا لم يعاقب الثائرين. فحرب الحجاز غيرت في شخصيته إذ بدأ يبحث عن مصالحه الشخصية لا غير.

وصل مرسالا عبد الله بن سعود في ركب طوسون إلى القاهرة، إبان ثورة الجند. كان أحدهما من أقرباء عبد الوهاب مؤسس المذهب، والآخر ضابط في جيش عبد الله. فقدما لمحمد علي اتفاق السلام الذي وقعه ولده والرسائل التي ذكرت آنفاً. كان عبد العزيز (قريب عبد الوهاب) مطلعاً فتجادل مع علماء القاهرة وفقهائها في أمور الدين الإسلامي وأظهر براعة في الجدل والإقناع وأمسى يتدخل في شؤون الإدارة المصريّة خافه محمد علي وأمر جنديين بمرافقته حينما يتجول إذ طلب هذا النزول إلى الأسواق لشراء الكتب. وبعد مكوثٍ طال، طلب الوهابيان الإذن بالرحيل فحمّلهما الباشا رسالة إلى عبد الله بن سعود يظهر فيها احترامه للصلح المعقود شرط أن يترك له الوهابيون الاحسا الخصبة الواقعة على الخليج الفارسي وهدايا عديدة.

أمسى معروفاً الآن أنه إما أن يكون طوسون قد قام بخداع الوهابيين في القصيم وإما أن يكون محمد علي قد قدم دليلاً جديداً على احتقاره أي تعهّد قطعه. فقد قام طوسون باشا بعقد معاهدة سلام خلصت المصريين من براثن الحرب الصحراوية التي أرهقت الجيش، بينما والده محمد علي باشا كان يريد أن يقدم لإسطنبول أمراً آخر. فقد وعد أن يبيد الوهابيين ويسقط الدرعية، ولهذا كتب إلى الباب العالي يقول إن هذه المعاهدة خطوة حربية مؤقتة لا أكثر.

في أيلول/سبتمبر عام ١٨١٥، وصل الشريف راجح، البطل العربي، مغلولاً إلى القاهرة بعد أن تخاصم وحسن باشا والي مكة الذي اتهمه بالتعامل مع العدو الوهابي. لكن الحقيقة هي أن القواد العثمانيين كانوا يشعرون بالغيرة من هذا الفارس الحرّ الذي أدت شجاعته إلى حصول النصر في بيسيل. في البداية، عومل في مصر معاملة المجرمين. لكن محمّد علي أطلقه في ربيع عام ١٨١٦ مع بدء التحضيرات للحملة الجديدة ضد الوهابيين.

في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٨١٥، وصل طوسون إلى القاهرة، فاستقبل استقبال الأبطال الشجعان برغم أن الحظ لم يخدمه كثيراً في الحرب فلم يوفق في المعارك التي خاضها. وعندما وصل إلى الاسكندرية، استقبله والده محمد علي بفتور وجفاء[١]. قبل مغادرته الحجاز، كانت الطرق كلها انفتحت على مكة، فوصل الحجاج من كل حدب وصوب حتى من نجد، إذ توافد الوهابيون أيضاً لتأدية فريضة الحج التي حرموا منها لسنتين.

في نهاية العام ١٨١٥، وصل مشايخ بعض القبائل إلى القاهرة يطلبون حماية الباشا، وكانت غالبيتهم من عرب عسير التي ثبت محمد علي ابن مدري شيخاً لها بعد طامي. لكن مع خروج الأتراك، هدد أنصار طامي المشايخ الجدد بالقتل ففروا. أحسن محمد علي استقبال هؤلاء وحملهم بالهدايا وأعادهم إلى مكة، لكنه لم يرسل أي قوات إلى الحجاز لانشغاله بالتحضير للدفاع عن سواحله ضد الهجوم الانكليزي المحتمل، فهو، بعد انكسار بونابارت وغلبة الانكليز، اعتقد أن هؤلاء سيتوجهون فوراً نحو مصر لإخضاعها. وما زاد من تأكيد هذه المعلومات في نفسه التقارير المبالغ فيها التي أرسلها رسله في أوروبا. لكن حين أدرك أن لا خطر على مصر من أوروبا، عاد بنظره إلى الحجاز، ناوياً إرسال حملةٍ كبيرةٍ جداً إلى هناك بأمرة ولده إبراهيم باشا. أرسلت الرسائل سريعاً إلى القبائل تنبئهم بوصول إبراهيم باشا وتحضهم على مساندته، وذلك في كانون الثاني/يناير ١٨١٦. كما وعدهم بأن يقوم شخصياً بتتويج كل الانتصارات بدخوله الدرعية شخصياً. لم يأتِ ذكر معاهدة السلام المعقودة مع عبد الله بن سعود، ولا جواب بعد على طلبه بخصوص الإحساء.

في آذار/مارس ١٨١٦، وصلت أخبار الفوضى في جنوب مكّة، وانسحاب القوات التركية من بيشة وترابة، إذ أن إهمال القبائل الوهابية الجنوبية في المعاهدة قوّى الوهابيين في هذه المناطق.

وفي آب/اغسطس ١٨١٦، غادر إبراهيم باشا القاهرة إلى الحجاز حاملاً الأوامر بمهاجمة الدرعية عن طريق المدينة والقصيم، يرافقه ألفان من المشاة و١٥٠٠ من بدو ليبيا الفرسان وصلوا إلى ينبع عبر القصير. وكان بين أركان حربه ضابطان فرنسيان كان أحدهما رفيقاً لبونابارت في روشفورت ولكنه غادر فرنسا بعد سقوط الامبراطور ولجأ إلى مصر حيث أدخله الباشا في أركانه إلى جانب مهاجرين فرنسيين آخرين.

(١) في أيلول ١٨١٦، توفي طوسون باشا بالطاعون في رشيد حيث كان يقود فرقةً من الجيش على الساحل تحسباً لإنزال انجليزي. كان رجلاً يحترم علاقاته بالآخرين، لكن يقال أنه كان يبذر المال كثيراً.

١١

ملاحق

يقدم لنا الجدول التالي الأسماء المختلفة التي كانت تطلقها قبائل البدو المختلفة على الأشهر القمرية، وخاصة العنزيين.

- محرم وكانوا يسمونه أشور.
- رجب نمرة.
- شعبان قصير.
- شوال وذو القعدة: كانوا يسمونهما (معاً وبالجمع) الأقطار.
- شوال (بالمفرد): الفطر الأول.
- ذو القعدة (بالمفرد) الفطر الثاني.
- شهر ذو الحجة: كانوا يسمونه: الضحير.

حرب البدو

عندما كانت المعارك تحتدم ويتلاحم راكبو الجمال أو الخيول في معركة واحدة أو في حرب شاملة ومختلطة، كانت قبيلة بني علي، وهي أكبر القبائل العربية المقيمة بين سوريا والبحر الميت، ومن بينها أفخاذ عمران والحويطات وترابين، كانت تتقدم إلى المعركة وهي تنشد بصوت واحد الأبيات التالية:

يـا طـيـر يـا شـايـب الـرأس
يـا أبـو رخـم وحـدادي
إن كـان بـدكـم لحم نـاس
احـضـروا يـوم الـطـرادي

والرخم والحدادي هما طيران من الجوارح: الأول هو النسر والثاني هو الصقر.

ويطلق العرب على أغنية المعركة هذه اسم: بوشان.

دم الثأر

إن أصل الدية أو غرامة دم القتيل هي مائة جمل بين الكثير من القبائل. وصدّق عليها واعتمدها الوهابيون. وربما تعود إلى أيام عبد المطلب بن هاشم (جد النبي محمد) الذين نذر أن يضحي بواحدٍ من أبنائه العشرة لتشريف مقام الكعبة. ووقع القسم على الابن المفضل لديه. ولكن، أصدقاء عبد المطلب والمقربين من ذويه وأهله وعشيرته لم يوافقوه في ذلك وطلبوا إليه أن يستعيض بعذرية أخرى تم الاتفاق على أن تكون مئة جمل. (انظر تاريخ مكة للزكري).

وعندما يقوم بدوي من القبائل المتمركزة بين العقبة والقاهرة بقتل شخص ما ثأراً للدم يقول وهو يرديه: «نأخذ بثأرنا دمك الساخن».

معتقد الوهابيين

من أقوال ابن سعود إلى سكان مكة:

«بسم الله الواحد الأحد الذي لا شريك له وإليه ترجع الأمور».

بسم الله الرحمن الرحيم.

من الضروري أن يكون كل عبد مكلَّف على معرفة حقيقية بالألوهية، لأننا نقرأ في القرآن الكريم ـ وهو كلام الله المنزل: «أعلم أن لا إله إلا الله». وقال البخاري رحمه الله: «أولاً تعلّم، ثم تكلم، ثم اعمل».

ولو سئل ما هي أسس المعرفة الثلاث لأجاب: «معرفة العبد لخالقه ولدينه ولنبيّه».

وفي ما يتعلق أولاً بمعرفة الله، فلو سئلوا عن:

«من هو الرب» لأجابوا:

«ربي هو الله. هو الذي خلقني وإياه أعبد. ولا أعبد سواه». ودليلنا على ذلك ما نقرأه في القرآن الكريم وفيه: «ليتقدس إله كل المخلوقات. كل شيء في العالم من صنعه وأنا واحد من هذا العالم المخلوق».

وإذا سألوا كيف أعرف أنه هو الخالق، أجيب: «من إشارات ملكوته وخلقه». ودليلنا على ذلك معنى ما نقرأه دائماً في القرآن الكريم: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ (الأنعام، ١٩٠).

ونقرأ كذلك: «الرب هو الله الذي خلق السموات والأرض». وإذا سئل: لماذا خلق الله هذا؟ أجيب: «لنعبده». ودليلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون﴾ (الذاريات، ٥٦).

وإذا سئل بماذا يأمر الله:

أجاب: «يأمر بالتوحيد». ومعناه عبادة الله وحده». ودليلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ (النساء، ٣٦).

وكدليل على ضرورة الصلوات نقرأ ما معناه: «صلوا فالصلاة هي عبادة حقيقية. وكدليل على ضرورة طلب التمني والرجاء نقرأ: ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾(الحجر، ٢٩).

وللتدليل على ضرورة نحر الأضحية نقرأ: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ (الأنعام، ١٢١). وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ملعون من يضحي لغير الله».

الأساس أو الركن الثاني للمعرفة هو دين الإسلام الخاضع للألوهية. ودليلنا على ذلك ما نقرأه: «الدين عند الله هو الإسلام». وإلى هذا يشير النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «أساس كل عمل هو الإسلام».

وإذا سألوا: كم هي الواجبات الأساسية لديننا، نجيب: «إنها ثلاث: الإسلام والإيمان والأعمال الحسنة» وكل واحد من هذه الواجبات يقسم إلى عدة أجزاء: فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها والزكاة وصيام شهر رمضان المبارك والحج إلى بيت الله إذا استطاع.

وكدليل على حقيقة الإيمان نقرأ: «أشهد أن الله أن لا إله إلا هو» ومعنى عبارة «لا إله إلا الله» يؤكد أن لا إله ولا شيء في العالم يُعبد إلا الله.

وكدليل على أن محمداً هو نبي الله نقرأ: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ (آل عمران، ١٤٤). إن واجبنا هو أن نطيع أوامره ونؤمن بقوله ونرفض كل ما نهى عنه. وباتباعنا مثل هذه المبادئ نكون قد أطعنا الله. وسبب الانتماء إلى هذين الإيمانين نفهمه عندما نقرأ ما يلي: «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله». وهذا يبرهن عن تقانا وطاعتنا الكاملة. وكدليل على الصلاة والزكاة نقرأ: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ (البقرة، ٤٣) وكدليل على الصيام نقرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتِب عليكم الصيام﴾. وكدليل على الحج نقرأ: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ (آل عمران، ٩٧).

وكدليل آخر على أركان الإسلام الخمسة التي ذكرناها أعلاه، يمكن أن نذكر ما قاله ابن

عمر: «قال النبي عليه الصلاة والسلام أن الإسلام يقوم على خمسة أركان هي: الصلاة والزكاة والصيام والحج وشهادة أن لا إله إلا الله. وثاني الواجبات المهمة هو الإيمان الذي يتضمن ٧٩ فرعاً، أعلاها شهادة «لا إله إلا الله» وأدناها تبديد كل الشكوك عن طريق الإيمان، والخجل هو واحد من هذه الفروع.

ينقسم الإيمان إلى ستة أجزاء، وهي: الإيمان بالله وملائكته. وبما أنزل من كتب وباليوم الأخير وبوحدانية الله الذي تصدر عنه كل الأعمال الحسنة والإيمان بأنبيائه المرسلين. وكدليل على ذلك نقرأ: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ (البقرة، ٢٧٧). وكدليل على وحدانية الخالق نقرأ: ﴿أنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (القمر، ٤٩). وثالث الواجبات المهمة في الأعمال الحسنة وهذا معناه «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الركن الثالث للمعرفة هو معرفة نبينا محمد، سلام الله عليه. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف من أحفاد إسماعيل بن إبراهيم ومحمد، سلام الله عليه، هو رسول لا نجرؤ على عبادته ونبي علينا تصديقه وإطاعته واتباعه. عاش وأوحي إليه في مكة المكرمة وقاتل ومات في المدينة المنورة. وعنه نحفظ قوله سلام الله عليه: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». وإذا قيل: هل هو فان؟ فالجواب: «نعم، فان». وكدليل على ذلك نقرأ: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الهكم إله واحد﴾ (الكهف، ١١٠). ولو سئلوا: «هل أرسل إلى طبقة معينة من البشر؟» فالجواب: لا. إنه رسول إلى العالمين». ودليلنا على ذلك قوله: «يا أيها الناس أنا رسول الله إليكم أجمعين». ولو سئلوا: «هل يمكن قبول أي دين آخر إلا دينه؟» فالجواب: «لا. لا يمكن قبول أي دين آخر». ولهذا نقرأ: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (آل عمران، ٨٥). ولو سئلوا أيضاً: «هل يأتي نبي بعده»، فالجواب هو: «لا. إنه خاتم الأنبياء والمرسلين حتى يوم الدين». وكدليل على ذلك نقرأ: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله﴾ (الأحزاب، ٤٠).

ورسالة من محمد علي إلى كبار القوم في المدينة المنورة يطلعهم فيها على تفاصيل انتصاره الأخير على الوهابيين في بيسيل (كانون الثاني/يناير ١٨١٥).

باسمه تعالى

إلى شعبنا العظيم سكان مدينة مكة المكرمة

إلى الأثرياء والأشراف، جيران نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أسياد المدينة المنورة وعلية

قومها، سلام الله عليكم ورحمته وأمدكم بعون منه وأفاض عليكم من خيره وكرمه. آمين.

أما بعد،

نحييكم أجمل تحية ونقرئكم السلام، ونعلن لكم أن القدرة الإلهية مكنتنا من تنفيذ رغبات سلطان سلاطين الإسلام، خرجنا بجيش المؤمنين من مكة مزودين بكامل العتاد وكل المؤن والعفش والذخيرة وذلك بهدف نقل مقر قيادتنا من هناك إلى كولاش. تركنا مكة لهذه الغاية يوم السبت في السادس والعشرين من شهر محرم ووصلنا إلى كولاش يوم الأربعاء، وكان هو آخر يوم من ذلك الشهر. خطتنا كانت الإسراع نحو تربة للقاء القوات المعادية (الضالة) التي يتزعمها فيصل بن سعود يرافقه ابن شكبان وابن دحمان وابن كتمان وابن ماهي! وأيضاً يرافقه بخروج وابن حتامل سوية مع كل شيوخ عرب بيشة والدواسر وعرب عبتان وكل عرب بلدان الحجاز وسيبيا والعارض. وعلاوة على ذلك تم تدعيم المجموع ببدو التامي وعشرة آلاف من عرب عسير. وارتفع مجموع القوات إلى أربعين ألف رجل. وعندئذ استبد الشيطان بمجالسهم ونووا مهاجمتنا. غادروا تربه ووصلوا إلى جوارنا بالقرب من بلدة بيسيل المشهورة. تقدمنا نحوهم مع خمسة عشر ألف من فرساننا اخترناهم من بين المؤمنين مع مدفعين محمولين. وعند اقترابنا انتشروا فوق الجبال وأبدوا مقاومة شرسة. ولكن جنودنا انقسموا إلى فئات. وبعد مذبحة كبيرة ردوهم على أعقابهم، وأنزلوا بهم خسائر فادحة. وعندئذ أخضعناهم لإطلاق نار متواصل لإجبارهم على الانسحاب إلى السهول. وتولى جنودنا هذا العمل منذ بزوغ الشمس وحتى غيابها. وعندما هبط الليل توقفت المعارك ثم استولينا على الممرات التي حاولوا الانسحاب من خلالها. وحفظ الله قوتنا ونجحت خدعتنا الحربية. وفي هذه الأثناء طلبنا بتعزيزات مثالية مكوّنة من ألفي جندي مشاة ليأتونا من كولاش مع مدفعيتهم وهاجمنا العدو مع طلوع النهار. لم يصمدوا في الهجوم وفروا. وبعون الله غمسنا سيوفنا في دمهم. هجروا معسكراتهم وخلفوا وراءهم حوالى خمسمئة خيمة وخمسة آلاف جمل وناقة وعدداً من المواشي والمؤن والعتاد التي سقطت كلها غنائم في أيدي جنودنا. وانقض عليهم أيضاً حلفاؤنا عرب الحجاز في الممرات الضيقة. طامي نفسه فر في الصباح الباكر ومعه خمسة فرسان وخمسة راكبي جمال. وهكذا أبادهم الله بقدرته العلية.

تركنا كولاش يوم الأحد نطارد العدو بسرعة ووصلنا إلى جوار تربة يوم الثلاثاء. وهناك لجأ فيصل مع خمسين فارساً ومئة راكب جمل، هو كل ما تبقى من قواته. وعندما علم بقدومنا فر في الحال. جاء سكان تربة والقرى المجاورة وطلبوا إلينا منحهم الأمان، وعدناهم ذلك بصدق وجعلنا مقر قيادتنا في بلدتهم. ثم انضم إلينا كل العرب المجاورين. وهكذا حقق الله أمانينا

بتخليص الناس من أعدائهم ومضطهديهم المجرمين.

كان أملنا الإعلان عن هذه الأشياء الحسنة وإعلامكم كيف أن القدرة الإلهية اللامتناهية ضمنت لنا تحقيق كل أمانينا». والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وأتباعه أجمعين.

السابع من شهر صفر عام ١٢٣٠ هجري.

رسالـة من عبد الله ابن سعود إلى طوسان باشا لمناسبة مغادرة هذا الأخير القصيم إلى المدينة.

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على سيد العالمين محمد، صلوات الله عليه مع أفضل التبريكات والتحية إلى صاحب المقام العالي الشريف أحمد طوسان باشا أمد الله بعمره وعم الجميع بنفع أعماله الحسنة.

وبعد،

نأمل أن تبلغكم هذه الرسالة وأنتم في صحة وافرة وأن يغدق الله العلي القدير من كرمه ورحمته، الأمر الذي يسرنا ويفعم قلوبنا.

وفي ما يتعلق بما أشرتم إليه من تبرير للمطالب فهي ليست مفهومة وبالتالي ليست مقبولة ومعارضة للسلام. وإذا لم نرغب بالاحتفاظ بصداقة دائمة ومخلصة والإيفاء بالوعود التي سبق وقطعناها على أنفسنا ذات يوم، فقد كان حرياً بنا ضمان الطلب وتأمينه. ولكننا رجال إيمان وثقة ولم نتراجع عن أية معاهدات ونحن ننفذها رغم قناعتنا بأنها جاءت مخيبة لآمالنا.

وفي ما يتعلق بالذهاب، فنحن نعتقد أنكم لن تسيئوا الظن بنا ولن تعيروا آذاناً صاغية لأعدائنا وكل الذين خابت ظنونهم. اسألوا البدو الذين هم معكم. فهم إذا ما اختاروا قول الحقيقة سيقولون لكم أنهم كانوا على استعداد حتى لقتل واحد من عائلة آل سعود وأني وعدتهم بالأمان. وهم لا يشكون إطلاقاً بوعدي ويثقون به كامل الثقة. نحن هنا فوق أرضنا وهذا هو بلدنا. دعنا ننصحك بألا تسيء الظن في نوايانا وأن تثق بإيماننا المطلق. لقد أقسمت بالله أن لا أتحرش بك أو أضايقك لا أنت ولا أية جيوش بطريقة قد لا تسرك وتزعجك. وفي هذه اللحظة إذا تراجعت عن العودة، فسوف أتراجع أنا وأنسحب مع جيشي إلى عنيزة في القصيم. ولكن إذا كنت ستصدق تقارير الاعداء وتشك في إخلاصنا فأنا على استعداد الآن للتوجه إلى عنيزة، وذلك كرامة لخاطركم وخاطر أبيكم. ولذلك نطلب إليك أن ترسل لنا خطاباً تطلب فيه الأمان من الله ومن السلطان ومنك شخصياً لجميع العرب في جانبنا حضراً

كانوا أم بدواً. وأن ترسل أيضاً رسالة ثانية بنفس المعنى إلى سكان بتاح ونبهان وشنان التي سنرسلها إليهم في الحال. وإن شاء الله ستتلقى الجواب هذه الليلة. وإذا كنت تريد أن ترسل ركاب جمال حول الموضوع الذي ذكره لنا أحمد، فلا اعتراض لدينا.

ومهما يطرأ، فلا شيء سيفرح قلوب المسلمين ويطمئنهم إلا عودة الرهائن الذين سيكونون تحت رعايتي. إبراهيم سيخبرك بأسماء جميع الرهائن وهم: محمد دالي باشي وعثمان السلحدار وإسماعيل الجوخدار وأحمد آغا. أؤكد لك أن هؤلاء الرهائن سيحظون برعايتي الخاصة.

السلام عليكم ورحمة منه تعالى..

والسلام على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

عبد الله ابن سعود